

دعوة الحق

نظرة على تقرير المصير

التسامح في الإسلام

الفائدة المصرفية في نظر الإسلام

العودة المباركة

العدد 243

الثمن 4 دراهم

كتب جديدة أصدرتها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية



أصدرت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية مؤخرا كتاب «في موكب السيرة النبوية، أو في «بيوتات الرسول ﷺ»، تأليف محمد المختار ولد أباه الشنقيطي.

وهو كتاب يعد من الكتب الإسلامية القيمة التي تضيف إلى المكتبة الإسلامية دراسات وبحوثا مستفيضة عن حياة النبي ﷺ، تناول كاتبه فيه بالدراسة والتحليل سيرة الرسول الأكرم الغنية بالدروس والعظات، الحافلة بشواهد العظمة والخلود للدين الإسلامي الحنيف.

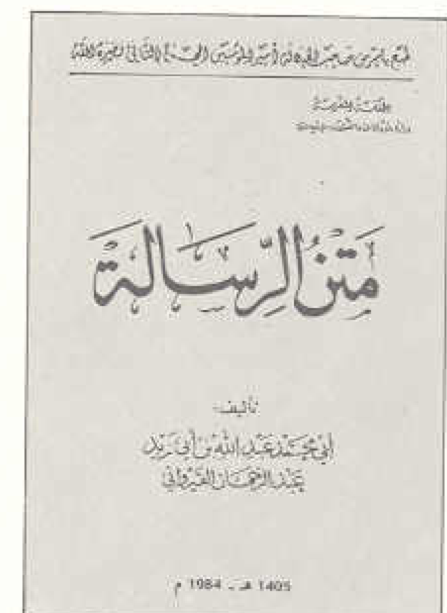
وقد تتبع المؤلف في هذه الدراسة القيمة حياة الرسول منذ نشأته الأولى إلى أن اصطفاه الله ليكون حاملا لرسالة الهداية والنور في كفاحه المرير من أجل نشر الدعوة وتبليغ الأمانة، وما لاقاه من أعداء الدين من كيد وسخرية واستهزاء وإعراض عن الحق، إلى أن جاءت الهجرة النبوية التي فرقت بين الحق والباطل وبرهنت على أن الإسلام هو دين الله الذي ارتضاه للبشرية جمعاء.

وقد حرص الكاتب على أن يشير في كل مناسبة إلى خلق النبي ﷺ، وشمائله وما وهبه الله من قوة وصبر وإيمان ووفاء مما جعل منه نبي الرحمة ورسول الوفاء.

كما تعرض الكتاب إلى أمهات المؤمنين والظروف التاريخية التي أحاطت بدخولهن في بيوت الرسول ﷺ وعن عشرته لهن وما كان لهن من مواقف خالدة وما امتزن به من فضائل وشمائل وجهاد في سبيل الله.

ثم تناول الحديث عن نخبة من المهاجرين والأنصار الذين آزروا النبي الكريم وناصروه، وما كان لهم إلى جانبه من بطولات وجهاده بأنفسهم وأموالهم. وما خصهم الله به من خصائص الفضل والتقوى.

ويقع الكتاب في 245 صفحة وهو من الحجم المتوسط وقد طبع تحت إشراف الصندوق المشترك لإحياء التراث الإسلامي العربي بين وزارتي الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، ودولة الإمارات العربية المتحدة.



تعزيزا لفقه المذهب المالكي وتدعيما للوحدة المذهبية ببلادنا، التي ما فتئ صاحب الجلالة أمير المؤمنين نصره الله يحض عليها ويدعو إلى التمسك بها والحفاظ عليها.

يسعد وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية أن تزف إلى جمهور الدارسين والوعاظ والأئمة والمرشدين وغيرهم من المهتمين، نبأ إصدارها لطبعة جديدة من كتاب «الرسالة» لابن أبي زيد القيرواني، الذي يعد من الكتب الفقهية الأصيلة على مذهب الإمام مالك رحمه الله، وذلك بعد مراجعته وتصحيحه وشكله من طرف صفوة من العلماء المتخصصين، إضافة إلى ما يمتاز به من سلاسة في الأسلوب وسهولة في الإدراك.

وقد كان باعث الوزارة المذكورة على طبع كتاب «الرسالة» طبعة جديدة وانيقة هو وضع كتاب فقهي بين يدي الطلبة والأئمة والمرشدين، يكون جامعا لمبادئ العقيدة الصحيحة وأهم الأحكام الفقهية في مختلف العبادات والمعاملات.

ويعتبر الكتاب لبنة من اللبنات الأساسية في صرح المذهب المالكي الذي اختاره المغاربة مذهبا لهم واعتنوا به عناية فائقة.

وطبعه في حلة جديدة يعتبر معلمة بارزة من معالم الطريق التي ترسمها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية لنشر كتب المذهب المالكي تنفيذا للتعليمات السامية لمولانا أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله ونصره.



شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط - المملكة المغربية



أسسها :
جلالة المغفور له
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957 م

التحرير :
الهاتف : 601.85

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

الاشتراكات :
في المملكة المغربية : 55 درهما
في البلاد العربية : 67 درهما
في العالم : 77 درهما

الحساب البريدي : رقم 55-485 . الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

فهرس العدد 243

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية

دفاعا عن العقيدة

□ * □ بوأت العناية الالهية بلادنا، منذ بزوغ الاسلام وسطوع شمسه على العالم أجمع، مكانة مرموقة بين شعوب ودول الامة الاسلامية جمعاء، تصدر المغرب بفضل هذه المكانة، وبفضل ما تتميز به من خصوصية في الحضارة والتاريخ، طليعة العمل الهادف الى حماية الاسلام والدفاع عنه؛ عقيدة ودستور حياة، ورسالة وقوام وجود، وحضارة وعنوان رفعة.

وهذا، العمل لم يقتصر على ما يؤديه المغرب ـــ بوحي من القصد النبيل والسعي المتجاوب مع ايمانه ووفائه لرسالته ـــ في نطاق جغرافي ضيق بالحدود التي اقامتها الافكار والمفهوميات المنعزلة في الحياة البشرية، بل وتجاوز بخصال التسامح والتعايش من جهة، وبشمائل التفاعل والتواصل من جهة اخرى، النطاق المحدود الى النطاق الاشمل، وخاصة على صعيد العالم الاسلامي الذي اصبح يكون في عصرنا الحديث، كتلة واحدة جعلت من أمة الاسلام ـــ اليوم واكثر من اي وقت آخر ـــ عروة وثقى بما بينها من اواصر ووشائج عديدة ومتعددة.

وانطلاقا من دور المغرب في هذا النطاق، وهو نطاق يتسع ويتنامى وتتأكد فعاليته في مسار التاريخ الانساني المعاصر، يمكن الحديث عن سمة تطبع العمل المغربي وتميزه بالمفعولية والمصداقية، بل وتفرد له في دائرة العمل الاسلامي ككل، منزلة تشهد له بالحضور الفعال في حلبة الدفاع عن قضايا الاسلام والمسلمين، وتقرن دوره الطليعي بالفعل الهادف الى آفاق التقدم والنماء، وتجعل اسم المغرب ـــ في المحافل الاسلامية بشكل خاص ـــ رديف الاستمرارية في المشاركة الدائمة والنزيهة في تحريك وصقل وبلورة الافكار التي ستحدو العمل الاسلامي كله، الى المقاصد والغايات التي حددتها مبادؤه ومنطلقاته الثابتة، وذلك

ن اجل ان يصبح هذا العمل في النهاية عنصرا اساسيا في اقرار التعايش والتسامح
التساكن بين الدول الاسلامية اولا، ثم بين اعضاء الاسرة البشرية ثانيا.
وسواء في تاريخه القديم او في تاريخه الحديث، فان سجل المغرب ناطق بالاعمال
الخطوات العظيمة التي خطتها بلادنا على هذا السبيل، سبيل الايمان بفعالية العمل من
جل حماية الاسلام والمسلمين، وإبقاء راية الدين الحنيف عالية في الآفاق، وهامته سامقة
ى الحضارات وتقدمها لمصلحة التطور الانساني.
إذ، منذ وصول الفاتح العظيم، المولى ادريس الاول الى أرض المغرب؛ حاملا شعاع
لدين والامانة، ورسالة الهداية والنور والحصانة من الجهالات والضلالات، منذ اربعة
شر قرنا ونيف، والمغرب لا يكف عن التضحية، ولا يتوقف عن البذل، ولا يتردد عن
لعطاء، بل يقدم على الشهادة وهو مؤمن ان كلمة الله هي العليا، وكلمة الكفار والمارقين
ي السفلى.
وبتسلسل التاريخ، وتغير أطواره، توارثت أجيال المغرب المؤمن المسلم المهمة
لصعبة في الحفاظ على عزة الاسلام والمسلمين بأي ثمن؛ وتوارثت معها هذه
لاجيال : صلابة في الدفاع، وقوة في العزيمة، وهمة قعساء لاتستكين للاهوال والخطوب،
تستطيب كل ما يقرب الى نيل احدى الحسنيين: النصر او الشهادة، وعدا من الله
سبحانه، كتبه لعباده المؤمنين، ومن اصدق من الله وعدا.
حتى اذا اطلت على عالمنا الحديث، ملامح عصر جديد، انفرد بالتنافس والتباري
ى جميع الميادين، وبصرف الجهود والهمم والفعاليات الفكرية والبشرية الى النهوض
لمسؤوليات وأدائها، وتجدد فيها — اكثر من اي وقت مضى — الاحساس بأهمية العمل
لشترك، وبقيمة المساهمة المتبادلة لاجتناء جدوى تكون اشمل وأكمل للمجموع... ...
كانت بلادنا — تحت قيادة العرش العلوي المؤمن — البلد الاسلامي الطليعي الذي تنبه الى
مهام المرحلة التاريخية التي تجتازها امتنا الاسلامية اجتيازا دقيقا وخطيرا وحافلا بالمهالك
الشدائد التي قد تغري الامة بالانزلاق والزلل، إن لم تكن الامة موحدة، والصفوف
لمومة، والجموع الشتيتة مشمولة بالايمان، والعقيدة، وحسن النيات وصدق وإخلاص

الارادات، على المستويات كافة؛ اقتصادية واجتماعية وتنموية وثقافية وسياسية...
ولهذا الهدف، كانت جهود وطاقات أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله، مجندة بالكامل الى لم شعث المسلمين، وتوحيد أفكارهم وأهدافهم ومجهوداتهم على سبيل سوي، تكون فيه المصالح الاسلامية العليا مصونة ومحمية من الاطماع والتهافتات التي تمارسها عليها قوى الصهيونية والاستعمار الجديد المتمثل في اكثر من جهة تتربص الدوائر بالعالم الاسلامي، وتتحين الفرص والاوقات المواتية للانقضاض عليه.
ويطول بالقلم المقال، ويتسع لكلماته المجال، اذا عزم النية وعقدها على تعداد المناقب والمآثر والمكرمات الجليلة التي اسداها وما فتىء يسديها أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني اعزه الله للامة الاسلامية في منعطفها التاريخي الحاسم هذا؛ حفاظا على مقدساتها، ودفاعا عن عدالة قضاياها، ومرافعة امام العالم ومحافله ودوائر القرار فيه، لتحسيس فكره بالاخطار التي تحدق بهذه القضايا، ولتنوير رجالاته وقادته وزعمائه المبرزين بما يشكله استمرار المظالم على العالم الاسلامي من خطر شديد، قد لاتكون عواقبه حميدة اذا غالي وأصر الاعداء على عدوانهم وكفرهم بالحق الاسلامي الذي اقرت به المواثيق الدولية، في الشرق او في الغرب، واعترفت بمشروعيته ومصداقيته كل المحافل الاممية، على اختلاف اختصاصاتها وتباين اهتماماتها وتنوع انشغالاتها.
اجل؛ إن المغرب في دائرة عمله الاسلامي، يمارس في شخص قائده الملهم أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني أيده الله، تأثيرا واسعا ونافذا على طول الخط الذي تلتقي فيه القضايا الاسلامية الملحة؛ هذا التأثير، يتجسد حينا في عمل ذي طابع روحي وفكري متفاعل مع التيارات والمناهج العالمية المعاصرة، ويتجلى حينا اخر في مبادرة حية وديناميكية مستعملة اقرب السبل وأيسر الطرق لايجاد الحلول الناجعة للمشاكل التي يتخبط فيها العالم الاسلامي، ويتمثل حينا اخر في خطوة عملية يتخذها المغرب إزاء قضية من القضايا، تكون فيه مثل هذه الخطوة، أمرا لازما وفعلا حازما لحسم الاشكاليات التي تكتنف الرؤية والفهم والعواطف في تأججها وانفعالاتها، وأخيرا، يتشخص هذا التأثير تارة في العمل الجاد والحيوي لتقريب الشقة وتنقية الاجواء ورفع المنغصات عنها، وتارة

خرى في العمل المكثف والمتواصل لابقاء اطار العمل الاسلامي، الاطار الصالح لمعالجة لشاكل، وتصفية الخلافات، وتصريف المجهودات الى ما فيه الخير والصلاح والنفع لمجموع لامة الاسلامية.

ولاجرم بعد ذلك، ان يكون سجل الواقع، حافلا بالشواهد الناطقة بحقيقة هذه سياسة الحكيمة، وهذا المنهاج القويم الصحيح الذي يسلكه المغرب، مسلكا اسلاميا دافع عن العقيدة، ويصونها، ويلتزم بالذود عن حياضها، ويبذل كل الوسع في غرس ـور الوفاق، والتساكن، والسلام، والاستقرار بين الدول الاسلامية كافة.

ولاجرم كذلك، ان تنتج هذه السياسة المؤمنة، مواقف الاكبار والتقدير لبلادنا، تولد في ضمير العالم الاسلامي كله، شعورا غامرا بالاعتزاز والاجلال لما يتخذه المغرب من رارات وخطوات رشيدة، ولما يبذله من تضحيات واعمال جسيمة، ولما يبادر اليه من حركية تنم عن حس اسلامي اصيل وحقيقي وبالغ نهايته وغايته في الصدق والمصداقية؛ فاعا عن الاسلام، وحفاظا على الكيان الاسلامي، وتثبيتا لمشروعية الامة الاسلامية مشروعية وجودها البشري والحضاري والتاريخي، وقبل كل شيء، مشروعية وجودها عقائدي والمذهبي كأمة تحمل رسالة في الحياة، وتؤمن بدين هو رحمة وهداية للناس كافة للعالمين جميعا؛ في مشارق العالم ومغاربه.

ومن نافلة القول، الحديث عما حتمته هذه الوقائع الناطقة والشواهد الحية، على لادنا من مهام ومسؤوليات اسلامية خطيرة في شأنها، فريدة في نوعها، تستوجب ممن حملها وممن قلد بمقاليدها، جهدا دائبا، وطاقة حية، وعملا مستمرا، ونزاهة مطلقة، مرونه فكرية وعملية، تستطيع ان توفق بين جوهر القضية والمسؤولية، وبين المتغيرات عميقة التي تحدث في عالمنا السريع المضطرب والمتشابك في مصالحه واستراتيجياته ختلفة...

وهذا هو شأن المغرب فعلا حينما اوجبت، من باب الثقة الكاملة والامانة المطلقة، سائر الدول الاسلامية على جلالة الملك الحسن الثاني المنصور بالله، ان يضطلع جلالته بمهمة الدفاع عن قضاياها ومصالحها الجوهرية، وحينما ارتأت هذه الدول، من جهة

التقدير لعبقرية جلالة الملك وحنكته وعلو كعبه في ادارة الحوار مع المحافل الدولية، وسمو فكره ونفاذ بصيرته واستوائها على صراط الله المستقيم، ان تفرض على جلالته التكليف بالمسؤولية؛ مسؤولية الدفاع عن الحقوق والقضايا الاسلامية المشروعة، أمام العالم اجمع.

ان ذلك كان كله صدى لواقع يعيشه المغرب ويحيا في خضمه؛ بلدا يؤمن بالخير للجميع، وبالتساكن والتسامح، وبالتعايش والتكافل، لتجديد وثبة اسلامية نهضوية تبعث الاعتزاز، وتحيي الامجاد، وتعيد زهرة الحضارة الاسلامية الى اوجها وعنفوانها وعز ازدهارها وحيويتها التي تأثرت بها وانعكست منجزاتها على سير الحضارات الانسانية كلها.

ومن هذا الواقع الداعي الى الفخر، والباعث على الاعتزاز، نتحدث كذلك، عن المؤتمرات الاسلامية، على مستوى القمة وعلى المستويات الاخرى، التي كانت ـ وماتزال ارض المغرب صعيدا طيبا لها، ونتحدث عن المؤسسات والمنظمات الاسلامية، ثقافية وعلمية وغيرها، التي يوجد مقرها ببلادنا، ونتحدث كذلك، عن الندوات والملتقيات والمناظرات الاسلامية التي تكون بلادنا منطلقا لصياغتها ولاقرار افكارها ومقاصدها والمغزي منها، بهدف الدفع بالثقافة والوعي والفكر ـــ في نطاق الدعوة الاسلامية ككل ـــ الى آفاق ومجالات من التأثير، غير محدودة.

وخلاصة الخلاصة لهذا الحديث، ان المغرب المسلم بالقيادة الرشيدة لأمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني المؤيد بالله، يقع من الأمة الاسلامية، موقع القلب النابض بالحركة والعمل والاخلاص في الدعوة والنزاهة في الفعل والوضوح في الهدف، ولذلك فهو ذلك البلد الاسلامي الذي يعلن حضوره المستمر والتقاؤه الدائم حول كل ما يهم الاسلام والمسلمين في عالمنا الحديث، عن مغرب وفي لدينه، ولرسالته، ومخلص لامانته الدينية والتاريخية والحضارية والفكرية، وهي أمانة تتخذ من الايمان معوانا على مجابهة الضالين، ودحض الجهالات، وردع المعتدين على حرمات الاسلام، وانتهاج ما أمره المولى سبحانه في كتابة الحكيم : «أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن»، منهاجا دائما لتقوية الحضور، وشحذ الذهن للمهام، وصقل الفكر للمزيد من تحمل المسؤوليات؛ انتصارا للاسلام وللمسلمين في مشارق الارض ومغاربها.

دعوة الحق

نظرة على تقرير المصير

للأستاذ عبد الله كنون

من مميزات هذه الاكاديمية انها دائـرة معارف عامة شمولية لا تختص باللغة او الادب او العلم او الفن او الدين او الفلسفة او التاريخ او الاقتصاد او غير ذلك ، بل هي كما اراد لها مؤسسها جلالة الملك الحسن الثاني تحتضن هذه المعارف كلها وتزيد عليها بشيء تحرص كل الاكاديميات على تجنبه والابتعاد عنه ، لانه في نظرها يشكل خطرا عليها ويجعلها تقف في مهاب الرياح ، وهذا الشيء هو السياسة التي قال فيها احد اعلام الشرق : انها ما دخلت شيئا الا افسدته .

لكن عاهلنا الكريم ليس من هذا الراي في شيء ، كيف والسياسة هي محرك الامم والدول الى اثبات الذات وفرض الوجود وبناء الحضارات وتخليد الآثار ، ولما كان العلماء منارات للاهتداء ، كان ارسطو الملقب بالمعلم الاول يكتب في السياسة كما يكتب في الفلسفة والسماء والعالم ، ومثله الفارابي الملقب بالمعلم الثاني ، وابن خلدون وسواهم ، حتى اذا صار العلم وظيفة أصبحت الاكاديميات ابراجا عاجية ، ينقطع فيها الاكاديميون كما ينقطع الرهبان في صوامعهم .

فحين يقترح راعي أكاديميتنا رعاه الله موضوعا سياسيا لبحثه في دورة من دوراتها ، وكثيرا ما يفعل ذلك ، انما يكسر هذا الطوق الذي يظن انه طوق نجاة ، وما هو الا قيد لحرية التفكير والتعبير .

ونحن انطلاقا من هذه الحرية نلقي نظرة خاطفة على الموضوع الذي اقترحه جلالته في هذه الدورة وهو حق الشعوب في تقرير مصيرها ، وذلك من الناحية التطبيقية لا من الناحية القانونية ، فان هذه لا غبار عليها .

ان هذا المبدا يعكس على الصعيد السياسي الفقرة الاولى من وثيقة حقوق الانسان التي اعلنتها الثورة الفرنسية سنة 1789 ميلادية والتي تقول : « يولد الناس ويحيون احرارا ومتساوين في الحقوق » وكان الرئيس الامريكي ولسن هو الذي صاغها في هذه العبارة واضفى عليها دوليا صفة المبدا السياسي ، وذلك في اعقاب الحرب العالمية الاولى واثناء انعقاد مؤتمر الصلح بفرساي سنة 1918 . وكان قد تقدم الى هذا المؤتمر باربعة عشر مبدءا سياسيا بشر بها بين الناس ودعا الى قيام مجتمع انساني جديد على اساسها ، ومنها هذا المبدا ، فتوجهت اليه انظار الشعوب وتركزت آمالها عليه ، ولكن معاهدة الصلح خيبت تلك الآمال ولم تقدم منها الا انشاء جمعية الامم التي جعلتها اداة لتنفيذ المخططات السياسية للدول الكبرى المنتصرة في الحرب .

وقبل الثورة الفرنسية وقبل ولسن ، قال عمر بن الخطاب لعمر بن العاص واليه على مصر وقد رفع اليه قبطي من عامة الشعب مظلمة جرت

عليه ، « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ؟ » فهذه الكلمة الخالدة هـــي مدلول الفقرة الاولى من وثيقة حقوق الانسان ومضمون المبــدا السياسي الذي نحن بصدده ولكنها تختلف عنهما في التعبير ، فهي قد خرجت مخرج الانكار على منتهكي حقوق الشعوب ، بحيث تعتبر توبيخا وضع في ملف الوالي الذي لم يرفع المظلمة عن احد رعاياه ، كمـــا تختلف عنهما في التطبيق ، اذ رد عمر مظلمة القبطي وانتصف له من خصمه كما ثبت في التاريخ .

ومن هنا نتعرض للناحية التطبيقية في هـــذا المبدا فنرى ان الثوار الذين وضعوا نواته الاولى في وثيقة حقوق الانسان سرعان ما نسوه وطووا ذكـره فيما بينهم كما تحدثنا عن ذلك احداث ما بعد الثورة، ولكن المهم ليس هو النسيان ، فما زالت المبادىء الخيرة منذ عهد النبيئين والمرسليـــن والحكمـــاء والمفكرين تنسى وتطوى ، وانما المؤسف جدا هو ان تنشا قوانين ضدا على هذه المبادىء كقانو ن الاندجينا الذي انشا ه احفاد اولئك الثوار في بلاد الجزائر منذ احتلالها سنة 1830 لمعاملة اهاليها الذين يعتبـرون من الوجهة القانونية موطنين فرنسيين .

وما ذا نقول عن اعمال المنتصرين في الحرب العالمية الاولى وقرارات جمعية الامم التي كانـت تزكي اعمالهم المنصبة على المغرب ومصـر والعرب عامة والهند وغيرها من الامم والشعوب التي كانـت كلها في حالة ثورة تطالب بحريتها واستقلالها ، اعني بتطبيق حق الشعوب في تقرير مصيرها ! فالمغرب الذي شارك في الحرب بدماء الآلاف من زهرة ابنائه ، وكان في كل اقليم منه ثورة على الاحتلال الاجنبي ، ومصر التي كانت تهتز جنباتها بثورة 1919 ، والبلاد العربية التي وقفت بجنب الحلفاء وثارت على دولـة الخلافة العثمانية املا في التحرر ، والهند التي كان غاندي يقود فيها ثورة سلمية لاسترجاع سيادة بلاده وتخليصها من التبعية الاجنبية ، كل هـــذه البـــلاد وغيرها خابت آمالها وصدمت بما واجهها به جمعية الامم من تثبيت الحماية في المغرب ومصر ، وفرض ما يسمى بالانتداب على البلاد العربية بعد تقسيمهـا الى دويلات مختلفة التبعيات ، ووعد اليهود بوطـــن قومي في فلسطين الذي ادى الى تشريد اهلها ، وتعزيز احتلال الهند على رغم انف تقرير المصير .
ومن ثم قال الشاعـــر العربي متسائـــلا عن مبـــادىء ولســـن :

اين ماقد قالـــه ولسـ — ــن يا مستر كلايـــن

لم يكـــن ولســـن فـــردا — ان في الشرق ولاســـن

وحقا فقد كان في الشرق عدة ولاسن ، ولو لم يكن منهم آنذاك في العالم العربي الا سعد زغلـــول ، وفي الهنـــد الا غانـــدي لكفـــى !

والعجيب العجيب هو امر الثورة الحمراء التي شبت في اكتوبر 17 وملأت الدنيا صخبا بالدعوة الى حرية الاوطان وحقوق الشعوب فكان اول ما بــدات باخماد الثورات التي كانت متاججة في التركستـــان وسائر آسيا الوسطى على السيطـــرة القيصريـــة واخضعتها لحكمها ولنظامها الشيوعـــي .

واذكر هنا للاعتبار اننا كنا في زيـــارة وديـــة للاتحاد السوفياتي سنة 1969 وعند زيارة الكرملين، قادنا المرافق ، وهـــو رئيس الادارة الدينيـــة في الحكومة الى الركن الذي كان يقيم فيه الزعيم لينين بهذا القصر العظيم ، ورأينا فيه ما كان يستعملـه لينين من الغرف الصغيرة والاثاث المتواضع ، ومما اطلعنا عليه من محتويات مكتبة رسالة صغيـــرة في اطار معلقة على الجدار ، وقال لنا ان هذه الرسالة هي التي وجهها لينين الى فلندا يعتـــرف فيهـــا باستقلالها ، وزاد قائـــلا : وبالمقابـــل وجـــه الى اوز بكستان المصحف العثماني ، فقلت لرفاقـــي : بانيته عكس ! وسال المرافق الترجمان عما قلـت فاخبره ، فقال لي ان الفلنديين غير مسلمين فكيـــف يوجه اليهم المصحف ، فقلت له ليقراوه فيسلمـــوا ويتحرر مسلمو اوز بكستان ! فنظر الـــي باستغراب ولكني ضحكت فضحك وانقلبت القضية الى مزاح .

لا انكر أن مؤتمر الصلح سوى كثيرا من قضايا النزاع التي قامت عليها الحرب ، ولكـــن في أوربـــا فقط ، كان ليس في الدنيا الا اوربا ، فطبق مبـــدأ تقرير المصير على شعوب البلقان وقرر استقـــلال بولونيا ، وأعاد الالزاس واللورين الى فرنسا ، وغير ذلك ، وهذا امر لا يستغرب ، وما كان ينتظر مـــن المنتشين بخمرة النصر غير ما فعلوا ، فالدنيا هكذا كانـــت ومـــا تـــــزال !

واعود الى توثيق مبدا تقرير المصير فاشير الى كلمة شبيهة به تمثل قاعدة فقهية في الشرع الاسلامي وهي التي تقول : « الشارع متشوف للحرية » ولئن كانت تقصد حرية الافراد فانها في الاخير تجر ذيلها على حرية الجماعات ، ومعلوم ان الاسلام الغى جميع انواع العبودية التي كانت قائمة في العالم ، غداة قيام دعوته ، مثل رقيق الخدمة ورقيق الاستمتاع ، وكان مصدرهما القرصنة والاختطاف ، وكذا رقيق الارض المعروف بالسرف، والرقيق الذي نشأ عن تجريد الشخص من حريته بمقتضى بعض القوانين وغيرها ولم يبق الا على رقيق الحرب لانه لم تكن هناك اتفاقية دولية بشأن اسرى الحرب .. وتطبق القاعدة المذكورة فيما اذا كان الرقيق من هذا النوع مشتركا بين طرفين وحرر احدهما نصيبه فان النصيب الآخر يحرر على صاحبه لان الشارع متشوف للحرية ، وكذا فيما اذا حرر السيد عبده وهو سكران فانه يحرر عليه ولا يعذر بالسكر او حرره هزلا فانه يحرر ، لان هذه من المسائل التي هزلها جد . وفي اسرى الحرب ليس ضربة لازم ان يسترق الاسير ، فان الشارع أعطى للسلطان الحق في أن ياسر او يمن ، وكثيرا ما حرر ملوك المسلمين اسرى حرب بالعشرات والمئين ، وفي معركة الارك الشهيرة أطلق المنصور الموحدي اسار مائة الف محارب اسباني ! . وفيما عدا ذلك رغب الشارع في تحرير العبيد بعدة وسائل وجعل في مصارف الزكاة للرقاب المملوكة . ويفتي العلماء اليوم بعد الغاء الرق بجعل سهم من مصارف الزكاة اعانة للشعوب المستعمرة ، فيصل الى حركات التحرير في العالم مبالغ طائلة من هذا الباب ، فياحبذا لو انشىء تنظيم عالمي بين انصار الحرية الذين لا يتقيدون بارتباطات سياسية ويتنزهون عن النزعات العنصرية وما اليها لاستغلال هذه البوادر الانسانية في الشريعة الاسلامية ومثلها في القوانين الوضعية بهدف تحقيق مبدا تقرير المصير ، واذن لأمكن التخفيف من الويلات التي يعانيها معظم شعوب العالم تحت وطأة الاستعمار القديم والجديد واقامة مجتمع بشري ينعم الناس فيه بالسعادة والطمأنينة ، وتقل فيه نوازع الشر واسباب الحرب التي تحصد نفوس الابرياء المستضعفين ارضاء لنزوات الطغاة والمتسلطين ! ...

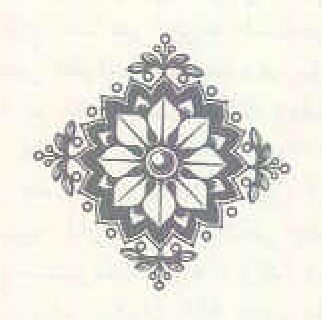
ثم ان هذا من حيث المنطوق ، واما من حيث المفهوم الذي يتبادر الى الذهن من ظاهر الالفاظ ، فان الدلالة المطابقة لمفردة الشعوب قد تؤدي الى غير ما يراد بحق تقرير المصير ، واذا كان المراد لا يدفع الايراد . فاننا نورد على هذا المبدا انه ربما يتخذ ذريعة لتمزيق وحدة الدول المتكونة من عدة شعوب متعايشة ومتفاهمة فيما بينها وتخضع لحكومة واحدة موحدة لهذه الشعوب ... فاذا أضيف لذلك ما قام في هذا العصر من احياء للقوميات المتعددة وتمسك اهلها بنعرات مختلفة ، لا تعدم من يشجعها على الانفصال وتفكيك الوحدة الوطنية التي عاشت في ظلها مدى اجيال وقرون فاننا نصبح أمام مبدا مخرب، وفكرة شيطانية تفسد أكثر مما تصلح ، وتفرق ولا تجمع ، وتجعل من البلاد التي كانت ملتئمة الشمل متراصة الصف ، تحمي كيانها بوحدتها وترد اليد العادية عنها بقوتها ، دويلات صغيرة لا تملك من امرها شيئا فهي تدور في فلك الدول الكبرى سياسيا واقتصاديا ، ولا تتخلص من ازمة حتى تقع في ازمات ، اضافة الى ما يصعب قيامها من اقتتال يسمى حركة تحرير وطنية ، وانتماءات تغرقها في فوضى لا تعود عليها بخير ، وها نحن نرى من ذلك امثلة كثيرة في بلاد العالم الثالث كما يحلو للبعض ان يسميه ، وفي بعض بلاد اوربا التي اصبحت مهددة بالانقسام ولو لم تكن ثالثية ، تقوم بذلك حركات عنصرية متعصبة ، ومنظمات سياسية متطرفة يناصرها من الداخل والخارج جهات مسؤولة ، وحكومات ذات مصالح معينة تأخذ بمبدا فرق تسد ، ولكنها تغلفه بحق تقرير المصير فتظهر بمظهر الناصح الامين اذا لم تغلب عليها الوقاحة فتصرح بمقصدها من غير حياء ولا خجل .

وبعد فان بريق الكلمات غير عتمة الواقع ، وربما حرص الناس على صقل القول في حين يغفلون عن صدا الفعل .

عبد الله كنون

دستور "التسامح" في الإسلام

مبادئه النظرية ووسائله العملية



للشيخ محمد المكي الناصري

مما لاشك فيه أن ممارسة «التسامح» في العلاقات الإنسانية الخاصة والعامة أمر جميل وجليل، لكن هذه الممارسة تعترضها كثير من العقبات، ويعتريها كثير من التقلبات، وليست من السهولة واليسر بالقدر الذي يتخيله رجل الأخلاق والاجتماع المثالي، إذ أن «التسامح» بمعناه الكامل، وتطبيقه الشامل لا يسير في نفس الاتجاه العادي لغرائز الإنسان، إذا كانت تلك الغرائز بدائية لم تصقلها التربية ولم يعالجها التهذيب والتقويم، وليصبح «التسامح» عملة يتعامل بها الناس في حياتهم اليومية بسهولة ويسر لابد فيه من تربية سابقة، وتوجيه مبكر، وإعداد نفسي وخلقي دقيق،وقبول جملة من المبادئ والمسلمات للانطلاق منها في مختلف التصرفات، ومراعاتها في جميع العلاقات، وبذلك يصبح «التسامح» جزءاً لا يتجزأ من حياة الإنسان العادية، نفسيا وعاطفيا وفكريا.

ونظرا لأهمية «التسامح» والآثار الطيبة التي تنشأ عنه، وخطورة «التعصب» والآثار البغيضة التي تترتب عليه فرديا وجماعيا فقد اهتم الإسلام بأمره اهتماما بالغا، ونصت تعاليمه على عدة مبادئ نظرية يقوم «التسامح» على أساسها وينطلق منها، كما نصت تعاليمه على جملة من الوسائل العملية، لممارسة «التسامح» في الحياة اليومية، ولعل من المفيد في هذه الندوة إطلاع جمعكم الموقر على الطريقة التي عالج بها الإسلام موضوع «التسامح»، والتعريف بما قدمه من مبادئ نظرية، واقترحه من وسائل عملية، ليصبح التسامح أمرا سائدا بين البشر بصورة عفوية وتلقائية :

أما المبادئ النظرية العامة التي ينطلق منها «التسامح» حسبما حددته التعاليم الإسلامية فهي ستة مبادئ :

ـ **المبدأ الأول** : تعريف الإنسان بوحدة النوع الإنساني، وأن اختلاف البشر في ألوانهم ولغاتهم لا دخل له في إعلاء مكانة أي فرد أو تحقير آخر، ولا في تقدم أي شعب أو انحطاط آخر، وأنه ليس دليلا على اختلاف الإنسان في طبيعته، وإنما هو مظهر من مظاهر قدرة الله وعظمته، وذلك ما تنطق عليه الآية الثانية والعشرون في السورة الثلاثين (سورة الروم) من القرآن الكريم : ﴿**ومن آياته خلق السماوات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين**﴾.

والتسليم بهذا المبدأ الأول يؤدي إلى رفض كل تمييز عنصري أو لغوي.

ـ **المبدأ الثاني** : تعريف الإنسان بأن اختلاف البشر في معتقداتهم أمر طبيعي في حياة الإنسان لا سبيل لتفاديه، فقد شاء قضاء الله وقدره أن يخلق الإنسان حرا مختارا على خلاف بقية الأحياء، ولم يخلقه بهيمة عجماء، ولا آلة صماء، ولذلك كان له رأيه الخاص وإرادته الخاصة، بحيث يتصرف بهما كيف يشاء، وقد نطق القرآن الكريم بالقول الفصل في هذه القضية، واعتبرها قضية منتهية، حيث قال في الآية التاسعة والتسعين من السورة العاشرة (سورة يونس) : ﴿**ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا**﴾، كما قال في الآية الثامنة عشرة بعد المائة من السورة الحادية عشرة (سورة هود) : ﴿**ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم**﴾، والتسليم بهذا المبدأ الثاني يؤدي إلى استحالة جمع الناس أجمعين، حول عقيدة واحدة ووحيدة في الدين.

ـ **المبدأ الثالث** : تعريف الإنسان بأن كل محاولة من طرفه للقضاء على الاختلافات الدينية بوسائله الخاصة محاولة فاشلة، وأن كل جهد ووقت يصرفه في هذا السبيل جهد ضائع ووقت ضائع، فقد شاء قضاء الله وقدره أن يستمر الاختلاف في الآراء والمعتقدات إلى نهاية المطاف، مصداقا للآية السابقة ﴿**ولا يزالون مختلفين**﴾، وقد تعهد خالق الخلق وحده بالفصل بينهم في اختلافاتهم عندما يقفون بين يديه «يوم الفصل» و«يوم الحساب»، وذلك ما تنطق عليه الآية الرابعة والعشرون بعد المائة من السورة السادسة عشرة في القرآن الكريم (سورة النحل) حيث تقول : ﴿**وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون**﴾، والتسليم بهذا المبدأ الثالث يؤدي إلى تفادي الدخول في الصراعات الدينية، لأنها لا جدوى من ورائها.

ـ **المبدأ الرابع** : تعريف الإنسان بأن الإيمان بأي دين لا يكون إيمانا حقيقيا وصحيحا إلا إذا كان صادرا عن اقتناع تام، ولا دخل فيه لأي ضغط أو إكراه، بحيث إذا اكره أحد على اعتناق دين ثم أراد العودة إلى دينه الأول كان مسموحا له بالعودة إليه دون مواخذة ولا عقاب، ولتقرير هذا المبدأ بشكل قاطع لا رجعة فيه جاءت الآية السادسة والخمسون بعد المائتين الواردة في السورة الثانية من القرآن الكريم (سورة البقرة) : ﴿**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي**﴾، والآية التاسعة والتسعون الواردة في السورة العاشرة (سورة يونس) التي تقول : ﴿**أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مومنين**﴾، والآية السادسة والخمسون من السورة الثامنة والعشرين (سورة القصص) التي تقول : ﴿**إنك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء**﴾، والتسليم بهذا المبدأ الرابع

يؤدي إلى الترفع عن إجبار الآخرين على الدخول في دين غير دينهم، ويمهد الطريق لاحترام إرادة الآخرين وقبول التعايش معهم على ما هم عليه.

ـ **المبدأ الخامس** : تعريف الإنسان بأن البشر وإن اختلفت معتقداتهم وأديانهم، واختلفت ألسنتهم وألوانهم، وتعددت قبائلهم وشعوبهم، فهم يكونون في طبيعتهم نوعا واحدا، وينتمون في نشأتهم إلى أصل واحد، ويطمحون بفطرتهم إلى تحقيق هدف واحد، وهذه الوحدة الأصلية والفطرية الجامعة بينهم يجب أن تكون أقوى عامل في تعارفهم وتعاونهم، وأهم عامل في توحيد جهودهم للنهوض بأعباء المصالح العليا للبشرية، التي تتطلع إليها الإنسانية جمعاء. وبديهي أن هذا العمل الوحدوي لا يتعارض مع بقاء الحرية لكل أمة في اعتقاد ما تريده من المعتقدات. بل أنه سيكون من أقوى العوامل للتقريب والتفاهم بين مختلف الأمم، وقد لفت القرآن الكريم أنظار كافة البشر إلى هذا المبدأ عندما قال في الآية الثالثة عشرة من السورة التاسعة والأربعين (سورة الحجرات) : ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير**﴾، والتسليم بهذا المبدأ الخامس يوجه الإنسان إلى أن يأخذ بعين الاعتبار قبل كل شيء ما يجمع بينه وبين أخيه الإنسان، بدلا من أن ينطوي على نفسه ويعتزل الآخرين، بحجة الفوارق التي توجد بينه وبينهم، فيحجم عن التعاون معهم.

ـ **المبدأ السادس** : تعريف الإنسان بأن التعاون المثمر بين البشر على تحقيق الأهداف الكبرى للإنسانية لا يمكن ضمانه واستمراره بفاعلية ونجاح إلا في جو من الأمن والسلام المتبادل، ولا يزدهر الازدهار الكامل إلا عندما تكون العلاقات الإنسانية مطبوعة بطابع المودة والبرور والتقدير، فعن الشق الأول وهو السلام المتبادل جاءت الآية الواحدة والستون من السورة الثامنة في القرآن الكريم (سورة الأنفال) التي تقول : ﴿**وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم**﴾، وعن الشق الثاني وهو التقدير المتبادل جاءت الآية الثامنة من السورة الستين، (سورة الممتحنة) التي تقول : ﴿**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين**﴾، ويلاحظ أن هذه الآية لم تكتف «بالعدل» الذي هو حق للجميع، بل أضافت إليه الإحسان و «البر» الذي هو قدر زائد على العدل، والتسليم بهذا المبدأ السادس يؤدى إلى إعداد المناخ السليم الذي يشجع على التعاون مع الآخرين، في جو من الثقة المتبادلة والطمأنينة والانسجام، من أجل خدمة الصالح العام.

هذه هي المبادئ الأساسية التي يؤدي تلقينها للناس وتسليمهم بها إلى الاستعداد التام لممارسة «التسامح» في جميع مجالات الحياة دون تكلف أولا مشقة، وبصورة مستمرة لا انقطاع فيها، باعتباره واجبا دينيا وخلقيا لا يتم الإيمان إلا به.

وأما الوسائل العملية التي شرعها الإسلام لنشر «التسامح» بين الناس على أوسع نطاق، وتعميق جذوره في النفوس، وطبع الحياة اليومية بطابعه السمح الجميل فهي وسائل متعددة ومتنوعة :

ـ منها السماح للمسلمين بمجاورة غيرهم في السكن، ومجالستهم في المجامع، ومؤاكلتهم واستضافتهم في المآدب، وزيارتهم في حال الصحة، وعيادتهم عند المرض، ومشاطرتهم في أفراحهم، ومواساتهم في اتراحهم، وفي شأن مؤاكلتهم واستضافتهم وردت الآية الخامسة في السورة الخامسة (سورة المائدة) التي تقول : ﴿**اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم**﴾، بينما أكدت السنة النبوية وسيرة السلف الصالح بقية الأحوال.

ـ ومنها السماح للمسلمين بمصاهرة غيرهم، والزواج من «الكتابيات» دون أن يكون دينهن عائقا عن الزواج بهن، بحيث لا يعارض الإسلام في أن يكون الزوج مسلما وزوجته غير مسلمة، ما دام كل منهما يحترم دين الآخر ولا يحول دون ممارسته، ولا يستغرب أن تكون الأم غير

مسلمة وأولادها مسلمون، وفي شأن السماح لهذا الزواج المختلط، القائم على أساس «التسامح» وعدم «التعصب»، جاءت بقية الآية الخامسة من نفس السورة الخامسة (سورة المائدة) التي تقول : ﴿**والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن، محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخذان**﴾.

ومنها السماح للمسلمين بتخصيص وصية تنفذ بعد موتهم لأقاربهم غير المسلمين : كما إذا كانت الزوجة «كتابية» لا ترث زوجها، أو كانت الأم «كتابية» لا ترث أولادها، فيوصي لها زوجها المسلم أو ولدها المسلم بوصية خاصة، وهذه إحدى الحالات التي تطبق عليها الآية الثمانون بعد المائة، الواردة في السورة الثانية (سورة البقرة) التي تقول : ﴿**الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف، حقا على المتقين**﴾، وهي تصدق على جميع الأقارب الذين ليسوا بورثة، إذ (لا وصية لوارث).

- ومنها السماح للمسلمين بتخصيص قسط من زكواتهم للإنفاق على الفقراء من غير المسلمين، نظير الإنفاق على فقراء المسلمين أنفسهم، والسماح لهم بإدراج «المؤلفة قلوبهم» ضمن مصارف الزكاة. والمراد هنا من يتعاطفون مع الإسلام أو يدافعون عن حقوق المسلمين، وإلى ذلك تشير الآية الستون، الواردة في السورة التاسعة (سورة التوبة) التي تقول : ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم**﴾، إلى آخر الآية.

- ومنها السماح للمسلمين بالمتاجرة مع غيرهم في كل ما يبيح الإسلام التجارة فيه، لا فرق في ذلك بين التجارة الداخلية والتجارة الخارجية، وقد استمرت العلاقات التجارية قائمة بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي دون انقطاع طيلة القرون الوسطى، فنفعت المسلمين واليهود والنصارى على السواء، داخل «دار الإسلام» وخارجها، ولم يكن للاختلاف في الدين أي أثر سلبي على تلك العلاقات، إذ أنها كانت قائمة على أساس المنفعة المتبادلة للجميع، وفي صالح الجميع طبقا للآية العشرين من السورة السابعة عشرة (سورة الإسراء) التي تقول : ﴿**كلا نمد، هؤلاء وهؤلاء، من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك، محظورا**﴾.

على أن الإسلام مضى في تسامحه إلى أقصى حد، حيث أباح لغير المسلمين التجارة فيما بينهم حتى فيما هو حرام على المسلمين، ما دام حلالا عند الآخرين، عملا بالقاعدة الشرعية المسلمة التي تقول : (نتركهم وما يدينون).

- ومنها إلزام المسلمين بحسن معاملة غيرهم في الأقوال والأفعال، والوفاء بالعقود والعهود، واعتبار غيرهم على قدم المساواة معهم في الحقوق والواجبات، فالحق حق بالنسبة للمسلم وغيره، والواجب واجب بالنسبة للمسلم وغيره، وكل اعتداء يحرم ارتكابه بالنسبة للمسلم يحرم ارتكابه بالنسبة لغيره، ويعاقب عليه المعتدي ولو كان مسلما، وسند المسلمين في التمسك بالحق والتزام العدل مع غيرهم والإحسان في معاملتهم القاعدة الشرعية المسلمة التي تقول : (لهم ما لنا وعليهم ما علينا).

هذه جملة من الوسائل العملية التي يطبق الإسلام عن طريقها مبدأ «التسامح»، في عدة مجالات حيوية، وما من واحدة منها ألا وهي اختبار يومي تنعكس آثاره الحميدة على الفرد والمجتمع، وجهاد متواصل ضد «التعصب» و«الحقد» و«البغضاء»، وتربية مستمرة من الشخص لنفسه بنفسه كل مطلع شمس، سعيا في أن يرتفع إلى مستوى «الإنسان المهذب النبيل» الذي يومن «بالتسامح» حق الإيمان ويبث روح الوئام والوفاق بين الجميع، حبا في خير الجميع.

وبانضمام هذه الوسائل العملية إلى المبادئ النظرية التي نادى بها الإسلام يكون الإسلام قد ساهم مساهمة ثمينة في إرساء «التسامح» بين الأفراد والجماعات على قواعد متينة، منذ عهد قديم، وقدم للمجتمع البشري في هذا المجال صبغة متكاملة ومتوازنة يمكن أن يهتدي بها الباحثون، ويستنير بها المفكرون، فيقتبسون منها ما يرونه جديرا بالاقتباس، ويضيفون إليها ما يرونه مكملا لها وتوسعا فيها، وبالله التوفيق.

محمد المكي الناصري



الفائدة المصرفية في نظر الإسلام وموقف العلماء منها

بقلم : مجدي عبد الفتاح سليمان

لا شك أن قضية الفوائد التي يمنحها البنك على الودائع، أو يحصلها على القروض، هي من أهم القضايا التي تحتاج إلى مزيد من الدراسة والتحليل، ولعل أهمية تلك القضية مستمدة أساساً من حيوية الدور الذي تقوم به البنوك في تجميع المدخرات التي تتطلبها احتياجات التنمية اللازمة، للقضاء على التخلف الاقتصادي، ومما يزيد هذه القضية أهمية، أنه ليس هناك من الأشخاص في الوقت الحاضر من لا يتعامل مع أحد البنوك، وقد أصبحت قضية الفائدة من أكثر القضايا المعاصرة تعقيداً في علم الاقتصاد، إذ يترتب على حلها نتائج على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للنشاط الاقتصادي في الدول الإسلامية، فالاقتصاد المتحرر من الفائدة، سيواجه بحسم كافة المشاكل الاقتصادية المعاصرة ـ كمشكلة التضخم وارتفاع الأسعار ـ والتي عجزت النظم الاقتصادية المعاصرة عن إيجاد حلول جذرية لها، ففي ظل هذا النظام يتحقق الحد الأقصى للإنتاج بإبقائه على واقع العمل من خلال حافز الربح، وسوف يضمن توزيعاً عادلاً للدخل القومي وذلك بعدم السماح بنمو طبقة رأسمالية مترفة، ويقوم النظام الاقتصادي في الإسلام على تحريم الربا (الفائدة) بجميع صنوفه وأشكاله وألوانه، إيماناً بأن الربا يفقر المجتمع ويهدم بنيانه، ويقوض أركانه، ويعرض الإقتصاد القومي إلى الاصابة بأفدح الأضرار.

- **الفائدة في العرف المصرفي :**

تقوم البنوك التجارية الربوية بمجموعة كبيرة من العمليات والخدمات المصرفية أهمها فتح الاعتمادات

المستندية بنوعيها التصدير والاستيراد، وإصدار خطابات الضمان، وحفظ الأوراق المالية، وتأجير الخزن الحديدية لمن يرغب، وتقبل الودائع من الأفراد والهيئات بفائدة أو بدون فائدة، وتقوم أيضاً بمنح الائتمان «أي تقديم مبالغ نقدية أو كتابية إلى الأفراد ورجال الأعمال وأصحاب المشروعات لأجل قصير لا يتجاوز عادة العام الواحد بشرط أن يقوم بسداد هذه المبالغ مع فوائدها «عند الأجل المتفق عليه»، هذا بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من الخدمات المصرفية كشراء وبيع العملات المختلفة وتحويل المبالغ إلى الخارج.. إلخ..

ويهمنا أن نوضح التفرقة بين نوعي الفوائد ـ المدينة والدائنة ـ فالفائدة التي تمنحها البنوك لعملائها نظير ودائعهم تسمى فائدة مدينة، أما الفائدة التي تفرضها البنوك على المقترضين فهي فائدة دائنة، وفي الحالة الأخيرة فإن سعر الفائدة يختلف صعودا وهبوطا بناء على عدة اعتبارات تتعلق بالمركز المالي للعميل، ونوعية النشاط الذي يستخدم فيه القرض، وكذلك نوع الضمان المقدم على القرض، وأيضا مدة القرض، ففي القروض طويلة الأجل يكون السعر مرتفع عما إذا كان الأجل قصيرا، مع مراعاة طبيعة الظروف الاقتصادية السائدة وقت القرض، ففي أوقات الرخاء والانتعاش الإقتصادي ترفع البنوك سعر الفائدة على القروض درءا لمخاطر التضخم، وعكس ذلك في أوقات الكساد والركود لمعالجة الانكماش، والفائدة في العرف المصرفي هي : «الثمن المدفوع نظير استعمال النقود».

● الفائدة «الربا» في نظر الإسلام :

● الربا في اللغة معناه الزيادة والنمو، وقد ورد في لسان العرب، بأن «الأصل فيه الزيادة، من ربا المال إذا زاد وارتفع» (1) وقد قال الإمام الواحدي : «الربا في اللغة الزيادة» (2)، والربا بهذا المعنى اللغوي المجرد قد يكون زيادة في الشيء نفسه أم بالنسبة إلى سواه، وكلا الحالين ورد بهما مثال في القرآن الكريم، فمن مثال الحال الأول ما جاء في قوله تعالى : ﴿**وترى الارض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت**﴾ (3) إذ أن معنى كلمة ربت في هذه الآية أنها : ارتفعت (4) والأرض تعلو وتزيد ـ إذا نزل عليها الماء ـ بنفسها لا بشيء خارج عنها، ومن الحال الثاني، ما جاء في قوله تعالى : ﴿**أن تكون أمة هي أربى من أمة**﴾ (5)، حيث إن «أربى» هنا بمعنى أكثر عددا وهي زيادة واردة في معرض المقابلة بين أمتين.

● أما الربا في الشرع فيختلف في المعنى تبعا لاختلافه في تحديد مدلوله في المذاهب وما يندرج فيها تحت هذا اللفظ، والذي برز من التعاريف المختلفة تعريف الأحناف وتعريف الشافعية للربا، فالأحناف بعضهم عرفه بأنه هو فضل مال بلا عوض في معاوضة بمال (6).

والشافعية يعرفونه بأنه اسم لمقابلة عوض بعوض مخصوص غير معلوم التماثل في معيار الشرع حالة العقد، أو مع تأخير في البدين أو في إحداهما «ربا النضل» عندهم وبالشطر الثاني «ربا اليد عندهم أيضا» (7) أما باقي المذاهب فتتفق أصولها تقريبا إما مع تعريف الأحناف أو تعريف الشافعية.

● مدى انطباق تعريف الربا على الفائدة :

من استعراضنا لمفهوم الربا، اتضح أن الربا هو الزيادة والنمو، والفائدة هي زيادة في رأس المال المقرض (8) وبمقارنة هذا التعريف بمعنى الربا نجد أن الفائدة والربا مجرد كلمتين يسهل على أيهما أن تلج في مكان الأخرى، فتسمية الربا بالفائدة لا تغير من طبيعته ـ كما بين الدكتور

---

1) انظر : ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثالث (القاهرة، دار المعارف، بدون تاريخ) ص 1573.
2) انظر محيي الدين بن شرف النووي، تهذيب الأسماء واللغات، القسم الثاني، حـ 1.
3) سورة الحج الآية رقم 5.
4) انظر، إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، حـ 3، ص 208.
5) سورة النحل الآية رقم 92.
6) انظر : فخر الدين عثمان ابن علي الزيلعي، تبين الحقائق شرح كنز الدقائق المجلد الرابع، طبعة بيروت المعرفة ص 85.
7) انظر : تقي الدين السبكي، تكلة المجموع شرح المهذب للنووي حـ 1.
8) هناك تعاريف متعددة للفائدة بتعدد النظريات، فبعض التعاريف تركزت على الظاهرة النقدية والسلفية.. والأخرى شبهت الفائدة بالإيجار.. لمزيد من التوسع انظر د. رفيق المصري، مصرف التنمية الإسلامي، طبعة بيروت ص 62.

محمد عبد الله العربي ـ فالفائدة ليست إلا زيادة في رأس المال المقرض، وكل زيادة عنه هي ربا لغة وشرعا (9)، ويؤكد الدكتور عيسى عبده ـ رحمه الله ـ أن سعر الفائدة ربا ولا عبرة من اختلاف التسمية، فإن من قواعد الشرع أن العبرة من العقود للمقاصد والمعاني لا للألفاظ والمباني (10) ويرى الدكتور منان أنه لا يوجد فرق بين الفائدة والربا، والإسلام يحرم كافة أنواع الفائدة مهما كانت الأسماء البراقة التي تختفي وراءها (11).

وعن لفظ الفائدة قال الدكتور عيسى عبده : «إن لفظة الفائدة بالهمزة، والفايدة بالياء أخذت صوراً شتى مع اختلاف اللهجات في أرض العرب.. فهي الفايظ والفايض، والفايدة، والفائدة، والفايز، والحطيطة بنوعيها، وخصم تعجيل الدفع.. وهذه كلها ربا صريح..(12).

وقد رأى بعض الباحثين المسلمين، الذين لهم اتصال وثيق بدراسة الفقه الإسلامي أن الإسلام حرم الربا ولم يحرم الفائدة، وأن الفائدة التي تدفع على القروض التي تستثمر في الأنشطة الاقتصادية لا تتعارض مع شريعة القرآن الذي يشير فقط إلى تحريم الربا باعتباره قروضاً غير انتاجية سادت في العصور الجاهلية، في وقت لم يكن الناس يعرفون فيه القروض الإنتاجية وتأثيرها على النمو الاقتصادي (13).

وقد تصدى للرد على هذا الرأي علماء أجلاء (14) نختار منها رد الإمام محمد أبو زهرة حيث بين فضيلته أن النص القرآني الخاص بالتحريم عام يشمل النوعين، فإذا فسر بمعنى الزيادة فكل زيادة على رأس المال ربا كما جاء في قوله تعالى : ﴿**فإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون**﴾.

وإذا فسر بمعنى أن المراد بالربا ربا الجاهلية، فلا دليل على أن ربا الجاهلية للاستهلاك، وقد بين فضيلته أن مكان مكة المكرمة يجعل قريشا من التجار، فكانوا ينقلون بضائع فارس من اليمن إلى الشام وبضائع الروم من الشام إلى اليمن، لذلك كانت لهم رحلتان احداهما إلى اليمن شتاء والأخرى إلى الشام صيفاً، وإذا كان قريش متجرين ينتجعون الشام واليمن للاتجار فلا بد أن يتجر الشخص بماله وبنفسه، أو أن يتجر بمال غيره عن طريق المضاربة بأن يكون الربح بينهما والغرم على رب المال إن كانت خسارة، أو عن طريق الربا بأن يأخذ شخص مالا من غيره يتجر فيه على أن يكون له فائدة محدودة قلت أو كثرت» (15).

● وفي تقديرنا أن الإسلام حرم الربا بكافة ألوانه وأشكاله مهما كانت الأسماء البراقة التي يختفي وراءها، وأنه لا فرق بين الفائدة على القروض الاستهلاكية والقروض الإنتاجية فكلها من الربا المحرم، وقد اصبح هناك إجماع في كتب التاريخ الاقتصادي ودوائر المعارف على أن الفائدة هي الربا المحرم.

● دحض مبررات مشروعية دفع الفائدة :

الذين يحللون التعامل بالفائدة يستندون من ذلك إلى مبررات وحجج يزعمون أنها تحل هذا النوع من المعاملات، وقد رأيت من المفيد أن أتعرض إلى هذه المبررات المزعومة بالمناقشة والنقد ـ خصوصا ـ بعد أن بدأت الشكوك تثور حول عدم ملاءمة هذه الأفكار، ولقد ازدادت هذه الشكوك في الآونة الأخيرة، ووصلت إلى درجة أصبحت فيها هذه المبررات تبدو مفككة على عكس ما كان عليه الحال منذ فترة سابقة.

---

9) انظر : د. محمد عبد الله العربي، محاضرات في النظم الإسلامية حـ 1 (القاهرة، مطبعة الشرق العربي) ص214.

10) انظر : د. عيسى عبده إبراهيم، الربا ودوره في استغلال موارد الشعوب (القاهرة، دار الاعتصام، 1977) ص 122.

11) انظر د. منان «الاقتصاد الإسلامي بين النظرية والتطبيق» ترجمة د. منصور إبراهيم ص 187.

12) انظر. د. عيسى عبده، الفائدة على رأس المال.. والربا، مجلة الأهرام الاقتصادي العدد رقم 448، أبريل 1974) ص 41.

13) ممن قالوا بهذا الرأي الدكتور معروف الدوالبي وقد سجل هذا الرأي في محاضرة ألقاها في مؤتمر الفقه الإسلامي في باريس عام 1951، فهو يرى أن الربا المحرم هو ما كان في قرض الاستهلاك لاقروض الإنتاج التي أصبحت السمة الظاهرة في القروض بعد تطور النظم الاقتصادية، وأصبح المقترض هو الطرف الضعيف، ولمزيد من التوسع راجع : د. عبد الرزاق السنهوري، مصادر الحق في الفقه الإسلامي ح 3 (ط 3، القاهرة، معهد الدراسات والبحوث العربية 1967) ص 322.

14) منهم الدكتور السنهوري، في كتابه السابق ص 322، والإمام أبو زهرة في كتابه بحوث في الربا ص 45، والدكتور العربي في كتابه النظم مرجع سابق ص 45.

15) انظر : الإمام محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ص 45.

● **يقولون :** إن التعامل بالفائدة أصبح ضرورة من الضرورات سواء أكان ذلك في نطاق التعامل الدولي أم في نطاق التعامل الفردي داخل الدولة، فالملاحظ أن المصارف الدولية كلها لا تقرض إلا بفائدة تختلف قلة وكثرة، وكذلك المصارف داخل الدولة، فالمقترض هنا بين أمرين : إما أن يقترض بفائدة وحينئذ يحصل على ما يحتاجه من مال يسد به حاجته بتوفير قوته وقوت أولاده أو لاستخدامه في صناعته أو تجارته بدلا من التوقف مما يؤدي إلى فتح أبواب الرزق له إن كان عاطلا، فيستفيد المقترض في نفسه ويستفيد الطرف الآخر بالفائدة ويكون كلا من الطرفين ـ الدائن والمدين ـ قد استفاد، وإما أن لا يقترض بفائدة وحينئذ قد يجوع هو وأولاده وتتشرد الأسرة، وتسد في وجهه سبل العيش والتكسب والعمل، وتضيع عليه فرص في الحياة كثيرة، ما كانت لتضيع لو أنه اقترض بالفائدة، وفي هذا خسارة للأفراد وبالتالي خسارة للأمة.

● قبل الرد على هذا الكلام ينبغي أن نوضح هل هناك ضرورة ملحة للتعامل بالفائدة ؟ تقول أين هذه الضرورة التي زعمها هؤلاء، هل نضب معين من المال عند المسلمين وأملقوا، فلم يجدوا ما يحفظ لهم حياتهم إلا التعامل بالفائدة وهي الربا المحرم بالكتاب والسنة.

فالاضطرار إلى الاقتراض بالربا ـ الفائدة ـ على ما أوضحه الرأي السابق لم تنطبق عليه القاعدة الإسلامية «الضرورات تبيح المحظورات» فالاضطرار أي التعامل بالفائدة يكون في حالة ما إذا كان المسلم في بيداء من الأرض وقد نفذ زاده واشتد به الجوع، حتى خاف الهلاك وأبى عليه الرفاق أن يمنحوه، أو يقرضوه ما يبلغه إلا بالفائدة،ففي هذه الحالة يبدو جليا الاضطرار،ولا حرج عليه أن يقترض بالربا يوما فيوماً قدراً يسيراً يقيم صلبه ويقيه الموت جوعا، فالحق تبارك وتعالى يقول : ﴿**فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم**﴾.

والأمر الثاني الذي ينبغي أن نوضحه هو أن المقترض الذي يطلب المال لتوفير قوته وقوت من يعول أو كسوة توارى جسده وجسد أولاده، أو منزل يأويه وذويه من البرد والحر، هذا الإنسان الذي هو في أمس الحاجة إلى العون تثقله بعبء الفائدة الذي قد وصل إلى معدلات مرتفعة.

فبأي وجه نلزم هذا المضطر أن يدفع فوائد عن مال مستهلك في مثل هذه الضرورات فمن أين يدفع ؟ ألم يكن هذا إعلان صريح للسرقة والاحتيال والنصب.

● وإني أعذر هؤلاء الذين أعماهم سحر الحضارة الغربية الزائفة، وبهرتهم أضواء المدنية الزائفة، والذين يحيون اليوم في عالم قامت حضارته على أساس من الفائدة، فكانت سببا في إبعادهم عن روح الإسلام وتعاليمه، فقد أباحوا التعامل بالفائدة على القرض الاستهلاكي والذي نراه أن هذا القول مردود، لأن الإسلام له فلسفته الخاصة ونظامه الذي انفرد به، فقد أمر الإسلام بالقرض الحسن ووعد بالثواب عليه لما فيه من فك كربة وإقالة عثرة، وقد حث الإسلام على ألا يستدين المسلم بطريق القرض أو بغيره إلا في حدود الضرورة، لما في الدين من ذهاب أمن النفس، فالرسول ﷺ قال : «لا تخيف الأنفس بعد أمنها» قالوا : يا رسول الله وما ذاك ؟ قال الدين... (16).

● ننتقل الآن إلى مناقشة النقطة الثانية من الرأي السابق والخاصة بإباحة التعامل بالفائدة على القروض الإنتاجية، ويقيمون الدليل على أن هذه القروض تستخدم في الأغراض الإنتاجية ومن ثم فإن الفائدة المكتسبة من مثل هذه الاستثمارات لا تندرج تحت باب الربا الذي حرمه الإسلام.

وهذا الكلام من وجهة نظرنا مردود، وذلك لأنه لا يمكن التسليم بأن المقترض لا بد أن يربح، فمن الواضح أن أي مشروع تجاري أو صناعي غالبا ما يتعثر في أول أمره ويتكبد خسائر إلى أن يأخذ مكانه بين المشروعات القائمة والتي حازت على ثقة الجميع.

إذن فمن أي مورد يدفع هذا المقترض الذي خسر ولم يربح فوائد قروضه ؟ أليس في ذلك إثقال له بالفائدة فوق إثقاله بالدين (17)، وإذا فرضنا أنه سيربح ومن الذي يضمن أنه سيربح ؟ ربما يسدد منه الفائدة ويبقى له ما يكون مجزيا له من ثمرة كفاحه وتعبه ما يبذل من دمه وعرقه.

---

16) انظر : السنن الكبرى جـ 5، ص 255.

17) انظر : د. محمد ابن محمد أبو شهبة نظرة الإسلام إلى الربا، ص 116.

وربّ قائل يقول إن معظم المشروعات المنشأة حديثا سواء كانت تجارية أو صناعية تهتم بإجراء دراسات التقييم المالي والتجاري للمشروع، وهي دراسات تختص بقياس الربحية المالية والتجارية لذلك المشروع طيلة عمره أو حياته، ويقتصر التقييم المالي والتجاري للمشروعات عند تحديد التدفقات الخارجة والداخلة للمشروعات وتقدير كمياتها، وتقدير قيمتها على التدفقات الخارجة والداخلة المباشرة أو الأ.اسية فقط، وتتضمن هذه التدفقات جميع ما يتحمله الأفراد فعلا من تكاليف وما يحصلون عليه فعلا من منافع، إذن فمن خلال التقييم المالي والتجاري يتم معرفة الربحية بكل دقة، فإذا كان المشروع يدر ربحا وفقا للدراسة فلا مانع من الاقتراض والسير في تنفيذ المشروع فقد ضمن صاحب المشروع دفع الفائدة إلا أننا لا نسلم بهذا القول فمع اعترافنا بقيمة هذه الدراسات ـ التقييم المالي والتجاري للمشروع ومدى مساهمتها في إنجاح المشروعات والتنبؤ بمستقبلها ـ إلا أننا نؤمن بأن المستقبل غيب وقد يحدث ما ليس في الحسبان (18) فالمشروع الذي تنبأت له الدراسات بالبقاء والنجاح، قد يكون مقدر له الفشل والانهيار، وإني أتفق تماماً مع الأستاذ أنور إقبال قرش عندما قال (19) : لو أن المال يقرض ويربح ويخسر ويتقاسم، فإنه يصبح مشاركة تجارية والإسلام يشجعه أيما تشجيع لأن الإسلام يعرف أن رأس المال ضروري لتنمية التجارة والصناعة.

● ويقولون إن الإنسان يؤثر فائدة الحاضر ولذته على فوائد المستقبل البعيد ولذائذه الكثيرة، وإنه على قدر ما يكون المستقبل بعيدا، تكون فوائده ولذائذه غير يقينية وهكذا تنحط قيمتها يوما فيوما، وذلك لعدة أسباب هي :

1 ـ أن الذي يحتاج إلى شيء اليوم آثر عنده وأثمن في نظره أن يقضي اليوم حاجته بنيله إياه على أن ينال في المستقبل شيئا قد يكون في حاجة إليه وقد لا يكون.

18) قد يحدث مثلا حرب مدمرة، أو زلزال أو ركود في مبيعات منتجات المشروع فهل تناولت الدراسة كل هذه الظروف التي هي في علم الله ؟

19) انظر الأستاذ أنور إقبال قرش، الإسلام والربا، ترجمة الأستاذ فاروق حلمي، ص 327.

2 ـ ان المال الذي يحصل عليه اليوم نافع قابل للاستعمال فعلاً، فهو من هذه الجهة فوق المال الذي سيحصل عليه يوما في المستقبل.

من أجل هذه الأسباب، فإن فائدة المستقبل غير اليقينية، فالمال الذي يستقرضه المدين اليوم، أثمن قيمة من المال الذي سيرده إلى الدائن غدا، وان الفائدة هي القدر الزائد الذي ينضم إلى المال عندما يؤديه المدين إلى الدائن، ويجعله مساويا في القيمة لذلك المال الذي أخذه من الدائن عند اقتراضه إياه، وتعليقا على ما سبق يطرح العلامة أبو الأعلى المودودي السؤال الآتي : (20).

هل من الحق في شيء أن الفطرة الإنسانية تعتقد أن الحاضر أثمن من قيمة المستقبل ؟ ويضيف قائلا فإن كان الأمر كذلك، فما لأكثر الناس لا ينفقون كل ما يكسبون اليوم من فورهم، بل يؤثرون أن يدخروا نصيبا منه لمستقبلهم، وما أمعن من الغباوة والسفاهة ذلك الرجل الذي يؤثر أن يجعل حياته الحاضرة ذات رفاهة وتنعم على أن يكون مستقبله سيئا أو أسوأ من حاضره إما أن يصدر ذلك من الإنسان على جهل منه أو سفاهة أو لكونه قد غلب أمره من شهوة مؤقتة مفاجئة، فلا حجة به، ألا فمن المستحيل أن يقول بصحة هذا الرأي ومعقوليته رجل يكون قد أوتي حظا من التفكير والتأمل.

● **ويقولون** : يمكن تبرير الفائدة وتفسيرها بعنصر المخاطرة الذي يشتمل عليه القرض، لأن اقراض الدائن لماله نوع من المغامرة التي قد تفقده ماله، إذا عجز المدين في المستقبل عن الوفاء وتنكب له الحظ، فلا يظفر الدائن بشيء فكان من حقه أن يحصل على أجر ومكافأة على مغامرته بماله لأجل الدين، وهذه المكافأة هي الفائدة، والحق أن هذا التبرير مردود، لأن الإسلام لم يقر هذا اللون من التفكير، ولم يجد في المخاطرة المزعومة مبررا للفائدة التي يحصل عليها الدائن من المدين، ولهذا حرمها الإسلام تحريماً تاما، ويقول الإمام محمد باقر الصدر : «إن تبرير الفائدة بعنصر المخاطرة خطأ من الأساس في نظر الإسلام، لأنه لا يعتبر المخاطرة أساساً

20) انظر : الإمام أبو الأعلى المودودي، الربا، ترجمة محمد عاصم ص 19.

مشروعاً للكسب وإنما يربط الكسب بالعمل المباشر أو المختزن» (21).

● **ويقولون :** إن الفائدة تدفع نظير الأجل فهي مكافأة على الانتظار، ويطرح أصحاب هذا الرأي المثال الآتي : أن من يدفع أرضه بالإجارة ينتظر ولا يخاطر فلماذا أباح الإسلام الإجارة مع أنها كسبا عن طريق الانتظار، ونحن لا نسلم بهذا الكلام، فالإسلام حرم هذه الطريق لأنه لا مخاطرة فيه إذ أنه كسب لا خسارة فيه، فهو ربح مستمر من غير أي تعرض للخسارة ولأنه يؤدي إلى وجود طبقة من الناس لا تسهم في أي عمل إنتاجي بل هم طاقات عاطلة، ويقول الإمام محمد أبو زهرة : «إن الكسب بطريق الانتظار هو والتكافل الاجتماعي نقيضان لا يجتمعان، إذ أن التكامل يقتضي التعاون ومن التعاون ما يكون بين رب المال والعامل بحيث يكسبان أو يخسران معاً» (22).

ورداً على المثال السابق ذكره نقول : إن الإجارة دفع عن مغلة مملوكة، ولواضع اليد عليها اختصاص يبيح استغلالها بكل الطرق، والعين المغلة تفترق عن النقود من أن النقود لا غلة لها إلا بالاسترباح بالتصرف فيها فغلتها من عمل العامل فيها، لامن ذاتها بخلاف الأرض فإن غلتها من ذاتها مع عمل العامل ويقول الإمام أبو زهرة : ولعل من أوضح المفارقات أن الإجارة فيها مشاركة في الخسارة، إذا لم تنتج الأرض شيئا بآفة سماوية أو نحوها، فقد قرر الأكثرون أن الأجرة توضع، وذلك من باب وضع الجوائح فإنه إذا نزلت جائحة أسقطت الواجبات التي كانت مرتبطة بما أهلكته الجوائح وقد وضع هذه النظرية الإمام ابن تيمية وأخذ بها القانون المدني المصري»(23).

● **رأي العلماء في الفائدة المصرفية :**

أحس علماء المسلمين من قديم بأهمية بحث قضية الفائدة المصرفية وموقف التشريع الإسلامي منها، فتناولها البعض بالدراسة والتحليل، ولا عجب أن يعطي العلماء قدرا من الاهتمام لموضوع الفائدة، فقد كانت من أكثر المعاملات انتشارا وكان من نتائج هذا النظام فساد روح التعاون، ونشر روح الاثرة والأنانية مما أدى إلى اضمحلال الثقة المتبادلة بين الناس حيث حل الشك والريبة محلها، وسنعرض آراء أشهر العلماء - في هذا الموضوع - مثل الأستاذ الإمام محمد عبده والأستاذ الشيخ عبد الوهاب خلاف، والأستاذ الشيخ محمد شلتوت، ونختم آراء العلماء بما قرره مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية الثاني في هذا الشأن وإليك تفصيلاً لآراء العلماء.

أولا - رأي الإمام محمد عبده في الفائدة :

زعم البعض (24) أن للمغفور له الإمام محمد عبده فتوى بحل الفوائد التي تمنحها مصلحة البريد لأصحاب الأموال المدخرة في صندوق البريد باعتبار ذلك قسطا من الأرباح التي تغلها هذه الأموال على المصلحة.

وقد نفى السيد محمد رشيد رضا - وهو من أخص الناس بالإمام وأقربهم إليه وأعلمهم بأقواله وفتاويه - أن يكون للإمام أية فتوى في مسألة فوائد صندوق التوفير (25).

وقال الأستاذ إبراهيم زكي الدين بدوي «قد جهدت في البحث عن نص هذه الفتوى سواء في مصلحة البريد أو في أعداد مجلة المنار منذ إنشائها حتى وفاة المغفور له صاحبها، فلم أعثر عليها» (26).

وقطعا لدابر ما يقال عن فتوى مزعومة للأستاذ الإمام رحمه الله نود أن نورد ما جاء بمجلة المنار حول هذا الموضوع :

فقد سأل أحد قراء مجلة المنار السؤال الآتي : «كثيرا ما سمعنا إباحة وضع الأموال في صناديق التوفير بالبريد وأخذ الفوائد عنها، وذلك مما لانشك أنه الربا المحرم بإجماع المسلمين لا نعلم بينهم خلافا، ثم إذا ناظرناهم فيه استندوا إلى أن

---

21) انظر : الإمام محمد باقر الصدر، اقتصادنا (بيروت - دار الكتاب اللبناني) ص 575.

22) الإمام محمد أبو زهرة، التكافل الاجتماعي في الإسلام، ص 43.

23) نفس المرجع السابق مباشرة ص 44.

24) ورد بكتاب الادخار - الذي قررت نظارة المعارف تدريسه على طلبة المدارس الابتدائية سنة 1913 - ما يفيد أن الإمام أفتى بحل فوائد التوفير على أساس أنه عمل من أعمال المضاربة الجائزة شرعا.

25) مجلة المنار، المجلد التاسع عشر - حـ 9 - ص 527 عدد 22 فبراير سنة 1917م.

26) انظر مقال الأستاذ : إبراهيم زكي الدين بدوي - نظرية الربا المحرم في الشريعة الإسلامية بمجلة القانون والاقتصاد العدد (5) من السنة التاسعة.

الأستاذ الإمام ـ رحمه الله ـ أفتى بجوازه من فتوى رسمية، ولما كنا لم نر هذه الفتوى ولم نعلم وجهها، وكنتم أخص الناس بالإمام وأعلمهم بأقواله وفتاويه لجأنا إليكم لتبينوا لنا فتوى الإمام أولا، وهل هي لا تعارض الكتاب والسنة ثانيا (27).

وقد أجاب الأستاذ السيد رشيد رضا بقوله : إن كان للأستاذ الإمام فتوى رسمية في مسألة صندوق التوفير فهي توجد في مجموعة فتاويه بوزارة الحقانية ومنها تطلب... وأنا لم أر له فتوى من ذلك ولكنني سمعت منه ـ في سياق حديث عن مقاومة الخديوي له ـ ما حاصله أن الحكومة أنشأت صندوق التوفير في مصلحة البريد بدكريتو خديوي ـ أمر عال ـ ليتيسر للفقراء حفظ ما زاد من دخلهم عن نفقاتهم وتثميره لهم، وقد تبين لها أن زهاء 2000 فقير من واضعي الأموال في صندوق البريد لم يقبلوا أخذ الربح الذي استحقوه بمقتضى الدكريتو، فسألتني الحكومة هل توجد طريقة شرعية لجعل هذا الربح حلالا حتى لا يتأثم فقراء المسلمين من الانتفاع به، فأجبتها شفاهة بإمكان ذلك بمراعاة أحكام شركة المضاربة من استغلال النقود المودعة في صندوق التوفير، فذاكر رئيس النظار الخديوي في تحرير الدكريتو الخديوي وتطبيقه على الشرع، فأظهر سموه الارتياح لذلك، ولما قال له رئيس النظار، إننا استشرنا المفتي في ذلك غضب غضبا شديدا وقال : كيف يبيح المفتي الربا ؟ لابد أن أستشير غيره من العلماء في ذلك ثم جمع سموه جمعية من علماء الأزهر في قصر القبة، وكلفهم وضع طريقة شرعية لصندوق التوفير ليظهر أمام العامة أنه المحامي عن الدين المطبق للمشروع على الشريعة، وأن الحكومة كانت عازمة على إكراه المسلمين على أكل الربا بمساعدة المفتي، لولا تداركه الأمر، وقد وضع له العلماء مشروعا قدمته المعية لنظارة المالية قال : إن نظارة المالية عرضت علي ذلك المشروع لإقراره ـ أو قال للتصديق عليه ـ فوجدته مبنيا على ما كنت قلته للحكومة شفاهة ـ هذا ما سمعت منه رحمه الله تعالى، وأظن أنه قال إن أولئك العلماء كانوا من فقهاء المذاهب الأربعة أو الثلاثة ولا أجزم بذلك».

27) انظر مجلة المنار بتاريخ 1917/2/22م ج 9 من المجلد 19 سؤال بتوقيع أبو الأشبال.

ومهما تكن صفة الطريقة التي وضعها العلماء لاستغلال أموال التوفير فلا يظهر عدها من الربا المجمع على تحريمه وهو ربا النسيئة الذي كان في الجاهلية.

ويؤكد الأستاذ إبراهيم زكي الدين أنه بحث في مصلحة البريد عن أثر التعديل الذي أشار إليه السيد رشيد رضا فلم يجده إلا في إقرار اختياري أعد في هامش الاستمارة «بريد رقم 2».

وقال : «وقد استفسرت من مصلحة البريد عن قيمة هذا الإقرار العملية فعلمت أنه لا قيمة له في العمل، فالأموال المودعة بناء عليه تثمر بها كغيرها مما لم يودع بهذا الإقرار، كما أن الربح الذي يوزع على الجميع بنسبة مئوية معينة هي : 2 ٪ في السنة، ويرى فضيلته أن التعديل المذكور ما هو إلا حيلة فقهية، كالحيل التي جوزها الفقهاء في القرض بفائدة، تقوم على إيجاد تعاقد صوري تتفق ألفاظه مع شروط شركة المضاربة وإن علم الجميع أن العمل يخالف ذلك (28).

وأخيرا فليرحم الله الإمام الجليل ـ محمد عبده ـ رحمة واسعة فإن ما قاله على أساس شركة المضاربة في استغلال النقود المودعة في صندوق البريد، هو ما يتفق وأحكام الشريعة الإسلامية، وهو عين ما تقوم عليه البنوك الإسلامية الحالية، وقد نجحت هذه البنوك نجاحا باهرا، رغم أن فترة وجودها قصيرة نسبيا بالنسبة إلى بنوك ربوية قائمة منذ عشرات السنين.

● ثانيا ـ رأي الأستاذ عبد الوهاب خلاف في الفائدة :

للمرحوم الأستاذ عبد الوهاب خلاف، أستاذ الشريعة الإسلامية، فتوى تتعلق بربح صندوق توفير البريد، ففي مقال نشرته مجلة «لواء الإسلام القاهرية» في عددها الحادي عشر لسنة 1951م، أجاب فضيلته عن سؤال لأحد الموظفين حول ربح صندوق توفير البريد، وهل يحل أخذه، فقال سيادته : «إن السؤال والجواب عنه واردان بالمجلد السادس من

28) انظر : إبراهيم زكي الدين، مرجع سابق، ص 554.
29) د. سامي حمود، تطوير الأعمال المصرفية بما يتفق والشريعة الإسلامية، ص 253.

مجلة المنار سنة 1903م وقد نقل صاحب المنار في صفحة 332 ع 9 سنة 1906 عن الأستاذ الإمام محمد عبده العبارة الآتية : «ولا يدخل في الربا المحرم الذي لا يشك فيه، من يعطي لآخر ماله ليستغله، ويجعل له من كسبه حظاً معيناً، لأن مخالفته قواعد الفقهاء في جعل الحظ معينا، قل الربح أو كثر، لا يدخل في الربا الجلي المركب المخرب للبيوت، لأن هذه المعاملة نافعة للعامل ولصاحب المال معاً، وذلك الربا ضار بواحد بلا ذنب غير الاضطرار، ونافع الآخر بلا عمل سوى القسوة والطمع، فلا يمكن أن يكون حكمها في عدل الله واحد.. وقد علق على هذا الكلام الدكتور سامي حمود قائلا (29) :

«وقد تبين لنا ـ نتيجة الرجوع إلى مصدر النقل المشار إليه ـ أن هذا الكلام ليس من كلام الشيخ عبده، لا أصلا ولا نسبة، ولكنه كلام السيد محمد رشيد رضا، وهو ما أعاد ترديده في تفسير المنار بنصه حرفيا دون أن ينسبه ـ من قريب أو بعيد ـ للأستاذ الإمام».

وننظر إلى كلام الأستاذ خلاف فنراه يقول :

«إن الإيداع في صندوق التوفير هو من قبيل المضاربة، فالمضاربون هم أصحاب المال، ومصلحة البريد هي القائمة بالعمل، والمضاربة عقد شركة بين طرفين، على أن يكون المال من جانب والربح، بينهما، وهو عقد صحيح شرعاً، واشترط الفقهاء لصحة هذا العقد ألا يكون لأحدهما من الربح نصيب معين اشتراطا لا دليل عليه، وكما يصح أن يكون الربح بينهما بالنسبة، يصح أن يكون حظا معينا ولا يدخل (هذا التعامل) في ربا الفضل ولا ربا النسيئة، لأنه نوع من المضاربة، اشترط فيه لصاحب المال حظ معين من الربح، وهذا الاشتراط مخالف لأقوال الفقهاء، ولكنه غير مخالف نصا في القرآن والسنة».

وقد كان لهذا الرأي ضجة كبرى بين رجال الفقه والدين، وقد عارض عدد كبير من العلماء رأي الشيخ خلاف، وهاجموه بشدة ومن بينهم الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة (30)، والأستاذ محمد علي النجار (31)، والأستاذ عبد الرحيم الوريدي (32) وفضيلة الشيخ عبد الرحمن تاج (33) ونختار من بين هذه الآراء المعارضة رأي الدكتور عبد الرحمن تاج والذي نشر في العدد الثالث من السنة الخامسة من مجلة لواء الإسلام فقال : «لا مجال للشك في أن إيداع المال في صندوق التوفير، مع اشتراط زيادة معينة غير نسبية من الربح، هو من باب القرض بفائدة، وإذا كان يعبر من جانبه بإيداع وديعة، فهو وديعة مضمونة ومضمونة مع اشتراط فائدة للمودع فهو لا محالة «قرض» وهو من القرض غير الحسن، وليس من المضاربة في شيء...».

وقد أضاف فضيلته قائلا : «أما عن النقطة الثانية الخاصة باشتراط جزء معين من الربح لصاحب المال في عقد المضاربة فنقول إن شركات المضاربة كانت مهددة على عهد رسول ﷺ، وقد نقلت كتب السنة والتاريخ كثيرا من معاملات الناس في هذه الأبواب على ذلك العهد لكنها لم تنقل لنا واقعة واحدة من هذه المعاملات، قد أقر فيها اشتراط أن يكون لصاحب المال في المضاربة جزء معين غير نسبي من الربح، ولو كان قبل هذا الاشتراط جائزا شرعا لأثر عنهم، ولو في حالات قليلة من هذه الأبواب جميعا أو من بعضها من غير أن ينكر ذلك عليهم من الرسول ﷺ، أو من علماء الصحابة وفقهائهم (34).

ثالثا ـ رأي الشيخ محمود شلتوت في الفائدة (35) :

سئل فضيلة الشيخ شلتوت ـ رحمه الله ـ عن رأيه في أرباح صندوق التوفير والذي تدفعه المصلحة لأصحاب الأموال المودعة في الصندوق فقال : «والذي نراه ـ تطبيقا للأحكام الشرعية، والقواعد السليمة أنه حلال ولا حرمة فيه، ذلك أن المال المودع لم يكن دينا لصاحبه على صندوق التوفير، ولم يقترضه صندوق التوفير منه، وإنما تقدم به صاحبه إلى المصلحة من تلقاء نفسه طائعا مختارا، ملتمسا قبول

30) انظر العدد الثاني من السنة الخامسة لمجلة لواء الإسلام القاهرية.

31) نفس المرجع السابق.

32) ايضا المرجع السابق ص 14.

33) انظر العدد الثالث من السنة الخامسة لمجلة لواء الإسلام القاهرية.

34) انظر : الشيخ محمود شلتوت، الفتاوي دراسة لمشكلات المسلم المعاصر في حياته اليومية والعامة ص 221، ص 252.

35) د. أحمد شلبي، الإسلام والقضايا الاقتصادية الحديثة ص 93292.

المصلحة إياه، وهو يعرف أن المصلحة تستغل الأموال المودعة لديها في مواد تجارية وينذر فيها - إن لم يعدم - الكساد أو الخراز وقد قصد بهذا الإيداع أولا : حفظ ماله من الضياع، وتعويد نفسه على التوفير والاقتصاد وثانيا : إمداد المصلحة بزيادة رأس مالها ليتسع نطاق معاملاتها وتكثر أرباحها فينتفع العمال والموظفون وتنتفع الحكومة بفائض الأرباح... ويضيف قائلا فإذا ما عينت المصلحة لهذا التشجيع قدرا من أرباحها منسوباً إلى المال المودع بأي نسبة تريد، وتقدمت به إلى صاحب المال كانت دون شك معاملة ذات نفع تعاوني عام، يشمل خيرها صاحب المال والعمال والحكومة وليس فيها مع هذا النفع العام أدنى شائبة لظلم أحد، أو استغلال لحاجة أحد، ولا يتوقف حل هذه المعاملة على أن تندمج في نوع من أنواع الشركات التي عرفها الفقهاء وتحدثوا عنها وعن أحكامها».

ثم قال فضيلته : «إن هذه المعاملة بكيفيتها وبظروفها كلها، وبضمان أرباحها لم تكن معروفة لفقهائنا الأولين وقت أن بحثوا الشركة ونوعوها، واشترطوا فيها ما اشترطوا، فالتقدم البشري أحدث في الاقتصاديات أنواعا من العقود، وما دام الميزان الشرعي في حل التعامل وحرمته قائما في كتاب الله ﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾ ﴿ولا تظلمون ولا تظلمون﴾ فما علينا أن نحكمه ونسير على مقتضاه، ومن هنا تبين أن الربح المذكور ليس فائدة لدين حتى يكون ربا، ولا منفعة جرها قرض حتى يكون حراما على فرض صحة النهي عنه، وإنما هو كما قلنا تشجيع على التوفير والتعاون اللذين يستحبها الشرع».

● وقد كان لهذه الفتوى تأثيراً واضحاً في تغيير سلوك من يرفضوا التعامل مع صندوق التوفير، فبعد أن كانوا ينظرون إلى فائدة التوفير على أنها ربا محرم، بدأوا يقبلون على إيداع أموالهم في الصندوق مستندين على فتوى الشيخ شلتوت، إلى أن أشيع بين الناس أن فضيلته عدل عن رأيه - قبل وفاته - ألا وإننا لا نسلم بما أشيع نظرا لأننا لم نعثر على أي سند يفيد ذلك.

ومن ناحية أخرى أكد الدكتور أحمد شلبي، (36) على أن مدير مكتب الشيخ شلتوت الأستاذ أحمد نصار - الذي كان يتولى الإشراف على طبع كتب فضيلته - قد كتب لجريدة الأهرام يقول : «لقد كنت قريباً من الشيخ شلتوت في آخر حياته، باعتباري مديراً لمكتبه، كما كان لي أيضاً شرف الإشراف على طبع مؤلفاته ومنها كتاب الفتاوي والإمام الراحل لم يرجع عن هذه الفتوى ولا عن غيرها، وقد نشرت بكتابه الذي طبع مرتين في حياته - الثانية في أخرياتها - وهي مستندة إلى استدلالات فقهية، كما هي عادة الإمام الراحل في كل فتاواه وباب البحث مفتوح للجميع.

والنقطة التي لا نتفق فيها مع فضيلة الشيخ شلتوت، هي قوله بأن مصلحة البريد تستغل الأموال المودعة لديها في مواد تجارية فهي في واقع الأمر لا تستثمر في مواد تجارية ولا مشاريع استثمارية بل تودع لدى بنوك ربوية أو الخزانة العامة مقابل فائدة أو تشترى بها سندات تعطي فوائد.

وقد أكد الدكتور سامي حمود، على أن هيئة البريد قد سمحت له بالاطلاع على مكونات حساب الإيرادات الربحية التي حققتها المصلحة عن السنة المنتهية في 1974/12/21 واتضح لسيادته أن الفوائد المقبوضة تشكل 98 ٪ من المجموع (37) وطالما أن الأمر كذلك فلا يمكن التسليم أيضا بما انتهى إليه الشيخ شلتوت - رحمه الله - فقد كانت فتواه على أساس أن هذه الفوائد التي توزعها المصلحة هي جزء من ربح ناتج عن استثمار الأموال المودعة لدى الصندوق من مواد تجارية.

ونختتم آراء العلماء من الفائدة بما قرره مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية الثاني والذي كان يضم ممثلي خمساً وثلاثين دولة لهذا الموضوع، وأصدروا قراراً بأن الفائدة على أنواع القروض كلها من الربا المحرم، كما قرروا بأن الحسابات ذات الأجل وفتح الاعتماد بفائدة، وسائر أنواع الإقراض نظير فائدة كلها من المعاملات الربوية وهي محرمة.

ثم توجهوا بنداء إلى علماء المسلمين ورجال المال والاقتصاد أن يتقدموا بمقترحات لإقامة بديل إسلامي للنظام المصرفي الحالي لما له من أثر واضح في النشاط الاقتصادي المعاصر.

مجدي عبد الفتاح سليمان

---

36) انظر د. سامي حمود، تطوير الأعمال المصرفية بما يتفق وأحكام الشريعة الإسلامية، ص : 256.



بقلم : الدكتور عبد السلام الهراس

ما سررت في حياتي سروري ببعث الحياة العلمية من جديد في القرويين وقد كان يظن أنها أصبحت في عداد العاديات والآثار الميتة التي تدل على الماضي دون أن يكون لها في الحاضر مكان أو وجود.

كانت الألسنة تتناقل كلمة قيلت يوم إحياء ذكراها، وقد جمع الحفل أعلام الدين والفكر في العالم الإسلامي فبدر من أحدهم القول إننا نشهد «تأبين» القرويين، فازدادت الكلمة رسوخا في الأذهان بازدياد ضمور وجودها العلمي وخلو كراسيها من علمائها وتتابع موت أفذاذها، وانطواء البقية الباقية منهم، وانزوائهم على أنفسهم بل وانتقال سكنى جلهم من جوارها وحولها ومدينتها إلى أماكن أخرى بعيدة، إلا رجلا واحدا ظل يرتادها وكأنه بقية من روحها يتشبث بربطها بالوجود وهو يقاوم الموت والفناء.

ومازلت أذكر أني يوما صحبة أخي الدكتور المهدي بنعبود أطال الله عمره في عافية وقوة - رغبة في أداء ركعات لله بهذا البيت، وأثناء خروجنا سألني ألا تسمع همسات وهمهمات هذه السواري، فماذا تقول لنا ؟.......

وحضرت جنازات لكثير من علماء القرويين بفاس وغير فاس، وشاركت بالحضور والكلمة في تأبين بعضهم وقد أنشأت قصيدة طويلة أبكي فيه القرويين وعلمائها، نشرت في جريدة النور بتطوان، وآخر هؤلاء العلماء وفاة العلامة المؤرخ الفقيه محمد داود والعلامة الأصولي الفقيه العربي الشامي (1984/11/11) ومما قلته فيها :

مررت بجامعنا غدوة
فألفيت جامعنا يُحتضر
أجامعنا إن دهتك خطوب
فلا شمس في أفقنا أو قمر
فما من مجيب سوى زفرة
تؤازرها زفرات أخر
لقد هجروني وهل أفلحوا
فهجر الجوامع إحدى الكبر !!
وقد يغفر الله سفك دماء
وسفك المنابر لا يغتفر !!
لئن كان أعلامنا قد قضوا
فإنا على حافة المنحدر
وإن غاب عنا زائير أسود
فهل كان يجدي خوار البقر ؟
وفي كل حي تربص شر
وفي كل ركن نذير الخطر

وفي حفل تأبين أخينا العلامة المشارك الأستاذ / عبد الله الجراري رحمه الله ختمت بقولي داعيا «نسأل الله أن يهيء الأسباب لتعود الحياة في هذا البلد الأمين علمية إسلامية عظيمة فتعود فيها كراسي القرآن وكراسي الحديث وكراسي الفقه وكراسي الإيمان».

وما من مؤمن يحب المغرب إلا وكان يهفو أن يرى القرويين وقد عادت إليها حياتها العلمية وإشعاعها الديني والفكري الذي كان يجتذب إليه طلاب العلم والمعرفة وإخوان الإسلام والإيمان فيأتون إليها رجالا وركبانا ومن كل فج عميق. ومنذ أشهر في ملتقى الفكر بالجزائر التقيت بنخبة من علمائها درسوا بالقرويين فانطلقوا يحدثون الحضور عن أجمل حياتهم في القرويين وبفاس ومدارسها ويعدون شيوخهم واحدا واحدا، ولقد عجبت لعالم فاضل رغم ما كان يعانيه من مرض فما أن رآنا وقد جرى حديث القرويين حتى تجددت حيويته وتوقدت قريحته وتحفزت ذكرياته فانثالت عليه من كل جانب وأملى علينا فهرسة كاملة لحياته العلمية بفاس وما تخلل تلك الحياة من ذكريات جميلة ومواقف عزيزة ولم يدع أستاذا درس عليه إلا وذكره، وذكر ما يتصل بما درس عليه من علم وكتاب، والطريقة التي كان يلقي بها درسه وما يجري في حلقاته من حوار ومناقشات وما كان يخصه به من إكرام وتقدير، فأشاد بكرم هؤلاء وبأهل فاس الذين كانو يكرمون الغرباء من طلاب العلم ويبرون بهم على عادتهم وعادة جميع المغاربة. وما ألقى أحدا، في الغرب أو الشرق إلا والقرويين من أهم محاور حديثنا لما لها من تاريخ أصيل وارتباط بالحضارة أثيل، ولقد قيل : «لولا عياض لما ذكر المغرب»، وأنا أقول : «لو لا القرويين لما وجد المغرب» فهي القلب النابض الذي كان يستقبل الدماء من الأوردة والعروق المغربية وغيرها فيوزعها على المغرب الكبير وعلى افريقيا بل وعلى العالم الإسلامي في تدفق وقوة وانتظام.

وما زلت أذكر في رحلتي لطلب العلم بالشام (سوريا ولبنان) أني التقيت بعلماء أجلاء مغاربة كانت لهم مكانتهم في المشرق وكلهم غرفوا من ينابيع القرويين الصافية مباشرة أو غير مباشرة فأصبحوا بذلك ذوي مكانة مرموقة أهلتهم للرياسة والصدارة.

وقد حكى لي غير واحد ما كان لعلماء القرويين في حياته العلمية والخلقية من تأثير فعال، ومن هؤلاء الأفذاذ الشيخ محمد الشاذلي النيفر الذي كان والده من أبرز طلاب الشيخ المهدي الوزاني الذي كان يقيم عندهم في بيتهم الأيام الطوال، وكذلك الشيخ الأديب علي الطنطاوي الذي درس وأفاد من علم الشيخ الحافظ محمد بن جعفر الكتاني، وحضر دروس الفقيه ابن المامون البلغيثي الذي قال عنه إنه كان آية في العلم لا سيما في النحو والأدب والبلاغة.

وبالقرويين سدنا وبها سنسود وكيف لا يغريني الحديث عنها بالاسترسال والاستطراد وأنا أحد أبنائها الذين كان لها الفضل علي فيما وفقنا إليه من دراسة في الشرق أو الغرب، وكيف لا أرتاع وألتاع إذ أراها وقد خلت من العلماء، وتوقف العلم بها فتوقف ارتياد طلاب العلم من إفريقيا عن المغرب ولم نعد نرى تلك الوفود تترى وهي تنهل من منابع هذا الجامع العظيم ما كان له أقوى الآثر في ضعف روابطنا بإخواننا في افريقيا الإسلامية !!

وبذلك تجمدت رسالة المغرب الإسلامية التي اضطلع بها منذ قرون وما تزال آثارها سارية في أهم أقطار إفريقيا والشرق الإسلامي. لذلك فإني ما إن علمت بمحاولة لعودة الحياة العلمية إليها. وكنت يومئذ ملازما للفراش. حتى طربت وازددت إيمانا أن الله لطيف بهذا البلد إذ من عليه بهذه العودة المباركة ووفق وسدد وهدى فله الحمد في الأولى والآخرة وستكون الفرحة أعم وأقوى إذا انبعثت القرويين انبعاثا شاملا.

وبهذه العودة المباركة ستسري الحياة العلمية في شرايين المغرب كله مدنه وقراه وبواديه، وإني لا أشك أن أهل البوادي والقرى ما إن يسمعوا بعودة العلم إلى القرويين الا ويهرعون إليها ينهلون من ينابيعها الصافية في صبر ومصابرة واحتساب وإخلاص.

ولو نحن أولينا هؤلاء بعض العناية وجزءا صغيرا مما نوليه للمدارس العصرية لكونا منهم رسل خير وبركة ونصر فينشرون العربية والعلوم الإسلامية في أمصار افريقيا أو غير افريقيا من العالم الإسلامي لأنهم يملكون ما لا يملك الآخرون فهم يحفظون كتاب الله ويستظهرون المصنفات والمنظومات في العلوم العربية والإسلامية وهم أقرب شباننا لحياة البداوة الصافية والقاسية وهم بذلك يستطيعون التحمل أكثر من غيرهم.

وبهذه العودة سنحيي الدين في القبائل إذ سيكثر الطلب على هؤلاء الطلبة المكونين تكوينا صحيحاً كما أن

مالنا في الخارج سيقبلون على طلب هذا النوع من طلاب العلم للامامة وتعليم أبنائهم العربية والقرآن. ومن آثار هذه العودة المباركة أن المغرب سيسترد مكانته في إفريقيا إذ سيهجر إليه طلاب كثار منها رغبة في الأخذ والإفادة من علوم القرويين، ولدي رسائل يرجو فيها أصحابها أن يلتحقوا بالمغرب لدراسة العلوم الإسلامية وإن الله سيتكفل بنشر هذه البشرى دون دعاية أو إعلام أو ترويج وسنرى ذلك قريبا بحول الله.

ومن آثار هذه العودة المباركة أن البقية من علمائنا سيزدادون علما إذ عادت أرواحهم للانتعاش عندما رأوا أن علومهم مرغوب فيها وبذلك يزكو علمهم إذ بالإنفاق تزكو العلوم وهذا هو السبيل الوحيد لتكوين الأطر العالمة وفي خلال سنوات قليلة يمكن أن يصبح في المغرب علماء كبار كما كان العهد سالفا.

ومن آثار هذه العودة المباركة أن عوام المدينة وزوارها سترقى مداركهم الثقافية والعلمية، وسيصبحون على دراية بشؤون دينهم إذ سيغشون مجالس العلم ويتصلون بالعلماء يسألونهم ويستضيفونهم ويخالطونهم كما كان العهد بهذه المدينة العظيمة، وبذلك يسترد أهل فاس القديمة ما كان يتمتع به أسلافهم من مكانة علمية بارزة.

ويمكن بهذه العودة أن تتكون الجامعة الإسلامية المغربية المرتقبة التي يمكن أن تصبح في العلوم ومناهجها مثالا يحتذى إذ لا تتقيد بسن ولا أنظمة ولا وقت ولا قيود أخرى تجعل تعاطي العلم محدودا جدا.

إن عودة القرويين لا تعني سوى عودتنا لمنابع عزنا وقوتنا وحضارتنا وهي بداية سليمة لانطلاقة كبرى نحو المجد والخلود لهذا البلد الأصيل الذي ارتبطت نهضته دائما بالدين والدين وحده والله الموفق وهو نعم المولى ونعم النصير.

الدكتور ـ عبد السلام الهراس



معالم الشخصية الإسلامية في مواجهة الحضارة الغربية

بقلم: أحمد بن التهامي التلمساني

مقدمة : كان الإنسان ولا يزال العامل الأول لقيام الحضارات والمحرك الرئيسي لإحداث التغيرات والثورات وتوجيه الحياة توجيها سلبيا أو إيجابيا.

فعلى الرغم مما قد تظهر به بعض الحضارات من طغيان مظاهر خاصة للتقدم مادية كانت أو روحية يبقى الإنسان ـ وما يحمله من عقيدة راسخة وإرادة ثابتة وعقل متفتح واع ـ دائما هو محور كل حركة وتطور، هو وسيلتها الأولى وغايتها النهائية. نقول هذا إيمانا منا بقدرة الإنسان على الإنشاء والتعمير والخلق والابتكار بكل ما أوتي من طاقة عقلية ونفسية وروحية.

انطلاقا من قدرة الإنسان هذه وما لها من أثر في إحداث التغيير اللازم، نتحدث عن الشخصية الإسلامية لنعرف مقوماتها ومعالمها البارزة عسانا نستلهم منها ما يقوي ويجدد شخصياتنا اليوم لنصنع ما صنعته تلك الشخصيات الإسلامية الأولى من أمجاد وما حققته من تقدم، باحثين عن عناصر القوة في تلك الشخصيات الإسلامية التي يمكن تلمسها في شخصياتنا اليوم.

إن الحديث عن الشخصية الإسلامية هو حديث بالدرجة الأولى عن الأمة الإسلامية والمجتمع الإسلامي بكل ما يعتريه من مظاهر التقدم والتطور والتجديد وما يصيبه من عوامل الانهيار والتأخر والجمود في كل جوانبه الاجتماعية والفكرية والسياسية ما دام الفرد الواحد لبنة في بناء المجتمع يقوى بقوته ويضعف بضعفه.

وإذا كان علماء النفس قد عرفوا الشخصية بأنها : «الوحدة الكلية المميزة لبنيان فرد وطرق سلوكه وأنواع اهتماماته وقدراته وقابلياته ومواهبه» (1) فإن إضافة الشخصية لكلمة الإسلامية نعني بها تلك الملامح التي رسمها الإسلام لأفراد المجتمع الإسلامي والتي يطبعها على سلوكهم فيصيرون بها وحدة مجتمعية مميزة بين سائر المجتمعات، فالشخصية تطلق في علم النفس وعلم الاجتماع على العلامات المميزة لإنسان أو لمجموعة من البشر. إن كل حديث جاد عن الشخصية لابد وأن يستهدف مجموعة كبيرة من الظواهر التي لعبت دورا ـ قل أو كثر ـ في حياة فئة من الناس. وإذن نحن ملزمون بتبيان هذه المعالم والصفات المميزة للشخصية الإسلامية في إطارها الاجتماعي. ومن الجدير بالذكر منذ البداية أن نفرق بين السمات الشخصية الإسلامية النفسية والعقدية والسلوكية في أصلها وكما وردت في النبع الأول للإسلام : القرآن والسنة، وكما تجسدت في شخصيات الصحابة وأمثالهم، وهذا هو مطلبنا هنا، وبين ما هو موجود في مجتمع المسلمين اليوم مما أصابه تدهور وانحلال وتفسخ وتمزق الأمر الذي يعد مظهرا من مظاهر تأخر المسلمين وانحطاطهم.

عوامل اضمحلال الشخصية المسلمة اليوم :

عرف المسلمون في العصر الحديث تحديات فكرية وسياسية واقتصادية أدت بهم إلى استعمارهم من طرف الدول الغربية، ونشأ عن هذا الاستعمار مضاعفات ظهرت في شكل تبعية اقتصادية وتقليد ثقافي واجتماعي، وانحلال خلقي إلى درجة يمكن معها القول : «إن كل المشاكل التي

1) علم النفس التربوي لفاخر عاقل.

تعاني منها الأمة الإسلامية اليوم إنما تنبع من انجذابها إلى مركز الحضارة الغربية» (2). إن انجذاب الشخصية الإسلامية إلى هذه الحضارة والتطلع إلى زخرفها والانبهار بعلومها المادية يمثل مشكلة نفسية قبل كل شيء ناشئة عن شعور بالنقص والتخلف إزاء هذه الحضارة، وإذا حاولنا تحليل هذا المشكل لرجعنا به إلى أخطر وأول عامل وهو انتثار عقد الخلافة الإسلامية، وتوزيع العالم الإسلامي بين الدول المستعمرة ومحاربتهم المسلمين محاربة صليبية وفكرية وتبشيرية من جهة، وما أصاب المسلمين من تعطيل للفكر أدى بهم إلى الجمود والاتكال والإغراق في طقوس من الخرافات والشعوذة، وزيغ بالدين عن أهدافه الحقيقية من جهة أخرى، حتى طغى على الناس إضفاء الاعتبار على الجزئيات والفروع من الدين مع إهمال لأصوله وكلياته.

تحديات الغرب للمسلمين :

لقد درس الغرب وضع العالم الإسلامي، وعرف علماؤه ما هو عليه من موقع استراتيجي هام، وروح معنوية عالية وعقيدة صحيحة تجمع أهله على كلمة واحدة، كما رأوا أن قتال المسلمين جميعا أمر صعب جدا لتمكن فكرة الجهاد من نفوسهم، فلابد من التفريق بينهم، وإيجاد الخلافات، وبدأ التفكير في تحطيم الشخصية الإسلامية عن طريق إضعاف الإيمان في قلوب أصحابها وتشكيكهم في عقيدتهم، فظهرت مخططاتهم الجهنمية في شكل هجمات صليبية وحملات تبشيرية ودسائس صهيونية : (3).

- فعلى الصعيد السياسي ظهر التمزق في جسم الأمة الإسلامية بتفتيتها إلى دويلات، وإذكاء نار الفتنة داخلها، وتشجيع الحروب الداخلية فيما بينها...

- وعلى الصعيد الفكري غزونا بنظريات تتولى تفسير العلاقات الإنسانية داخل المجتمع تفسيرا ماديا وطبيعيا الغرض منه طعن العقيدة الإسلامية من الخلف وإزاحة المسلمين عنها. من هذه النظريات قيام الدولة على أساس علماني، والتفسير المادي للتاريخ، ولأصل الإنسان، وقيام المجتمع على فكرة القومية، أو الاشتراكية، أو الرأسمالية... ولعبت هذه المصطلحات لعبتها في رؤوس المفكرين منا وأدت غايتها إلى أن جهلت إنسيتنا الفكرية ولم يعد لنا اعتبار في هذا الجانب سوى الاشتغال بهذه الجدليات الفارغة التي هي وليدة مشاكل غربية صرفة... وعلى الصعيد الثقافي والإعلامي فقد عمت مخططاتهم كل وسائل الإعلام سواء أكانت منطوقة أو مكتوبة أو مرئية، وجعلتها في أيد أمينة تخدم مصلحة المستعمر ومصلحة الحضارة الغربية، وتتحكم في الشريان الفكري والاجتماعي الذي يشد الشخصية الإسلامية إلى المركز الغربي بأسلوب من الأساليب - أما مخططاتهم التربوية والتعليمية فقد سلكوا فيها طريقين : طريق مباشر متمثل في المعاهد والمؤسسات التبشيرية وما تحمله من مغريات الدعاية. وطريق غير مباشر متمثل في الصبغة التي اصطبغت بها المناهج التربوية في مختلف المدارس التعليمية، وقد تمثل ذلك بالخصوص في العقلية التي تشربت «حب الحضارة الغربية افتتانا بها لا تفهما لها» (4). ومن الوسائل التي ضمنت تكريس الأساليب الاستعمارية في المجتمعات الإسلامية تولي أصحاب هذه العقلية مسؤولية التوجيه والتثقيف وتدبير شؤون المجتمع خلفا للمستعمر، وكانت النتيجة النهائية لهذا المخطط الثقافي والتعليمي ما نراه اليوم من انفصام للشخصية الإسلامية، وما نحس به من غربة فيما بيننا داخل الأسرة الواحدة.

وإذا كان الإسلام قد نجح - إلى حد ما ولو ظاهريا - على صعيد الضغوط السياسية فإنه ليس من السهل التغلب على خطر أدهى وأعظم ألا وهو خطر الاستعمار الثقافي والاجتماعي والاقتصادي ونخص بالذكر ما يعرف «بثقافة الشباب» الممثلة في نوع الموسيقى الصاخبة، ونوع الملابس التي لا تفرق بين الجنسين، فخطورة هذين العاملين تأتي من أن تأثيرهما أعمق بكثير مما نظن حيث يحدث تدريجيا وبطريقة لا شعورية، الأمر الذي يخفى وراءه «فلسفة معينة تدور حول تحدي الشباب للأسرة والمجتمع وتمردهم عليهما» (5) ويحدث تغيرات عميقة في القيم

2) مجلة الفكر العربي 21 ص 239 بتصرف.

3) يراجع في هذا الشأن كتاب «العالم الإسلامي ومحاولة السيطرة عليه» لمحمود شاكر.

4) مجلة الفكر العربي 21 ص 241 بتصرف.

5) مجلة عالم الفكر المجلد 11 العدد الأول ص 280 من مقال : «الإسلام المناضل» بتصرف.

السائدة، كما أن إلغاء الفوارق بين الجنسين أدى إلى إلغاء كل المزايا والاختلافات الفردية، وبالتالي إلى إلغاء شخصية الفرد في النهاية. وقد لاحظ أحد الباحثين (6) الأجانب أن كثيرا من الفتيات يرتدين الحجاب الذي جهدت أمهاتهن طويلا في طرحه جانبا ليس بدافع التدين وإنما بدافع الرغبة الشعورية أو اللاشعورية في المحافظة على الذات والشخصية.

ولم يقم تحدي الغرب عند حدود إضعاف الشخصية الإسلامية وإذلالها عن طريق إشعارها بالهزيمة السياسية والتبعية الاجتماعية والثقافية، بل تعدى ذلك إلى الإسلام نفسه، وقد ظلت اتهامات المستشرقين متداولة على صعيد الفكر الإسلامي تعكس وجهة نظر الغرب للإسلام قرونا عديدة، وتتلخص هذه الاتهامات في أربع : يقولون :

1) إن الإسلام انتشر بحد السيف متخفيا وراء الجهاد ولم ينتشر عن طريق الإقناع.

2) إن قساوة بعض العقوبات الناشئة عن إقامة الحدود على بعض الجرائم كقطع اليد في السرقة، وعقوبة القصاص مما يستحيل تطبيقه على الإنسان إلا في عصور الهمجية والوحشية.

3) إن الاقتصاد الإسلامي اقتصاد غير واقعي لرفضه كلية فكرة الفائدة على رأس المال بدعوى أنها نوع من الربا الذي يحرمه الإسلام.

4) إن الإسلام بتعاليمه الخاصة عن تعدد الزوجات والطلاق يجعل للمرأة مكانة دنيا في المجتمع تكاد تشبه العبودية.

يضاف إلى هذه الاتهامات تهمة كبرى في نظري وهي التي ينزلق بسببها كثير من شبابنا المثقف فلا يلبث حتى يجد نفسه وقد انحاز لروح الحضارة الغربية يدافع عنها ويتعصب لها ألا وهي تهمة : أن الإسلام بصفته دينا ليس من حقه تنظيم شؤون الحياة السياسية والاقتصادية والعلمية، ومن ثم ينبغي أن يقتصر نشاطه على الجانب الديني كما يفهمونه تصديقا للقولة : اترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله، وهكذا تجسدت هذه التهمة في مشكل : كيف يمكن التوفيق بين الدين والعلم أو بين الدين والدنيا على حد تعبيرهم ؟!.

وبدأ التفكير فيما أسموه بضرورة تجديد الدين، وتولدت قضايا شغلت الفكر الإسلامي تخص التوفيق بين القديم والجديد بين الدين والعلم، وبدأت أسئلة التشكيك تنهال على العقول مما يمكن تلخيصه في سؤالين كما عبرت عن ذلك الدكتورة عائشة عبد الرحمان :

1) كيف يمكن لإنسان تأثر بثقافة الغرب العلمية تأثرا جذريا أن ينظر إلى المعتقدات الدينية والمؤسسات التي تتجسد فيها ؟

2) وبالمقابل كيف ينظر إنسان نشأ نشأة دينية وتقبلها جملة وتفصيلا إلى الحياة والكون من زاوية علمية محضة ؟ (7).

ونشأ توتر في عقلية هذا وذاك مما أدى بالجميع إلى حيرة وبلبلة فكرية لها أثرها في انفصام الشخصية الإسلامية كذلك.

وبإمعان النظر في هذه القضايا والمشاكل المثارة على صعيد الفكر الإسلامي تبدو لي ملاحظتان هامتان :

الأولى : أن هذه المشاكل تمثل ظواهر بشرية وحيوية تهم حياة المسلمين الاجتماعية في الصميم ولذلك اختيرت محوراً لإثارة هذه البلبلة، ونظرا لحيويتها فإننا نرى أن المسلمين لو نفذوا حكم الإسلام فيها وكما أمر الله، فالتزموا بالجهاد حقا وطبقوا الحدود على أصحابها ورفضوا الربا كلية في معاملاتهم ووقفوا بالمرأة المسلمة عند حدود الشرع لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه.

الثانية : أن هذه المشاكل ما كانت لتكون مشاكلنا قط لو بقينا متشبثين بروح ديننا الذي يسع الحياة برمتها فهي بالأحرى مشاكل منظور إليها من وجهة نظر الفكر الغربي.

يستنتج من الملاحظتين أننا لسنا ملزمين بالرد على هذه التهم ولا حتى الاشتغال بالبحث عن حلولها في نظامنا الإسلامي إلا بالقدر الذي يسمح به توضيح بعض القضايا لشبابنا أو للمتطرفين منا لهذه الحضارة، ولأنه ما

---

6) المصدر السابق.

7) كتاب الشخصية الإسلامية للدكتورة عائشة عبد الرحمن.

كان لنظام أن يشغل نفسه بإيجاد حلول لمشاكل ليست من مجتمعه.

موقف المجتمع الإسلامي من تلك التحديات :

ومع ذلك فقد تصدى لهذه المشاكل والقضايا جماعة من المفكرين والمصلحين الاجتماعيين والسياسيين وقامت بعض حركات الإصلاح هنا وهناك... ولا تنكر محاولاتهم الجادة التي تركت ولا شك أثرا لا بأس به على سطح الفكر الإسلامي رغم أنها في جملتها لم تسلم من بعض الانتقادات إما في مضمون الدعوة أو في منهاجها المتبع الأمر الذي وجه التفكير إلى معرفة الانسجام الحاصل في الإسلام بين القوانين العلمية والحقائق الإسلامية.

وفي أعقاب هذا الإصلاح تتنازع الفكر الإسلامي ثلاث فئات يمثل كل منها نموذجا للشخصية الإسلامية من نوع خاص :

الفئة الأولى : تتشبث بالإسلام وتلتزم به عقيدة وخلقا وسلوكا ولكنها تذهب في ذلك إلى أقصى حدود التطرف حتى أنها لتقف من الحضارة الغربية موقفا نفسيا مليئا بالاشمئزاز والكراهية.

الفئة الثانية : على طرفي نقيض من الأولى، فبقطع النظر عن إسلامها التقليدي فهي «لا ترى بديلا عنه إلا الارتماء في فلك المركزية الغربية والانطواء في شخصيتها الحضارية» (8).

الفئة الثالثة : خليط من الناس يدعون علماء المسلمين ويهيبون بهم أن يتعرفوا على حضارة الغرب تعرفا دقيقا، وأن يتبينوا جوانب المرونة في الشريعة الإسلامية ليعقدوا صلة بين هذين الجانبين للاستفادة من كل ما هو صالح ومفيد.

وظهر صراع بين مؤيدين لحضارة الغرب، ومعارضين، وموفقين. وكانت أبرز الفئات وأقواها تلك التي تدعو إلى الإيمان بعظمة الإسلام واستمراره على أن يستعيد المسلمون لأنفسهم حق الاجتهاد للنظر فيما فيه مصلحة للتأليف بين الإسلام وحضارة الغرب.

8) مجلة الفكر العربي 21 ص 244.

أزمة الحضارة الغربية وواقعها :

والواقع أنه لا يمكننا بتاتا الوقوف من هذه الحضارة الغربية موقفا توفيقيا ما دامت طبيعتها وروحها مخالفتين لطبيعة وروح الدين الإسلامي، علينا إذن أن نتخلص أولا من نظرة الإعجاب لهذه الحضارة لننكب على فهمها، ولنعرف منذ البداية أن مشاكلها لن تكون مشاكلنا لأنها مشاكل نابعة من التردي الذي وصلوا إليه في حضارتهم، فإذا كان المسلمون يحسون اليوم أنهم على عتبة المسرح ليعطوا للعالم نموذجا من الحضارة الإنسانية فلا شك أن ذلك لا يتم إلا بتغيير جذري لواقعهم **﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾**، وإذا أردنا تغيير واقعنا علينا أولا أن نعرف هذا الواقع بما فيه من خير وشر لنعرف ما يغير وما لا يغير، علينا ثانيا أن نعرف هذه الحضارة وما بها من خير أو شر لنعرف ما نأخذ منها وما لا نأخذ، هذه الحضارة التي تنبأت بسقوطها دراسات فلسفية واجتماعية قام بها علماؤهم معلنين ما أسموه بأزمة الحضارة الغربية، تلك الأزمة المتجلية في الانفجار الحضري، وتلوث البيئة، وفي الاغتراب والصراع والعنف مما أدى إلى وجود أزمة في شخصية إنسان المدنية الحديثة ناشئة عن روح التنكر لكل القيم والتقاليد الإنسانية.

إن أهم أمراض المجتمعات الحضرية التي يعاني منها سكان المدن اليوم هي نتيجة صراع القيم، فالعزلة والصراع الاجتماعي، والفزع والقلق كلها تكلفة حقيقية للتغير الحضري السريع كما عبر عن ذلك توماس بلير صاحب كتاب «الأزمة الحضرية العالمية» (9) : «إن المجتمع الحضاري أتى بفكرة تقسيم العمل التي أدت إلى جعل العمال أكثر مهارة ولكنهم أقل حبا للصناعة، كما قسم الفرد إلى أدوار مختلفة، وجعله أمام منافسة قاسية للحصول على المكانة الاجتماعية التي قد يؤدي الفشل في الحصول عليها إلى حالة مرضية لما يصاب به الإنسان من إحباط»، «وأن الأمراض النفسية والعقلية تتركز في وسط المدينة وغالبا ما تصيب أولئك الذين ينتقلون من مكانة اجتماعية إلى أخرى

9) انظر تعليقا على هذا الكتاب في مجلة عالم الفكر مجلد 10 عدد 4 ص 244.

في السلم الاجتماعي والاقتصادي، فيعانون من أمراض نفسية وجسمية فيتناولون الحبوب المهدئة، ويدخنون بشراهة، ويتناولون الخمور بهدف إراحة أعصابهم» (10) هذه إشارة إلى بعض مآسي الحضارة الغربية التي افتتنا بها كما وردت في بحوث ودراسات مفكريهم. إن كل ما في الحضارة الغربية من محاسن أنها كشفت عن الطبيعة المادية بعقل وعلم، ووصلت من ذلك إلى نهاية من التقدم المادي، لكن العلم وحده دون قيم أخلاقية ليس كاف في بناء الحضارات فقد يكون سببا من أسباب انهيارها. وخلاصة القول في جوهر هذه الحضارة أنها : «قائمة في أساسها على المدنية الرومانية التي لا تزال في واقعها وثنية مادية لا تومن إلا بالقوة بينما الإسلام بني على الروح والأخلاق والمثل العليا، تلك الأسس التي خلقت في الإنسان مناعة ذاتية جبارة، ولا ريب في أن هذه الحقيقة الثمينة قد انكشفت لغلادسون وزير بريطانيا الأول وأحد موطدي أركان الامبراطورية في الشرق حينما قال : «ما دام هذا القرآن موجودا فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق ولا أن تكون هي نفسها في أمان» (11).

التشبث بروح الدين الإسلامي :

أنه إذا كان الدين الإسلامي في منبعيه الأصليين : القرآن الكريم، والسنة النبوية هو الذي خلق من الصحابة والتابعين شخصيات وضعت الأسس للصياغة الجديدة لحضارة إسلامية عالمية تمازجت فيها ثقافة الفرس الروحية إلى جانب ثقافة الرومان المادية تمازجا كانت بسببه نبراسا لحضارة أوربا، فلا عجب أن يكون هو الدين الذي نرجع إليه اليوم في صحوتنا الإسلامية لنشرب من معينه ما يقوي نفوسنا ويخلق منا شخصيات سوية قادرة على مواجهة الأحداث، نرجع إليه لاستقراء خصائصه المميزة ومعرفة مناهجه في الحياة لنستنتج من كل ذلك معالم تتحلى بها شخصياتنا لتكون شخصية لها مميزاتها الذاتية التي تمكنها من تحمل المسؤولية. إن رجعة إلى الإسلام لاستكناه روحه وإحكام أصوله وقواعده جديرة بأن تفتح أعيننا على أنه منهاج عام للحياة الإنسانية متكامل ومتسق في صيغة من التوازن والانسجام المادي والروحي القابل للتطبيق في كل زمان ومكان.

إن السبيل لإزاحة الغشاوة عن عقولنا حتى تخرج من غطاء الانبهار بهذه الحضارة يكمن في إعادة الثقة بأنفسنا وبمقوماتنا الثابتة لتحررها من عبودية الغرب تحريرا يمكننا من الوقوف على أرض صلبة خارج نطاق هذه الجاذبية، لنتمكن من النظر إلى الحضارة الحالية وتقويمها دون التأثر بها. وأول شيء في طريق بعث الثقة بالنفس وتحريرها هو النظر في معالم الشخصية الإسلامية كما وردت في منبعها الأصيل، والتي بها كانت الشخصيات الإسلامية الأولى شخصيات قوية بنفسها باعثة على النهضة الإسلامية.

معالم الشخصية الإسلامية :

1) أولى هذه المعالم تكمن في عقيدة التوحيد، فالشخصية الإسلامية شخصية معتنقة لوحدانية الله : وحدانية الذات، ﴿**وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين، إنما هو إله واحد**﴾ ووحدانية العبادة ﴿**فاعبدوا الله مخلصا له الدين**﴾، ووحدانية الخلق والأمر ﴿**ألا له الخلق والأمر**﴾. ينشأ عن هذه الوحدانية فأنواعها الثلاثة إخضاع تدبير شؤون الحياة الكونية ومن جملتها حياة الانسان إلى منهج رباني ثابت وشامل. وهي تعني فيما تعنيه تحرير النفس البشرية بنزع السلطة من أي مصدر كان وإسنادها إلى الحق سبحانه، تحرير الإنسان من كل نوع من أنواع الطاغوت الذي يتحكم في رقاب عباد الله، فلا عبودية إلا لله، ولا شريعة إلا من عند الله، ولقد شاء الله أن تكون قضية العقيدة هذه هي أولى قضية تتصدى لها الدعوة منذ اليوم الأول للرسالة، لأنها قضية الإنسان وقضية وجوده ومصيره في هذا الكون، وعن طريقها يمنح تحرير نفسه من كل هيمنة أو تبعية.

وبقوة التوحيد هذه عاش المسلمون الأولون في المستوى الأرفع من العزة والقوة واستقلال الشخصية وتقويمها وتمايزها، وحققوا مواقف جليلة مثلت الشخصية الإسلامية في اعتزازها بذاتها، والتي زخر بها تاريخ

---

10) المصدر السابق.

11) من كتاب «الإسلام على مفترق الطرق» لمحمد أسد ص 39.

المسلمين الأولين بسبب تمكن عقيدة التوحيد من قلوبهم، وتمثلهم لها أحسن تمثيل في حياتهم.

2) المعلمة الثانية : تتجلى في الشمول والتكامل، ذلك أن الإسلام ينظر إلى الإنسان نظرة كلية شاملة لكل خصائصه ونوازعه، ويعامله على حسبها، ومن هناك سمي ين الفطرة التي فطر الناس عليها، أنه يومن بالجانب مادي في الإنسان ويعامله على حسبه، كما يومن بالجانب روحي فيه ويعامله على حسبه، وهذا ما يفسر أصل إنسان في الإسلام، إنه يرد أصل خلقته للناحيتين معا، الإنسان قبضة من طين : **﴿إني خالق بشرا من طين﴾** ـلك وفر له كل حاجاته المادية ونصيبه من المتاع، طلب منه استغلال كل طاقاته لتعمير الأرض على أحسن جه، وإنشاء النظم وتشييد الحضارات، وفي الوقت نفسه ' تكمل خلقته إلا بالجانب الروحي : **﴿فإذا سويته نفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾** لذا يوفر ه من هذه الوجهة ما يطلبه من عقيدة، ومثل، وصعود ترفع، ويجند طاقاته في إصلاح النفس والمجتمع، وإقامة حق والعدل، فإن يوصله بالله يستمد منه العزم والإرادة يستلهمه الرشد والسداد.

كل ذلك في ترابط وتكامل دون طغيان جانب على ـر. فالشخصية الإسلامية إذن وحدة متراصة متماسكة ستمدة وحدتها من وحدانية الخلق والأمر.

3) المعلمة الثالثة : تتجلى في أن الشخصية ـسلامية ليست معصومة، إنما هي بشر، وبشريتها هي التي فترق بها عن الملائكة الأطهار، والشياطين الأشرار. ومن ثم عترف في الإسلام باستعداد الإنسان للخير والشر، للطاعة المعصية، للهدى والضلال، وليس هذا مما يعارض تكريمه، إنما هو من مقتضيات حمله لأمانة التكليف الصعبة : **﴿إنا رضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال أبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان﴾** طاقة الإنسان على التكليف محدودة بوسعه، والله سبحانه يكلف نفسا إلا وسعها ولا يحملنا ما لا طاقة لنا به **وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾**.

«إن فهمنا لبشريتنا السوية، وما يجوز عليها من نقص خطأ وضعف ليريحنا من أزمة تعقد الشخصية بين ما نحرص عليه من تقوى وطهر وطاعة وما نتورط فيه من إثم ومعصية، وما فتح باب التوبة أمام الجميع إلا اعتراف ضمني بجواز اقتراف الذنوب وأنه لا عصمة منها لبشر» **﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾** (12).

فالإسلام باعتباره لبشرية الإنسان يجاري واقع الفطرة بما فيها من ضعف وأنانية وطاقة محدودة كما لا يغفل عن الطاقة المكنونة التي تحقق المثال، فهو يعين طبيعة الإنسان بما يشتمل عليه من توجيهات تعم حياته الفردية والاجتماعية قصد إنماء ما لها من إرادة وميل إلى الاجتماع (13).

كل ذلك في واقعية تشمل المثال ومثالية لا تغفل واقع الحياة، ولذلك انعدم في الإسلام أي حالة من حالات الرهبانية كما أسقط عنا إغلال الكهنوتية.

فالشخصية الإسلامية، من هذه الناحية، عدوة الترف والسرف والبذخ والخيلاء لكنها في نفس الوقت تعرف كيف توسع على نفسها فيما أحل الله من طيبات الدنيا.

فالالتزام بالتوسط سمة من سمات الشخصية الإسلامية.

4) المعلمة الرابعة : هي المسؤولية الفردية، ذلك أن الإنسان في الإسلام أفضل المخلوقات وهو خليفة الله في أرضه، ومقتضى الخلافة أن يعمر الأرض، وأن يستخدم عقله الذي فضله الله به على سائر المخلوقات فيما ينفع الناس والحياة عموما، ومن ثم ثبتت مسؤوليته على سعيه في دنياه ليعرف كيف يوجه غرائزه ويعليها باستخدامه لعقله أحسن استخدام.

فالشخصية الإسلامية شخصية مسؤولة تتحمل فرديا تبعة أعمالها، إذ لا قوام للخلق ولا للدين بغير التبعية ولا معنى لتكليف ولا حساب بغير المسؤولية الفردية.

5) خامسة المعالم : أن الشخصية الإسلامية شخصية إنسانية عالمية، تحمل رسالة الإسلام إلى كل بقاع العالم بغية قيام مجتمع نظيف يستمد منهاج حياته من خالقه

---

12) من كتاب «الشخصية الإسلامية» للدكتورة عائشة عبد الرحمن.

13) انظر كتاب «الدين والحضارة الإنسانية» للدكتور محمد البهي ص 144.

مجتمع تعمه الرحمة والعدل والمساواة والإحسان وتتكافأ فيه فرص الحياة الفكرية والمادية على السواء : ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتومنون بالله**﴾ ﴿**وما أرسلناك إلا كافة للناس**﴾ ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾.

فإنسانية المسلم وعالميته مشتقة من إنسانية الرسالة المحمدية وعموميتها لسائر الخلق أجمعين.

6) سادسة المعالم : ان الشخصية الإسلامية شخصية جادة في طلب العلم، تراه فريضة على كل مسلم، شخصية متفتحة على العالم،، فإذا كانت غايتها في الحياة هي العبادة، فلا عبادة بدون علم، ومفهوم العلم في الإسلام مفهوم واسع يتسع لكل مجال من مجالات استخدام العقل البشري مادام استخدامه لصالح الإنسانية، فبالعلم تعرف الشخصية الإسلامية مصيرها الأخروي وتبني حياتها الدنيوية، وبالعلم مع حسن الانتفاع به كان أهله ورثة الأنبياء.

7) سابعة المعالم : ان الشخصية الإسلامية شخصية متخلقة بخلق القرآن، ذلك أن الأخلاق الإنسانية الأساسية المعروفة لنجاح المرء في حياته لا تتم ولا يتسع مداها وتتأصل في الإنسان إلا إذا دخلت النفوس عن طريق الإيمان وجعلت غايتها وجه الله، فبدون أخلاق نابعة من الإيمان تكون الحضارة الحالية عرجاء كمن يسير على رجل واحدة.

8) ثامنة المعالم : ان الشخصية الإسلامية «طاقة إيجابية عاملة في واقع الحياة، قوة دافعة إلى الأمام تسيطر على القوة المادية وتستغلها في عمارة الأرض ﴿**وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه**﴾ قوة يغير الله بها واقع البشر لتنشئ واقعا حسب المنهج الذي تومن به» (14).

معنى هذا أن الحركية والعمل في اتجاه إيجابي هما صفة المسلم، فلم يكن المسلم الحق اتكاليا ولا ذلولا خنوعا، إن غاية الخلق هي العبادة ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾، ولا عبادة بدون إيمان، ولا إيمان بدون عمل، ولا عمل دون خضوع لأدق رقابة من ضير محروس بعين الله ومبرمج في منهج الله.

لقد ثبت عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم لم يكونوا يتلقون القرآن ليتملوا من معرفته وكفى، وإنما كانوا يتلقونه ليطبقوه في خاصية من خصوصيات حياتهم الفردية أو الجماعية. وهذا ما يفسر لنا واقعية أولئك الشخصيات الفذة وفهمهم للإسلام الذي من خصائصه أنه واقعي قريب من الحياة الفردية والاجتماعية، وأن تلقيهم للقرآن للعمل به وتنفيذه في حياتهم هو الذي صنع الجيل الأول.

9) المعلمة التاسعة : تتعلق بشخصية المرأة المسلمة حفاظا على كرامتها ووقوفا بها عند حدود الشرع، فإنه من أسباب اضحلال الشخصية المسلمة عموما اضحلال كرامة المرأة المسلمة والخروج بها من نطاقها الحقيقي إلى حالات من التميع والتفسخ والفتنة تحت ستار المساهمة في الحياة إلى جانب الرجل، فحفاظا على شخصية الرجل حافظ الإسلام على شخصية المرأة وضمن لها حقوقها كاملة موفورة وعين لها واجباتها وكرمها بنتاً وأمّاً وأختاً وزوجة، ولم يفرق بينها وبين الرجل في أي مجال من مجالات الحياة في حدود الوظيفة التي خلقت لها، مما لا يتسع له مقام هنا، وإنما تكفي الإشارة إلى أن المرأة سلاح ذو حدين فهي في الحضارة الغربية الحديثة تستخدم وتستغل استغلالا سلبيا في مجال نشر ما يسمونه تقدما ورقيا، ويحققون بها مآربهم السياسية والاقتصادية ويتخذونها وسيلة لنشر الدعارة وفساد الأخلاق، بينما هي في الإسلام ذات حقوق تحفظ بها شخصيتها من الضياع، وتصونها عن الرذيلة والإهانة، فمنحها حق التصرف في مالها، وأباح لها حل عقد النكاح إن شاءت، وجعلها شقيقة الرجل في الأحكام.

10) المعلمة العاشرة : هي من مقومات الشخصية الإسلامية ومن مستلزماتها. تلك هي اللغة العربية التي يتداول بها الفكر داخل المجتمع الإسلامي والأمة الإسلامية. فإذا صح أن اللغة هي ألصق شيء بالمقومات الأساسية النفسية والاجتماعية للشخصية الإنسانية تعبر من خلالها عن

---

14) من كتاب «منهج التربية الإسلامية» لمحمد قطب ص 32 بتصرف.

أفكارها وعناصرها الداخلية المكونة لها.. «وأن الفكر الجماعي يتكون، مثل الفكر الفردي، من القوة النفسية الداخلية التي تبرز المزايا العقلية والوجدانية للمجتمعات وللأفراد على السواء» فمما لا ريب فيه أن توحيد لغة الأمة هو السبيل الأقوم للاعتراف بوحدة عقليتها أو تشابهها إلى حد بعيد. ولذا لم يجعل الإسلام اللسان العربي الذي نزل به القرآن أداة للتعبير عن الشعائر الدينية فحسب، ولكنه اتخذها أرفع وسيلة لانصهار الأمة انصهاراً كاملا في جوهر شخصيتها وذاتيتها وأصالتها،،. فهناك تلازم تلقائي بين الإسلام والعربية : ذلك أن القرآن رفض التمييز بين البشر مصرحا بعالمية دعوته من جهة ومكررا في عدة آيات نزوله بلسان عربي مبين مشيدا بهذا اللسان من جهة أخرى.

فماذا يعني هذا ؟ إنه لا يعني سوى صيغة من الصيغ التي يلتقي فيها التوجيه مع التشريع أو السياسة مع الدين الأمر الذي يحملنا على جعل تعريب اللسان ضمن المقومات الأساسية للشخصية الإسلامية (15).

وقد صرح بهذه الحقيقة كثير من المنصفين الدارسين للإسلام فاعترفوا بأن العربية لغة الوحدة الفعلية للأمة جمعاء وأداة الرسالة لنشر الإسلام بين جميع الأمم والشعوب (16).

ولعله من المفيد هنا الاستدلال بما استدل به الدكتور صبحي الصالح من كلام ابن تيمية حيث أورد قوله : «فإن الله لما أنزل كتابه باللسان العربي وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به لم يكن سبيل إلى ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط هذا اللسان، وصارت معرفته من الدين، وصار اعتياد التكلم به أسهل على أهل الدين في معرفة دين الله وأقرب إلى إقامة شعائر الدين، وأقرب إلى مشابهتهم للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار في جميع أمورهم».

ثم أردف الدكتور صبحي الصالح على ذلك قوله : «ولابن تيمية كلام في هذا الموضوع مفاده أن العربية هي اللغة الوحيدة التي يجب أن تلقن للأطفال في البيت والمدرسة، وهي وحدها لغة الدولة والجيش، وتعلمها واجب على كل مسلم قادر مادام فهم الكتاب والسنة متوقفا عليها».

خلاصة : وبعد : فهذه خلاصة للمعالم التي ينبغي أن تكون عليها شخصية المسلم في كل زمان ومكان كما نص عليها الإسلام، وهي ليست على سبيل الحصر إذ لاحد للكمال فيها.. إنها لو طبقت في مجتمع ما لحقق لنفسه التحرر من كل عبودية أو تبعية، ولوجد من ذاته وأصالته وطاقته ما يؤهله لتحمل مسؤولية التعمير والبناء في الحياة كما كلفه الله بها. وقد كان بودنا أن نعززها بنماذج من حياة الصحابة وأبطال الإسلام. ولكن المقام لم يتسع لذلك، وحسبنا الإشارة إلى أن الفكر الحديث متجليا في مفكرين من الشرق والغرب، بدأ يعي حقيقة الإسلام، فعرفوا قدره واستخلصوا أسباب قوته وعظمته ودواعي انفراده بالقدرة على توكيد الذات وفرض نفسه على الثقافات دون بقية الأديان الأخرى، ووجدوا أنه يمتاز فيما يمتاز به بسمتين بارزتين متلاحمتين :

الأولى : أنه دين الوحدة والتوحيد.

الثانية : أنه منهاج متكامل للحياة عام وشامل في اتساق وتوازن، وهو بذلك يتسع لكل علم سواء ما تعلق منه بالعقيدة والعبادة والتشريع أو ما اتصل منه بالدنيا وما ارتبط بها من قوانين طبيعية وسنن كونية.

إن نظرة إلى الإنسان والكون والحياة عامة وشاملة جديرة بأن تورث المسلم معرفة كلية وشاملة، ينظر بها إلى الكون على أنه كتاب واحد ذو فصول متعددة متكاملة، وجديرة أيضا بأن توضح له العناصر الأساسية للحضارة الإسلامية التي هي أركان لكل تقدم بشري وهي :

1) **الإنسان** الذي هو سيد الكون وخليفة الله في أرضه، مسؤول عن تعميرها بإنشاء حضارة إنسانية فيها.

2) **الكون** وهو مجال مسخر للإنسان يستغل فيه طاقاته ليكشف عن سنن الله، وينشئ وفق ذلك حياة راقية.

3) **العلم** الذي هو وسيلة الإنسان لضبط نواميس الكون المادية من جهة، وضبط النوازع البشرية من جهة أخرى.

4) الأخلاق القائمة على أساس من الإيمان بالله خالق الكون، وبالقيم الروحية التي هي أسمى ما يصل إليه الإنسان في مسعاه والتي هي عماد الحضارة، بها يكون

15) «الإسلام والمجتمع العصري» للدكتور صبحي الصالح بتصرف.
16) المصدر نفسه.

الإنسان إنسانا فيضمن لنفسه عدم الزيغ في متاهات العلم.
5) العمل الذي بدونه لا يصح إيمان ولا علم.

فتلك أركان للحضارة الإسلامية، وقد تكفل القرآن الكريم بتبيانها في نظرة معرفية عامة وشاملة، فبين أصل الإنسان وحدد مهمته في الحياة والكون، وأثنى على العلم والعلماء وربط كل ذلك بالعمل والأخلاق.

إن الإنسان في هذه الحضارة الإسلامية، وبمعرفته الكلية الشاملة الحقيقية وللوجود والحياة وما وراء ذلك من إله يتفرد بالخلق والأمر انه بذلك كله يبني أرضية صلبة ترتكز عليها شخصيته كإنسان مسلم فيحرر نفسه من أي تبعية أو عبودية، ثم ينطلق بعد ذلك في ميدان البحث العلمي والنظر في جزئيات الكون المادية فيسهل عليه تفسيرها وتعليلها دون خوف من ضياع إنسانيته، أو زيغ في متاهات من الإعجاب والانبهار بالمادة وتركيبها لحد الكفر بخالقها. والتطاول على الإنسانية لهلاكها، كما هو عليه أغلب علماء الغرب اليوم.

خاتمة : يمثل الإسلام بهذه النظرة المعرفية الكلية ثورة فكرية من أجل تحقيق عدالة اجتماعية واقتصادية تجعل منه أقوى عامل يخرج المجتمع الحالي من الرتابة والجمود بما يستطيع تقديمه من حلول، كما يعتبر النظام المعول عليه في إيجاد صيغة اجتماعية وسطى ونظام أصيل متوازن ينسق بين الحاجيات المادية والقيم الروحية وينقذ العالم من مساوئ الإفراط والتفريط. ويوقف وجود هذه الصيغة الحديثة على مجهود علماء الإسلام في إبراز قدرة الدين على مسايرة روح العصر وتلبية مطالب الحياة، وبالتالي على محاولاتهم الجادة لتطوير الفكر التشريعي في إطاره الإسلامي، ولابد لهم في هذا من مراجعة رصيدنا من الشريعة الإسلامية في شؤون الاجتهاد والاستحسان والاستصلاح رعاية لمصالح العباد، وقد قال الأصوليون إن «الأحكام تتغير تبعاً لتغير الأزمنة والأمكنة».

ومن المفيد أن ننبه هنا إلى أن هذا التغير الذي يطرأ على الأحكام الشرعية لا يتنافى إطلاقاً مع ما نسب لهذه الشريعة من عصمة وثبات فجوهرها قائم وثابت على الدوام قد أحكمه الله وأوجب العمل به كتابا وسنة فلا مانع - إذا ما صين جوهرها - من الذهاب إلى تغير بعض الأشكال تبعا لما يعتري الحياة البشرية من تطورات.

وبالإجمال فإن علماء الإسلام حينما يعزمون على إيجاد صيغة جديدة لحياة اجتماعية واقتصادية إسلامية لابد وأن يدركوا حقيقتين :

الأولى : أن الشريعة الإسلامية قد اشتملت على قواعد أساسية ومبادئ عامة ثابتة بنص القرآن والسنة، وعلى تطبيقات عملية مستجدة مع تلك القواعد والمبادئ، فهي بهذه القواعد والمبادئ والتطبيقات ثابتة لا تقبل التعديل أو التطور «إلا ما كان داخلا في اعتبار الناسخ أو المنسوخ أو التخصيص بعد التعميم أو التقييد بعد الإطلاق أو التفصيل بعد الإجمال».

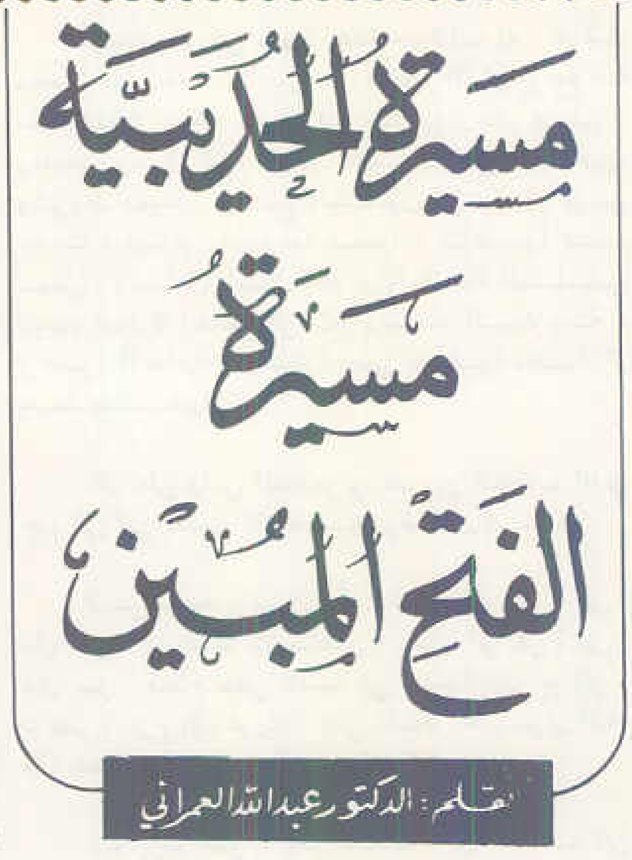
الثانية : أن القرآن والسنة قد سكتا عن أوضاع وأحكام في أكثر فروع الفقه وهو أمر مقصود ليبقى المجال مفتوحا للتطور في الصياغة القانونية حسب ما يستجد في حياة الناس عبر الأزمنة والأمكنة وفي حدود التنسيق بين تلك الأوضاع المستجدة وروح الشريعة الإسلامية المعصومة بمبادئها الأساسية (17).

وقد قال بوجوب مراعاة المصلحة كثير من الفقهاء حينما لم يجدوا دليلا شرعيا واضحا من الكتاب والسنة والإجماع على جواز شيء أو عدم جوازه، وحسبنا السلفي المجدد ابن قيم الجوزية يقول : «الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها» ثم يضيف قائلا : «فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه» (18).

فاس **أحمد بن التهامي التلمساني**

---

17) عن كتاب «الإسلام والمجتمع العصري» بتصرف.
18) أعلام الموقعين عن رب العالمين.



سفراء الرسول الى قريش :

لم تتمكن قريش من التوصل الى راي حاسم في الموضوع ، فتوقفت المفاوضات بعض الوقت . ولكن رسول الله (ص) أراد أن يحركها ، فبعث اول سفير له الى قريش ، كي يبلغها ما جاء المسلمون من أجله ، وكان هذا السفير هو :

خراش بن أمية الخزاعي :

بعثه رسول الله ليخبر قريشا ، ويبلغها مقاصد المسلمين ، ولكنهم عقروا بعيره ، وكادوا يفتكون به ويقتلونه ، لولا ان منعه منهم الاحابيش ، فعفوا عنه ، وخلوا سبيله ، فعاد مكتفيا من الغنيمة بالاياب .

عمر بن الخطاب :

دعا رسول الله (ص) عمر بن الخطاب (ض) ليسفر بينه وبين قريش ، لكن عمر اعتذر قائلا :

— 2 —

« اخاف قريشا على نفسي ، وهي تعرف شدتي عليها ، وليس من بني (1) عدي احد يمنعني ، ولكني ادلك على من هو أعز بها مني : عثمان بن عفان » .

عثمان بن عفان :

دعا رسول الله (ص) عثمان بن عفان بن ابي العاص بن امية (ض) وقال له :

« اخبرهم أننا لم نات لقتال ، وانما جئنا زوارا لهذا البيت ، معظمين لحرمته . معنا الهدى ننحره وننصرف » .

ذهب عثمان لابلاغ الرسالة النبوية ، فلقيه عند مدخل مكة احد اقربائه (ابان بن سعيد بن العاص بن امية) فاجاره الزمن الذي يفرغ فيه من اداء رسالته.

انطلق عثمان الى سادة قريش ، وابلغهم رسالة رسول الله . قالوا له : « يا عثمان ، أن شئت ان تطوف بالبيت ، فطف » . اجابهم : « ما كنت لافعل حتى يطوف رسول الله ، انما جئنا لنزور البيت العتيق ، ولنعظم حرمته ، ولنؤدي فرض العبادة عنده ، وقد جئنا بالهدى معنا ، فاذا نحرناها رجعنا بسلام » . . . اجاب القرشيون بأنهم اقسموا ان لا يدخل محمد مكة هذا العام عنوة . وطال النقاش ، واحتبست قريش عثمان عندها طيلة ثلاث ايام ، فترامى الى مسامع رسول الله ان مبعوثه قتل ، ولم يستغرب المسلمون ذلك ، ولا استبعدوا ان تقتله قريش غيلة وغدرا ، لان كل شيء مستباح زمن الحرب او اشتداد الازمات !

تأزم الموقف ، واصبح لا مناص من الحرب ، فقال رسول الله (ص) : « لا نبرح حتى نناجز القوم » ، ثم دعا الناس الى مبايعته على مقاتلة قريش ، فبايعوه .

(1) بنو عدى : هم قوم عمر بن الخطاب ، فهو ينسب الى عدى بن كعب ، جده السابع .

بيعـــة الـرضـــــوان :

قلق المسلمون على مبعوثهـم اشد القلـق ، وتمثلوا غدر قريش وتعنتها ، واستفظعوا ان تقدم على هذا العمل الشنيع في الشهر الحرام والبلد الحرام اللذين اجمعت اديان العرب على حرمتهما ، وحرمتهما لذا تقاطر المسلمون على رسول الله يبايعونه تحت الشجرة الواحد تلو الآخر ، بايعوه على ان يقاتلـوا عدوهم ، وان يصبروا ويصابروا ولا يفروا ، واتموا المبايعة رجالا ونساء ، فضرب رسول الله احـدى يديه بالاخرى مبايعـا بالنيابـة عن عثمـان .

وقد اثنى الله تبارك وتعالى في كتابه العزيـز على المبايعين حين قال في سورة الفتح) التـي نزلت في طريق العودة من الحديبية : (لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم ، فانزل السكينة عليهم ، واثابهم فتحا قريبا).

واخيرا ، تبين ان الارجاف بمقتل عثمان ، لم يتعد ان يكون اشاعة لا اساس لها ، فهي لا تستند الا الى الظن .. وتبين ان عثمان لا يزال حيا يـرزق ، ولم يلبث ان عاد ، فاخبر رسول الله ان قريشا علمت ان المسلمين جاءوا معتمرين ؛ وانها لا تستطيع منع احد من تعظيم بيت الله ، او الحج ، او العمـرة . وعرفت كذلك ان بعض سفهائها كانوا يرمون المسلمين بالحجارة ليلا ، وان المسلمين تربصوا بهم ، واخذوهم اخذا ، وحجزوهم ، فردهم رسول الله الى قريش . وعرف المكيون ايضا انهم كانوا خرجوا ـ بقيادة خالد ابن الوليد ، وعكرمة بن ابي جهل ـ لقتال المسلمين وصدهم عن دخول مكة ... فاذا ترك المسلمـون ـ بعد هذا كله ـ يدخلون مكة هذا العام ، ظن العرب ان قريشا قبلت مرغمة ، وعدوا ذلك هزيمة منكـرة لا ترضـاهـا قـريش لنفسهـا .

الصلـــــح :

وحلا للاشكال ، وفضا للنزاع ، ولكي تتفـادى قريش ـ وقد سمعت ببيعة الرضـوان ـ نشوب الحرب بينها وبين المسلمين ، اجمعت على المصالحة والموادعة ، فبعثت عنها سفيـرا جديـدا .

سهيـل بـن عمـرو العامـري :

اوفدت قريش سهيلا هذا ، وقالت له : « ائت محمدا فصالحه ، ولا يكن في صلحه الا ان يرجع عنا عامه هذا » . جاء سهيل في عدد من رجال قريش ، وفاوض رسول الله ، وتم الاتفـاق على مبـادىء وشروط معينة . وسمع المسلمون كل ما دار مـن حديث ، فضاقو ذرعا بما سمعوا ، شاهـدوا تشدد سهيل ، وتساهل رسول الله . ولولا ثقة المسلمين بنبيهم ، ولولا ايمانهم الراسخ برسالته السماويـة ، لرفضوا الاتفاقية ، ولقاتلوا حتى يدخلـوا مكـة او يستشهـدوا .

كان على راس المتذمرين عمر بن الخطاب الذي جاء الى ابي بكـر الصديـق وقـال لـه :

اليس محمد برسول الله ؟ اجاب ابو بكر : بلى !
قال عمر : او لسنا بالمسلمين ؟ اجاب ابو بكر : بلى !
قال عمر : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ قال ابو بكر : يا عمر ، الزم (2) غرزك ! فاني اشهد انه رسول الله،
قال عمر : وانا اشهد انه رسول الله ...

ولم يرعو عمر ، ولم يسكت ، بل ذهـب الى رسول الله نفسـه ، واسمعه مثل ما اسمع ابا بكـر ، فأجابه رسول الله (ص) في هدوء وثبات وثقة وعزم: « انا عبد الله ورسوله ، لن اخالف امـره ، ولـن يضيعنـي » .

نصـوص المعاهـدة :

دعا رسول الله علي بن ابي طالـب لتحريـر نصوص المعاهدة وشروطها ، وقال لـه : اكتـب « بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقال سهيل : لا اعرف هذا ، ولكن اكتب « باسمك الله » كما كنت تكتب ، فقال المسلمون : والله لا نكتب « الا باسم الله الرحمن الرحيم » ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اكتب « باسمك اللهم » فكتبها . ثم قال : اكتب « هذا مـا صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو » فقال سهيل : والله لو كنا نعلم انك رسول الله ما صددناك عن البيت ، ولا قاتلناك ، ولكن اكتـب : « محمد بن عبد الله » ، فقال صلى الله عليه وسلم : والله انـي

(2) اي الزم حدودك . يقال : الزم غرز فلان ، اى الزم امره ونهيـه ولا تتعدهمـا .

لرسول الله وان كذبتموني ، ثم قال لعلي : امح رسول الله ! فقال : والله لا امحوك ابدا ، فقال : ارنيه ، فأراه إياه ، فمحاه بيده الشريفة ، وقال : أكتب :

« هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل ابن عمرو : اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض ، على انه من اتى محمدا من قريش بغير اذن وليه ، رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يرده عليه ... وانه من احب ان يدخل في عقد محمد وعهده ، دخل فيه ، ومن احب ان يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه » .

قال سهيل : « وانك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وانه اذ كان عام قابل خرجنا عنك، فدخلتها بأصحابك ، فاقمت بها ثلاثا معك سلاح الراكب : السيوف في القرب ، لا تدخلها بغير هذا ».

اعتبر المسلمون بعض هذه الشروط قاسية ، ولكنهم قبلوها ارضاء لله ولرسوله ، على ان بعض الشروط بدا تنفيذه في الحين ، ونعني الشرط الثالث ، اذ سرعان ما تواثبت « خزاعة » فقالوا : نحن في عقد رسول الله وعهده ، وتواثبت في المقابل « بكر » فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم . اما الشرط الثاني فلم يكد يجف مداده حتى جاء ابو جندل ابن سفير قريش (سهيل بن عمرو) وهو يرسف في قيود قيدوه بها عندما اعلن اسلامه . رآه ابو سهيل ، فقام اليه ، وامسك بتلابيبه ، وصفعه على وجهه ، ثم قال لرسول الله : « يا محمد ، قد لجت القضية بيني وبينك قبل ان ياتيك هذا » . قال رسول الله : « صدقت يا سهيل » ثم خاطب الرسول ابا جندل قائلا : « يا ابا جندل قد تم الصلح بيننا وبين القوم ، فاصبر حتى يجعل الله لك فرجا ومخرجا » .

هنا يعاد نشر الخريطة :

بيد ان ابا جندل كان يصيح قائلا : « اارد الى المشركين يفتنونني في ديني ؟ » ورغم صياح ابي جندل ، رد لقريش عملا بنص وثيقة الصلح ، وتنفيذا لقوله تعالى : (وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر ، الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) .

وخاطب رسول الله ابا جندل مطمئنا : « اصبر واحتسب ، فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، انا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، واعطيناهم على ذلك ، واعطونا عهد الله، وانا لا نغدرهم » ... زادت هذه الحادثة من قلق المسلمين ، وشعورهم بالغبن ، كما زادت عدم رضاهم بالعقد المبرم .

حررت وثيقة الصلح في نسختين ، سلمت احداهما لرسول الله ، وسلمت الاخرى لمندوب قريش سهيل بن عمرو ، فاخذها وانصرف . اما رسول الله ، فقام الى هديه فنحره ، وحلق ، وقام من معه من المهاجرين والانصار فنحروا وحلقوا او قصروا ايذانا باتمام مناسك العمرة ، وان لم يتموها على الوجه الاكمل .

وبعد ايام قضاها المسلمون بالحديبية ، عادوا الى المدينة المنورة ، على امل الرجوع الى مكة في العام المقبل ، وبينما المسلمون في طريق عودتهم تنتابهم الحيرة والارتباك ، نزلت على رسول الله (ص) سورة الفتح :

(انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا ...) فزايل المسلمين كل قلق ، واتضح لهم بعد نظر محمد ، وحسن سياسته ، وحكمته .

قضية ابي بصير :

وما ان وصل رسول الله وصحبه الى المدينة المنورة ، حتى جاءه من قريش ابو بصير عتبة الذي كان محبوسا بمكة ، واستطاع الافلات ... ارسلت قريش الى رسول الله ، تطلبه منه تنفيذا لنص الاتفاقية : بعثت رسالة مع رجلين : احدهما عامري والآخر مولى لبني عامر . امر الرسول ابا بصير بالعودة مع الرجلين . ولكن ابا بصير قال : « يا رسول الله ، اتردني الى المشركين يفتنونني عن ديني ؟ » فاجابه الرسول بمثل ما اجاب به ابا جندل في « الحديبية » : « ان الله سيجعل لك ولمن حولك من المسلمين فرجا ومخرجا ، فاصبر ، وارجع » .

فصبر ابو بصير ، ورجع فعلا مع الرجلين ، ولكنه في الطريق ، طلب من العامري أن يريه سيفه ،

فاراه اياه ، فقتله به ، وفر مولى بني عامر الى رسول الله مستجيرا شاكيا ، فقال له الرسول : ما بـك ؟ اجاب : قتل صاحبك صاحبي ... ثم ما لبث ان قدم ابو بصير متوشحا سيف العامري المقتول ، وموجها الخطاب لرسول الله : « لقد وفت ذمتك ، وادى الله عنك ، اسلمتني الى القوم ، وقد امتنعت بديني ان افتن فيـه ، او يعبث بـي » .

ولم يخف رسول الله (ص) اعجابه بأبي بصير، وتمنى لو كان معه رجال ، ثم خرج ابو بصير متجها نحو مكان يقع في طريق قريش الى الشام على ساحل البحر ، ويعرف باسم « العيص » . ومن هناك صار يعترض تجار قريش . ولم يلبث ان انضم اليه العدد العديد من مسلمي مكة المضطهدين ، بما فيهم ابـو جندل نفسه ، وبلغ عددهم اولا سبعين ، ثم بلـغ ثلاثمائة ، فكانوا يتعرضون لعير قـريش فينهبونها ويقتلون اصحابها ، ما عدا القافلة التي كان فيها صهر رسول الله ابو العاص بن الربيع زوج زينـب ابنـة رسول الله ، فانهم اخذوا ما معهم ، ولم يقتلوا منهم احـدا ، واكتفـوا بأسرهـم .

ازاء هذا الخطر المحدق بتجـارة قـريش ، وبأرواح تجارها ، فكرت قريش في حل هذه المشكلة ولو ادى ذلك الى التخلي عن بعض حقوقهـا التـي تخولها المعاهدة اياها ، فكتبت الى رسول الله تسأله — بالارحام — أن يستعمل نفـوذه ، فيؤوي هـؤلاء الناقمين على قريش . واستجاب رسول الله (ص) فاستدعاهم الى المدينة ، فقدموا مـع اسراهـم ، وامنت قريش على تجارتها وتجارها .

المؤمنـات المهاجـرات :

وهاجرت من مكة الى المدينة فئة من المؤمنات فيهن ام كلثوم بنت عقبة بن ابي معيط ، فخرج اخواها عمارة والوليد يطلبان من رسول الله ان يردها عليهما بحكم صلح الحديبية ، فكان لرسول الله فـي هؤلاء المؤمنات المهاجرات راي آخر مخالف ، اذ ابـى ان يردهن ، وراى ان صلح الحديبية لا يسري عليهن ، لان النسوة اذا استجرن وجبت اجارتهن . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ، فان المراة اذا اسلمت لـم تبق حلا لزوجها المشرك ، فوجب التفريق بينه وبينهـا .. قـال تعالـى :

(يا ايها الذين آمنوا اذا جاءكـم المؤمنـات مهاجرات فامتحنوهن . الله اعلـم بايمانهـن ، فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار ، لا هن حل لهم ، ولا هم يحلون لهن ، وآتوهم ما انفقوا) .

وهكذا نجد ان صلح الحديبيـة كان عمـلا « ديبلوماسيا » رائعا ، بل كان فتحـا مبينـا ، وان اعتناق الاسلام ، وتعزيز جانب المسلمين ، يزدادان كـل يـوم كثـرة وقـوة .

عمـرة القضـاء :

حال الحول ، وحل شهر ذي القعدة من جديد، فاستعد رسول الله والمسلمون لقضاء العمرة ، في جماعة وصل عددها هذا العام الفين، فيهم الكثير ممن لم يكتب لهم الدخول الى مكة في العام المنصرم . اما الذين استشهدوا في الجهاد بعد مسيرة الحديبية ، او ماتوا موتتهم الطبيعية ، فلم يكتب لهم ان يقضوا عمرتهم هذه السنـة ، واجرهـم على الله .

لم يكن رسول الله ليأمن غدر قريش ، لذلـك حمل معه السلاح : الدروع ، والبيض ، والرمـاح ، علاوة على السيوف في اغمادها ... قيل لرسول الله: « لم حملنا السلاح يا رسول الله ، وقد شرطوا علينا الا ندخلها عليهم الا بسلاح المسافر : السيوف فـي قربها ؟ » اجاب رسول الله : « لا ندخل عليهم الحرم بالسلاح ، ولكن يكون قريبا منا » . كانت القيـادة لبشير بن سعد هذه المرة ، واما الفرسان — وعددهم مائة — فكانوا تحت امرة محمد بن مسلمة الانصاري. واستخلف رسول الله على المدينة سباع بن عرفطة ، وساق المسلمون معهم من الهدي ستين بدنة : وتقدم الركب الى ميقات اهل المدينـة : ذي الحليفـة ، فاحرم رسول الله ولبى ، واحرم المسلمون ولبوا ، وامر الرسول بتقدم الفرسان كطليعـة استكشاف ، تسيـر القافلـة في اثرهـا .

سمع المكيون بقدوم المسلميـن ، وبقـرب وصولهم ، فغادر كبراؤهم مكة الى الجبال (التلال) المجاورة ، حيث نصبوا خيامهم ، ومكثوا ينتظرون . وهم فعلوا ذلك تنفيذا لشرط الاتفاقية من جهـة ، ومن جهة اخرى تفاديا من ان يروا طواف المسلمين بالكعبة ، وما قد ينتج عن ذلك من ميـل للاسلام او تعاطـف مـع المسلميـن .

أما بعض المكيين فقد دفعهم الفضول وحب الاستطلاع الى المكوث في مكة ، حيث صفوا انفسهم عند (دار الندوة) ، وظلوا ينظرون — من هناك وعن كثب — كيف يؤدي المسلمون مناسك العمرة ... واقترب المسلمون من مكة ، وبدت لهم معالم المسجد الحرام ، فانطلقوا يلبون في اصوات كهزيم الرعد .

ولم تكتف قريش بهذا ، بل نراها تلجا الى ما يعرف اليوم بحرب الاعصاب او الحرب النفسية (السيكلوجية) ، فاشاعت ان محمدا وصحبه يعانون الشدة والعسرة والعنت . ولكن رسول الله (ص) علم بما تقوم به قريش من اشاعات مغرضة ، او حرب باردة ، فعمل على ابطال مفعولها حينما قال للمؤمنين : « رحم الله امرا اراهم اليوم من نفسه قوة » .

ثم بدا المسلمون طوافهم بالكعبة وهم اشد ما يكونون نشاطا ، فاستلم رسول الله (ص) الحجر الاسود ، وهرول في طوافه ، ففعل اصحابه مثل ما فعل ، واتموا الطواف بالكعبة ، واتموا السعي بين الصفا والمروة ، فنحر رسول الله هديه عند المروة ، وحلق راسه ، وفعل المسلمون مثل ذلك . وتمت ؟ية المناسك ، وتم معها مقام المسلمين بمكة ثلاثا .

زواج ميمـــــــون :

كانت ام الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية — زوجة العباس بن عبد المطلب — موكلة بتزويج اختها التي رات من امور المسلمين ما راقها ، فطابت منحت زوجها هذا الحق ، فانابته عنها في تزويج اختها التي رات من امور المسلمين ما راقها ، فطابت نفسا ، ومالت الى اعتناق الاسلام ، حينئذ اراد العباس ان يفاجىء ابن اخيه (رسول الله) فعرض عليه الزواج بميمونة على صداق يتولى دفعه عنه ، وقدره اربعمائة درهم .

وفي اليوم الثالث من اقامة المسلمين بمكة ، جاء الى رسول الله سهيل بن عمرو العامري ، وحويطب بن عبد العزى — وكان هذا من شهود عقد الصلح في الحديبية — ليطلبا منه مغادرة مكة ، فقال لهما :

« وما عليكم لو تركتموني ، فاعرست بين اظهركم ، وصنعنا لكم طعاما فحضرتموه ؟ » ، وكان رسول الله (ص) بعرضه هذا ، يريد ان يبدد الاشاعة التي بلغتهم عنه من أنه كان يعاني شدة وعسرة ، كما اراد — من جهة اخرى — ان يتالفهم . ولكن رسولي قريش قالا في جفاء وغلظة : « لا حاجة لنا في طعامك ، فاخرج عنا » .

وخرج رسول الله والمسلمون من مكة تنفيذا للشرط المتفق عليه في الحديبية . واخذ الرسول معه اختى ميمونة : سلمى — ارملة عمه حمزة — وعمارة — البكر التي لم تتزوج — وعاد الركب النبوي الميمون الى المدينة المنورة ، فدخلها في شهر ذي الحجة الحرام . وبذلك تمت على خير وجه رؤيا رسول الله ونبوءة كتاب الله العزيز : (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام — ان شاء الله — آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين ، لا تخافون) .

مكاسب المسيـــرة النبويـــة :

بعد استعراضنا للظروف والملابسات التي لابست المسيرة النبوية المظفرة ، والتي تم في اعقابها ابرام صلح الحديبية ، يجدر بنا الآن ان نتعرف على اهم المكاسب التي كسبتها الدعوة الاسلامية الجديدة ، نتيجة لهذا الصلح المبرم .

1 — اول مكسب واهمه نزول سورة (الفتح) بعد ابرام الصلح مباشرة ، وفيها التأييد الكامل لكل ما فعله رسول الله (ص) ، والتعزيز القوي الواضح للدعوة الاسلامية الجديدة .

2 — اعتراف قريش ضمنيا — ان لم يكن رسميا — بأنها انما تفاوض ندا لها ، وتصالح رجلا كفؤا ، وسياسيا محنكا ، وليس مجرد ثائر عليها ، مفند لعقيدتها وتقاليدها .

3 — اقتراف قريش بدين محمد ، فلم يعد هذا الدين بعد صلح الحديبية غريبا ، بل اصبح من اديان شبه الجزيرة المعترف بها .

4 — اعتراف قريش لاول مرة بحق رسول الله وحق المسلمين في اداء فريضة الحج ، واقامة شعائرهم الدينية ، في حرية تامة ، وحماية مكفولة .

5 ـ اقرار الهدنة مدة عشر سنين ، جعل المسلمين يأمنون الد أعدائهم : قريشا التي كانت تهددهم من الجنوب ، وتتربص بهم الدوائر على الدوام.

6 ـ تفرغ المسلمين للقضاء على أعدائهم الشماليين: يهود خيبر ، وفدك ، ووادي القرى . وقد تم بالفعل اخضاعهم جميعا في السنة الهجرية السابعة .

7 ـ تفرغ رسول الله (ص) لمكاتبة الحكام والامراء والملوك والاباطرة ، بما فيهم امبراطور الصين تاي ـ تسوتك (سنة 628 م) ، ودعوتهم للاسلام .

8 ـ فتح مكة ، فقد كان نتيجة نقض قريش لصلح الحديبية ، ذلك ان قبيلة بكر (حلفاء قريش) ، اعتدوا على قبيلة خزاعة (حلفاء رسول الله)؛ فاستنجد هؤلاء به على لسان شاعرهم عمرو بن سالم الخزاعي الذي قال :

لا هم اني ناشد محمدا
حلف ابينا وابيك الألتدا

ان قريشا اخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا

هم بيتونا بـ (الوتير) هجدا
وقتلونا ركعا وسجدا

ثمت اسلمنا ولم ننزع يدا
فانصر ـ هداك الله ـ نصرا ايدا(3)

فقام رسول الله (ص) يجر رداءه وهو يقول : « لا نصرني الله ان لم انصر خزاعة مما انصر منه نفسي » ... وفعلا ، نصر الرسول خزاعة ، فنصره الله ، وكان الفتح المبين ، وكان انتشار الاسلام في شبه الجزيرة العربية ، ثم في خارجها بالسرعة الفائقة التي لم يشهد لها التاريخ مثيلا .

تطوان : د. عبد الله العمراني

(3) نصرا ايدا : اي نصرا قويا ، ماخوذ من آد الرجل يئيد : اذا اشتد وقوي وصلب .



ناظر الوقف..

للأستاذ
محمد بنعبد الله

5

شروط التوثيق (1) في ميدان الوقف :

اول صدقة في الاسلام ، كما يقول المهاجرون ، هي صدقة سيدنا عمر رضي الله عنه .. وقد كتب بها وثيقة وقفية قدم بموجبها بنته مولاتنا حفصة أم المؤمنين حيث عين النظر اليها ، وكتب لها بذلك (2)؛ وقد ذكر نص الوثيقة الوقفية ابو داود في سننه (3)، والخزاعي التلمساني في « تخريج الدلالات السمعية (4) » .. فكانت حفصة أم المؤمنين بنت سيدنا عمر ابن الخطاب أول ناظرة في الاسلام تلتزم بتطبيق ما سجله عمر في وثيقة وقفيته ، والعمل بكل ما تحويه من شروط وقيود تغياها الواقف ، بان جعل وقفه في الفقراء والقربى والرقاب ... فوثيقة سيدنا عمر رضي الله عنه تعد اول وثيقة وقفية امتازت بالدقة والوضوح والضبط والجمع والمنع .

فالوقف ينشأ ، عادة ، بمقتضى حجة شرعية هي الوقفيات ، وكانت الوقفيات تختلف صياغة بين الواحدة والاخرى ، لكنها جميعا ، تلتقي في قواعد وأركان عامة معروفة لدى الموثقين .

من أجل هذا ، فالواقف يحرص ـ كغيره من العاقدين ـ على ان يكون كتاب وقفيته جامعا مانعا ، واضحا مفيدا ، فصيحا بينا . لذا ، فلا يكتب الوثيقة، الا عارف بها ، قدير على ضبطها واحكامها ، عدل في نفسه ، مأمون عليها ، خبير بشروط التوثيق ، لقوله تعالى : « وليكتب بينكم كاتب بالعدل » (5) ، كما قاله مالك (6) ..

والجمهور يرى ان الامر بالكتب ندب الى حفظ الاموال وازالة الريب ، وان كان الغريم تقيا ، فما يضره الكتاب ، وان كان غير تقي ، فالكتاب ثقاف في دينه ، وحاجة صاحب الحق ... قال بعضهم : ان اشهدت فحزم ، وان ائتمنت ففي حل وسعة ، وهذا ما ذهب اليه ابن عطية ، وقال بانه القول الصحيح ..

ولا يترتب نسخ في هذا ، لان الله تعالى ندب الى الكتاب فيما للمرء ان يهبه ويتركه باجماع ؛ فندبه انما هو على جهة الحيطة للناس (7) ..

---

(1) التوثيق او علم الشروط : علم باحث عن كيفية ثبت الاحكام ، الثابتة عند القاضي في الكتب والسجلات على وجه يصح الاحتجاج به عند انقضاء شهود الحال .

(2) فتح الباري ص : 260 / 5 .

(3) مختصر سنن ابي داود ، للحافظ المنذري ، ص : 156 / 4 .

(4) ص : 573 .

(5) سورة البقرة . الآية : 282 ، ومعنى العدل اي بالحق والمعدلة ، اي لا يكتب لصاحب الحق أكثر مما قاله ، ولا أقل .

(6) انظر « المحرر الوجيز » ص : 360 / 2 ، ط : وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، و « المنهج اللائق ، في المدخل لعلم الوثائق » ليوسف بن عبد الله بن سعيد ابن عياد الفقيه المؤرخ ص : 1/9؛ « الجامع لاحكام القرءان » للقرطبي : ص : 384 / 3 .

(7) انظر القرطبي ، ص : 383 / 3 .

والى عهد قريب كان لا ينتصب لكتابة وثيقة الوقف الا الموثقون من العدول، المبرزين في الفقه، المشهود لهم بالثقة والصلابة، والتقوى والتحرز والاستقامة (8)..

ففي « المقصد المحمود، في تلخيص الوثائق والعقود » (9) للصنهاجي (10) مما يجب على الموثق: « يجب على الموثق ان يتقي الله تعالى، فيكتب كما علمه الله، وينتصح فيه لمن استعمله، فيوثق للمحق، ويتحرز من ابطال حق، ويتجنب الالفاظ المحتملة والمجملة (11)، والمبهمة والمشتركة، لاسيما في قطع الدعاوي، ولا يقيد موضع الاطلاق، كما لا يطلق موضع التقييد، لان في ذلك اخلال بالعقود، وتسببا للضرر من دليل لفظ الخبر ».

فموضوع علم التوثيق، تلك الاحكام من حيث الكتابة ... وبعض مبادئه: مأخوذ من الفقه، وبعضها من الرسوم والعادات، والامور الاستحسانية ... وهو من فروع الفقه، من حيث كون ترتيب معانيه موافقا لقوانين الشرع، وقد يجعل من فروع الادب باعتبار تحسين الالفاظ (12). فمدار التوثيق على معرفة الفقه والاحكام، والفهم لمعاني الكلام.

وكانت صور التوثيق تمتاز في العصر الاول بالفصاحة والاختصار المفيد الجامع، والايجاز

---

(8) يحدد ابن جزي في القوانين الفقهية الشروط الواجب توافرها في القاضي بصفة عامة في سبعة، وهي: الاسلام، والعقل، والبلوغ، والحرية، والتيقظ، والعدالة، وعدم التهمة ؛ (« المعيار » للونشريسي ص: 202 – 203 / 10) واما بالنسبة لكتاب الوثائق، فيشترط فيه سبعة شروط ايضا، وهي ان يكون: عدلا. متكلما. سميعا، بصيرا، عالما بفقه الوثائق، عارفا بنصوصها، سالما من اللحن الذي يفسد المعنى وبغيره، وقد اشار المتحف العاصمي ملخصا الشروط الواجب توافرها لمن انتصب لخطة التوثيق والعدالة في قوله:

وشاهد صفته المرعية — عدالة تيقظ. حرية ... الخ الخ

(9) رقم هذه النسخة بالمكتبة الحسنية: 5867 / فقه.

(10) انظر ترجمته في نيل الابتهاج ص: 200. شجرة النور الزكية. ص: 158، وفي « الاعلام » ص: 32 / 5.

(11) لقد نص اهل علم التوثيق على ان الموثق يجب عليه ان يبسط الكلام ما استطاع، ويتجنب الاختصار المجحف، وما سيؤدي اليه بوجه من الوجوه، ولما ابتدا المولى محمد بن عبد الله في عام 1080، برمي مليلية بالمدافع والمهاريز كتب اليه امير دولة الاسبان يقول: « ان عقدنا المهادنة برا وبحرا. وهذا عقد الشروط الذي اتى به كاتبكم الغزال تحت ايدينا، فاجابه المولى محمد بن عبد الله بما محصله: « اننا لم نجعل المهادنة في بر، وانما جعلناها معكم في البحر ». فوجه الامير الاسباني للمولى محمد بن عبد الله عقد الصلح، فاذا هو عام برا وبحرا، فكف عن محاربتهم، وشرط عليهم حمل مدافعه، والمقدمات الحربية في مواكبهم، بعضها لمرسى طنجة، والبعض الآخر لمرسى الصويرة، فقبل الاسبان الشرط، وحملوا ذلك فعلا للمرسيين المذكورتين، وارتحلت الجنود الاسلامية عنهم، كما ذكر ذلك الزياني؛ في « الروضة السليمانية » « والترجمان المغرب » ، « والاتحاف » لابن زيدان » ... وقال الناصري في كتابه: « الاستقصا » ما نصه: « وسمعت من بعض فقهاء العصر، وقد جرت المذاكرة في كيفية الصلح، فقال: « ان الغزال رحمه الله لما اعطى خط يده بالصلح والمهادنة، كتب في نصك ما صورته: « وان المهادنة بيننا وبينكم بحرا، لا برا » .. فلما حاز النصارى خط يده، كشطوا « لام الالف » وجعلوا مكانها واوا، فصار الكلام هكذا: « بحرا وبرا » وكان من حقه ان ياتي بعبارة مطولة مفصلة حتى لا يمكن تحريفها، فيقول مثلا: « والمهادنة بيننا وبينكم، انما هي في البحر، واما في البر، فلا مهادنة، بيننا وبينكم فيه، او نحو هذا من الكلام، فيصعب تحريفه .. (الاتحاف ص: 169 / 3)

(12) كشف الظنون لحاجي خليفة ص: 2/1046.

والوضوح مع الاقتصار على موضوع الوثيقة عن طريق الكتابة التي لها مكانة رئيسية في الاثبات ، لذلك نجد معظم الشرائع انها اتبعت قاعدة الكتابة هي الاصل في الاثبات كما سياتي بيانه في الحلقة الآتية ... وبتفصيل باذن الله ...

والاصل الذي بني عليه علم التوثيق ، وتفرع عنه هو آية المداينة المتقدمة التي هي ارقى واسمى مبادىء الاثبات في العصر الحديث ، وهي قوله تعالى في الديون الآجلة التي تجب لبعض الناس على بعض: « يا ايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل (13) ، ولا ياب كاتب ان يكتب ، كما علمه الله فليكتب ، وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه (14) ... » فامرهم الحق بكتابة ذلك ليكون تحصينا لاموال الطالبين ، ولاديان المطلوبين منهم (15) ، وصكا ليتذكر به عند اجله لما يتوقع من الغفلة في المدة التي بين المعاملة وبين حلول الاجل ، والنسيان موكل الانسان ، والشيطان ربما حمل على الانكار ، والعوارض في موت وغيره تطرا ، فشرع الكتاب (16)، فساد الذمم قد يغري بشهادة الزور ، وتقادم العهد على التصرف قد يندر مع وجود الشهود ، والاهم من هذا وذاك ، انه ثبت من الدراسات النفسية والتجارب العلمية ان قوة ذاكرة الشهود ، وقدرتهم على الملاحظة كثيرا ما تقصران عن استيعاب الواقعة بتفاصيلها ، وادراك الامور على حقيقتها ...

فالتوثيق عن طريق الكتابة يحصل في وقت لا نزاع فيه ، وتقرر فيه الحقائق على طبيعتها ، فعند تقديمها للقضاء تنطق الكتابة بتلك الحقائق التي سبق اثباتها بدون غرض او تحيز او خطا او نسيان ...

فالكتابة — في رحاب التوثيق — كفتها راجحة ، ومتى كانت بعيدة عن التزوير ، فهي ادق اداء ، واكثر ضبطا للواقع ، ثم هي لا يرد عليها النسيان ، فهي دليل هيء مقدما ليحيط بالواقعة المراد اثباتها احاطة شاملة لانها انما اعدت لهذا الغرض (17) ..

وكذلك نقرا الآية التي بني عليها فن التوثيق وهي قوله تعالى : « واشهدوا ذوي عدل منكم (18) » وقوله تعالى : « فاذا دفعتم اليهم اموالهم ، فاشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيبا (19) » وقوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا شهادة بينكم ، اذا حضر احدكم الموت حين الوصية اثنان ، ذوا عدل منكم ، او آخران من غيركم (20) ... »

وقد عقد الامام البخاري في صحيحه : « باب الوقف كيف يكتب ؟ .. » وفي هذا الباب ساق البخاري حديث محمد عن عمر بن شبة عن ابن غسان المدني ، قال : « هذه نسخة صدقة عمر ، اخذتها من كتابه الذي عند ال عمر ، فنسختها حرفا حرفا ، هذا ماكتبه عبد الله امير المؤمنين في « ثمغ » ، انه الى حفصة ما عاشت تنفق من ثمره حيث اراها الله ، فان توفيت ، فالى ذوي الراي من اهلها » .

* * *

وعلم التوثيق يكتسي اهمية بالغة ، واهمية كبرى في رحاب الفقه لحفظ الحقوق ، وضبط المراكز القانونية للاشخاص والاشياء ، ويروي الامام

---

(13) قال بعضهم : « الآية محكمة ، وبعضهم : منسوخة ، وبعضهم محكمة ، وما فيها منسوخ . (انظر احكام القرءان للجصاص ، ص : 572 حتى 580 / 1) .
(14) سورة البقرة ، الآية بتمامها الى قوله تعالى : « والله بكل شيء عليم » ، رقم الآية : 282 ، فالله سبحانه وتعالى امر من عليه الحق بالاملال ، والاملال : اقرار كتابي منه بالحق الذي عليه ، فلو لم يكن الاقرار معتبرا في اثبات الحقوق لما امره الله تعالى بالاملال .
(15) « الشروط الصغير » للطحاوي ص : 1/3 .
(16) احكام القرءان ، لابن العربي ، ص : 1/247 .
(17) السنهوري — الوسيط ، ص : 319 / 2 ، فقرة : 165 .
(18) سورة الطلاق . رقم الآية : 2 .
(19) سورة النساء رقم الآية : 6 .
(20) سورة المائدة رقم الآية : 106 .

الونشريشي (21) ، عن ابن مغيث (22) في اهمية علم الوثائق : « علم الوثائق علم شريف ، يلجا اليه الملوك والفقهاء ، واهل الطرق والسوقة والسواد ، كلهم يمشون ليه ، ويتحاكمون بين يديه ، ويرضون بقوله، ويرجعون الى فعله ، فينزل كل طبقة منهم على مرتبتها ، ولا يخل بها من منزلتها » .

ويقول ابن فرحون (23) : هي صناعة جليلة شريفة ، وبضاعة عالية منيفة ، تحتوي على ضبط امور الناس على القوانين الشرعية ، وحفظ دماء المسلمين واموالهم ، والاطلاع على اسرارهم واحوالهم ، ومجالسة الملوك ، والاطلاع على امورهم وعيالهم ، وبغير هذه الصناعة لا ينال احد ذلك ، ولا يسلك هذه المسالك .. كما ذكر هذا في « المنهج الفائق » .

قال ابن بري : « كفى بعلم الوثائق شرفا وفخرا، انتحال اكابر التابعين لها ، وكان الصحابة رضي الله عنهم يكتبونها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعده .

ونقل لسان الدين ابن الخطيب في كتابه : « مثلى الطريقة ، في ذم الوثيقة » ان الصحابة لم ينقل عنهم ان شاهدا اتخذ حانوتا ، وطلب على الشهادة اجرا ، انما كان الناس يشهدون فيهم ، ويستوثقون بخيارهم وفضلائهم ..

فحكام القضاء الشرعي لا يتقاضون اي اجر او تعويض في بلاد المغرب قديما ، لان هذا محظور في شريعة سيدنا محمد عليه السلام ، اذ لا يحق للقاضي ان ينال اي مرتب كان لقاء قيامه بهذا الواجب ،

(21) المنهج الفائق ، ص : 1/6 ، واحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريشي ، (ت 914 هـ — 1508 م) له : « المنهج الفائق ، والمنهل الرائق ، والمغني اللائق ، في آدب الموثق،واحكام الوثائق» ويدعى ايضا بوثائق الونشريسي وهو في مجموع من ورقة 1 / ب الى : 46 / ب ، اورده بروكلمان في ملحقه ص : 348 / 2 ، وسركيس في معجمه ص : 1924 ، ويوجد بالمكتبة الوطنية بالرباط ، تحت الارقام : 1609 : 1354 ، د . 1610 : 889 ، د . وقد طبع بفاس ، كما الف شرحا على وثائق الفشتالي سماه : « غنية المعاصر والتالي ، على وثائق الفشتالي » بالخزانة العامة قسم المخطوطات (حرف : د . 1354) ترجم له بروكلمان في ملحقه ص : 2/348 ، واورده سركيس في معجمه ص : 1453 ، وقد طبع بمدينة فاس .

(22) محمد بن محمد بن مغيث الصدفي الطليطلي اللغوي الفرضي المحدث يكنى ابا بكر ، روى عن محمد بن ابراهيم الخشني وعبدوس بن محمد، وابن ابي زمنين ، وابى عمر الطلمنكي وغيرهم ، كان من كبار العلماء ، ومقدما في الشورى ذكيا فطنا . يقول محمد بن عمر بن الفخار مرات : « ليس بالاندلس ابصر من محمد بن محمد بن مغيث بالاحكام » ... (انظر الصلة لابن بشكوال ص : 64 / 1 ، والديباج لابن فرحون ص : 40) . له : كتاب « المقنع » في الوثائق ، كما ذكر ذلك القاضي عياض في المدارك ص : 8/146 . وفي نطاق اهتمام المستشرقين الاسبان الذين وجهوا عنايتهم لدراسة فن التوثيق الشرعي عند المسلمين بالديار الاندلسية دراسة للمستشرق الاسباني « سالبادور بيلا » Salvador. VILA الذي انجز دراسة حول كتاب : « المقنع ، في علم الوثائق » لابن مغيث ، وكذلك خابيرا اكيري سابدا Javier Agurre SABDA الذي اخذ على عاتقه ترجمة هذا الكتاب ، وابن مغيث من المولدين الذين اندمجوا في الكيان العربي اندماجا جعل بعضهم يبتدعون انسابا عربية : فمن هؤلاء أسرة بني مغيث الرومي الا صل كما يقول « كولد تسهير » . كما كان للمولدين فضل كبير في خدمة الثقافة العربية ... ومنهم بقي بن مخلد القرطبي ، وابو محمد بن حزم ، وعبد الملك بن سراج القرطبي .. توفي ابن مغيث (459 هـ — 1066 م) .

(23) برهان الدين اليعمري الجياني المدني المولد والدار ، قاضيها وعالمها ، رحل الى مصر والشام وغيرها ، وتولى قضاء المدينة المنورة ، ثم مات في بيت الكراء ، وعليه دين كثير .. له « شرح ابن الحاجب » و « درر الغواص » وهي الغاز في الفقه لم يسبق لمثله ، و « تبصرة الحكام » و « الديباج المذهب ، في رجال المذهب » (799 هـ) . (انظر ترجمته في نيل الابتهاج) .

ولكنهم يعيشون من موارد أخرى : اساتذة ، أو أئمة في بعض الجوامع ، وكذالك بالنسبة للمحامين والوكلاء الذين هم اشخاص جهلة تافهون (« وصف افريقيا » للوزان ص : 253) ط : السعودية .

وحول اطار جامع القرويين بمدينة فاس كانت تقع قديما اشرف المهن ، وهكذا يشغل كتاب العدل حوالي ثمانين دكانا ، بعضها ملتصق بجدار الجامع ، والبعض الآخر ، واقع في واجهته ، وفي كل دكان كاتب عدل (المصدر السابق ص : 239) .

* * *

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من املى كتب المواثيق والعهود ، منها عهده لنصارى ايله بخط علي ابن ابي طالب رضي الله عنه ، كما أجاب فى رده أبو منصور عبد القاهر ابن طاهر البغدادي(24) .

والاوقاف تكثر في مواطن القداسة ، لانها قربات الى الله تعالى اولا وقبل كل شيء .

ولعل اقدم وثيقة تناقلتها المصادر هي تلك التي سجلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتتعلق ببيع مملوكه للعداء بن خالد بن هوذه (25) ، وكذلك وثيقة الوقف الذي وقفه الرسول الكريم على الصحابي الجليل تميم الداري ، وذريته في ارض مدينة خليل الله ابراهيم ، كما رواه ابن عساكر (26)، وصدقة عمر بن الخطاب على الفقراء والمساكين (27)؛ ونقل الغرناطي في وثائقه زوجية الفقيه يحيى بن يحيى ابن كثير بن وسلاس المصمودي من ناحية طنجة الليثي الاندلسي راوي الموطأ ، المالكي (ت : 234 هـ) .

لقد كان الصحابة يكتبون اوقافهم ويوثقونها من طرف كتبة خصوصيين ، فكان زيد بن ارقم ، والعلاء ابن عقبة يكتبان بين القوم في قبائلهم ومياههم ، وفي دور الانصار بين الرجال والنساء كما فى العقد الفريد .

قال القاضي القضاعي في كتاب « الانباء » : كان المغيرة ابن شعبة ، والحصين بن نمير يكتبان

---

(24) كشف الظنون . ص : 1046 / 2 .

(25) انظر « وثائق الغرناطي » ، وكان عليه السلام يحتاط في مكاتبه الرسمية ، فالشيخ زروق يقول في حواشيه على الصحيح : « انما قال صلى الله عليه وسلم في كتابه لهرقل عظيم الروم ، ولم يقل : ملك الروم ليلا يكون تقريرا لملكه » ، وقال الخفاجي في شرح الشفا .. وقال صلى الله عليه وسلم : عظيم الروم ، وعظيم القبط ، ولم يقل ملك الروم ، ولا ملك القبط ، لانه لا يستحق ذلك العنوان الا من كان مسلما ، ومع ذلك فلم يخل بتعظيمهما ، تليينا لقلوبهما في اول الدعوة الى الحق ...

(26) تميم الداري (ت : 40 هـ — 661 م) اقطعه رسول الله ارضا قرب حبرون الخليل من أعمال فلسطين ، وهذه الوثيقة المتعلقة بهذه القصة كتبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لتميم في قطعه ادم من خف أمير المومنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقد وجدت هذه الوثيقة في صندوق ، وقد صارت رثة ، وفيها أثر الكتابة ، ومعها ورقة مكتوبة بخط امير المومنين المستنجد بالله العباسي صورته هكذا : « الحمد لله ، هذه نسخة كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كتبه لتميم الداري واخوته ؛ في سنة تسع من الهجرة بعد منصرفه من غزوة تبوك ، في قطعة ادم من خف أمير المومنين علي بخطه نسخته كهيئة : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما انطا محمد رسول الله لتميم الداري ، واخوته ، حبرون ، والمرطوم ، وبيت عينون ، وبيت أبراهيم ، وما فيهن نطية بت بينهم ، ونفذت ، وسلمت ذلك لهم ، ولاعقابهم ، فمن آذاهم ، آذاه الله (تاريخ الخميس ، في احوال أنفس نفيس » للشيخ حسن بن محمد بن الحسن الديار البكري ، ص : 1/145) (انظر : دراسة قيمة ممتازة عن : « الديار بكري وآثاره ، ولا سيما تحليل كتابه : تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس » في العدد الاخير من مجلة « الدارة » السعودية . ع : 2 — س : 10 — سبتمبر : 1984 بقلم الاستاذ اسماعيل أحمد حافظ ، ص : 153 . وقد اهتم بهذه الوثيقة عدد من المؤرخين العرب ، وتميم الداري اصله من نصارى فلسطين العرب ، وقد استقر بالمدينة في حياة رسول الله بعد ما اعتنق الاسلام . (تاريخ الادب الجغرافي لكراتشكوفسكي ، ص : 53 / 1) .

(27) « التمهيد » ، لابن عبد البر ص : 214 / 1 ، طبعة وزارة الاوقاف المغربية .

المداينات والمعاملات ، قاله ، ايضا ، ابن حزم في كتابه : « جوامع السيرة » .

وفي ترجمة العلاء بن عقبة ، كما في الاصابة ، قرات في التاريخ المصنف للمعتصم بن صمادح ان العلاء بن عقبة والارقم كانا يكتبان بين الناس المداينات والمعاملات ...

وفي زمن التابعين ، قال مصعب ــ كما في طبقات الفقهاء للشيرازي ــ كان خارجة بن زيد وطلحة بن عبد الله في زمانهما يستفتيان ، وينتهي الى قولهما ، ويقسمان المواريث بين اهلها من الدور والنخيل والاموال ، ويكتبان الوثائق للناس (28) ..

ويمتاز النظام القضائي الاسلامي في الاندلس والمغرب بالمشاورين او المفتين الذين يدعوهم القاضي لمساعدته على تلمس وجه الحق في المسائل المعروضة عليه ... وهي افضل من نظام المحلفين الذي ازدهر في القضاء الانجليزي ، ثم اقتبسته الانظمة الاروبية ، ومنها اخذته المحاكم العصرية في المغرب (29) .

كما ان للخاخام اليهودي عدول يوثقون الرسوم والاحكام ويطلقون عليهم اسم : « سفريم » .

ويعتبر الموثق ، اليوم ، من اعوان القضاء ، ومساعده ، يقوم بأعمال تتصل بالقضاء ، ولكنه ليس قاضيا ، فليس عمله الفصل في المنازعات ، وانما معاونة القضاة والمحاكم في ذلك ، وهو في عمله كالمحامي ، والعدل ، وكاتب الضبط ، والمدافع المقبول ، والوكيل ، والخبير ...

فالموثقون هم اشخاص مكلفون بتوثيق ما يطلبه اليهم الافراد من محررات ، فعملهم في طبيعته هو نفس عمل العدول ، الذين يقومون بتسجيل مضمون الشهادات التي يدلي بها الافراد في وثائق تسجل بعد ذلك في سجلات المحاكم بعد أن يوقع عليها القاضي ... بيد ان نظام الموثقين في عهده الحديث نظام اروبي جاءت به قوانين فترة الحماية الدابرة الى المغرب نقلا عن فرنسا .

وكان الموثقون يتقاضون من الدولة راتبا يضاف اليه جزء من صوائر توثيق السندات التي تتحصل من الافراد . على ان نظام الموثقين لم يعمم في كل الاقاليم المغربية اذذاك ، بل ظل التوثيق في اغلب الاحوال والاقاليم من اختصاص كتاب الضبط ...

* * *

لقد اهتم علماء الاسلام بفن التوثيق ، وأعطوه من الرعاية والعناية ما لاءم عقلية العربي العلمية الدقيقة في جميع الميادين ، ولئن كانت شروط التوثيق في رحاب الفقه والقانون قد اخذت حقها من البحث والتمحيص ، فهناك ــ ايضا ــ شروط اخرى لا تقل أهمية عنها ، ان لم تفقها ، هي شروط المحدثين ، فقد ذكروا ان البخاري اشترط في جمعه للاحاديث التي يصححها شروطا تسمى عادة : « شروط البخاري » ، وهذه الشروط تكشف جانبا مهما عن مهارته في نقد الرجال وتعريفهم ، وفي ذلك وضع كتابه : « التاريخ » عند قبر الرسول عليه السلام ، في الليالي المقمرة ، لتمييز الرجال ، ورووا عنه انه قال : « قل اسم في التاريخ ، الا وله عندي قصة » (30) .. كما اشترط مسلم شروطا تخالف بعض الشيء شروط البخاري ، ويسمونها « شروط مسلم » فكلاهما اشترط في الحديث ان يكون اسناده متصلا ، وان يكون كل راو من رواته مسلما صادقا غير مدلس ولا مختلط ، متصفا بصفات العدالة ، ضابطا متحفظا ، سليم الذهن ، قليل الوهم ، سليم الاعتقاد (31) .

ويعيب بعض الجهلاء او المتعنتين من غير الجهلاء على علماء الاسلام كثرة الاعتناء بأسانيد حديث الرسول وغيره ، والاستقصاء في العنعنة والعزو الى فلان عن فلان ، والمبالغة في البحث عن رجال الحديث الذين وصل الى الناس من طرقهم وغير ذلك مما يمل منه القارىء بزعمهم ، وكان بعض يجزي عن كله ..

وهذا القول مردود بتمامه لما في الحديث من الاهمية من حيث انه منسوب الى النبي صلى الله عليه وسلم او الى اصحابه الكرام ، ومن حيث انه هو

(28) التراتيب الادارية ص : 276 / 1 .
(29) علال الفاسي : مجلة « البينة » ، ع : 7 ، س : 1 .
(30) طبقات الشافعية ص : 2/5 . والخطيب البغدادي ، ص : 24 / 2 .
(31) انظر الجزء الاول من مقدمة فتح الباري .

مناط التشريع والمرجع بعد القرءان في الاحكام ، ومعرفة الحلال من الحرام ، فمهما بالغ العلمـــاء في التحري للوصول الى الحقيقة من جهة صحة صدور الحديث عن صاحب الرسالة عليه السلام ، فلا يكون كثيرا ، بل قد راينا ان العلماء قالوا في الحديث انه « علم انطبخ حتى احترق » وانه لم يشتغل طلبـــة العلم في الاسلام بشيء اكثر من اشتغالهم بالحديث، وان التحري واستيفاء شروط الثقة ، قد بلغا فيـــه الدرجة التي ليس وراء مطمع لمزيد (32) ...

* * *

وقد وضعت شروط وقواعد للتوثيق خصوصا فيما يتعلق بالاصول والمبيعات العقاريـة ، وذلـــك حفظا لحقوق الناس ، من الضياع ، وحماية الانفس من الامتهان ، وصون الاعراض من ان ترمـى بالدون والهـــون ، والخـــدش والمهانـــــة ..

والتوثيق . كما سبق بيانه ، من مستتبعـــات الفقه بل هو فرع من فروعه ، وقد نبغت نوابـــغ من علماء الاسلام قدموا لهذا العلم خدمة جليلة ، واهتموا بقواعده ايما اهتمام ، وادخلوا عليه تغييرا بسبـــب اتساع دائرة المعارف والمصالح التـــي اوجدتهـــا المدنية الجديدة ... بالاضافة الى اكتمال نضج فقه الشروط ، فقد نبغ في القرن الثالـــث جماعـــة من العلماء : كبشر ابن الوليد الكندي الحنفـــي (ت : 238 هـ) الذي نقـــل عنه الطحـــاوي في كتابـــه : « الشروط » (33) ، وابراهيم بن خالـــد الكلبـــي البغدادي (ت : 238 هـ) (34) . وهلال بن يحيى بن مسلم البصري الرائـــي من اعيـــان الحنفيـــــة (ت : 245 هـ) (35) وهو اول مـــن صنـــف في الشروط . وعبد الحميد بن عبد العزيز ابي حـــازم القاضي (ت : 292 هـ) . وابى جعفر احمد بن محمد الامام الطحاوي (36) (ت : 321 هـ) الذي الـــف كتابا في اربعين جزءا (37) ، والذي قال في مقدمته : « وقد وضعت كتابي هذا مختصرا في المعاني التي يحتاج الناس الى انشاء انكتب عليها في البياعـات ، والصدقات المملوكات والصدقات الموقوفات ، وفي سائر ما يحتاج الى الاكتتاب فيه (38) » ، وللحاكم

(32) « حاضر العالم الاسلامي » لاميـــر البيان شكيب ارسلان ، ص : 1/51 ، واقرا ما كتبه شكيب ارسلان عن عالم فرنسي اسمه السيد جان نورتـــون كـــرو Jean Norton CRU لكتاب بعنوان: « شهود » Temoins . تحدث فيه عن الدقة والتحري لمعروفة عند الاروبيين لما يسمونـه : التمحيـــــص Critiques . ص : 52 ـ 53 / 1 .

(33) الف الطحاوي في الشروط : « كتاب الشروط الكبيـــر » ، و « كتـــاب الشروط الاوسط » ، و « كتاب الشروط الصغير » ، وقد حقق هذا الاخير الاستاذ « روحي اوزجان » . ط : العاني ، وكان الطحاوي اكثر دقة في الشروط الصغير منه في « الكبير » ، لانه بعد ما استوعب المسائل الفقهية ، وعناصر فقه الشروط ، تطرق الى جزئيات وتفاصيل تعبيريـــة في الصغيـــر ، ورسم الشروط التي تكتب في المعامـــلات الالتزامية مع ذكر الجانب النقلي والعقلـــي فيها ، ويعـــد كتاب « الشروط الصغير » اقوم ما وصل الينا من المؤلفات في فقـــه الشروط الاسلامـــي ، اي التوثيق في المعاملات الالتزامية من العقود وغيرهـــا . والمحاضـــر والسجـــلات .

(34) طبقات الشافعية الكبرى ، ص : 5/146 ، و : 2/74 ، « تاريخ بغداد » ص : 6/65 ، « تذكـرة الحفـــاظ » ، ص : 2/87 ، « تهذيب التهذيب » ص : 118 / 1 .

(35) كشف الظنون ، ص : 2/1045 ، فهرست ابن النديم ، ص : 205 ، « الجواهـــر المضيئـــــة » ص 2/205 ، الاعلام ، ص : 9/95 . « ذكر الجرجاني في ترجيح مذهـــب ابي حنيفـــة : « ان الشروط لم يسبقه اليه احد » .

(36) نسبة الى طحا ، كدحا . (« الكنى والالقـــاب » للقمي ، ص : 2/412) قرية بصعيـــد مصـــر (« الرسالة المستطرفة » ص : 38 ، « ضوابط الاسماء » ص : 69) ابن خلكان ، قال ياقـــوت والسيوطي : انه ليس من « طحـــا » بل من طحطوحة : قرية بقرب طحا ، ولكراهـــة ان يقـــال طحطوحي نسب الى طحا . (معجم البلدان ، ص : 4/22 ، « ولـــب اللبـــاب » ص : 167 ، (ت 321 هـ) انظر الفكر السامي للحجوي ص : 92 ـ 93 / 3 .

(37) كان ابو جعفر الطحاوي وجيه النقد في الشروط والسجـــلات والشهـــادات (لسان الميـــزان ص : 274 / 1) .

(38) الشروط الصغيـــــر ، ص : 4 / 1 .

ابى نصر احمد بن محمد السمرقندي (ت 550 هـ) كتاب في الموضوع ، وقد الف في علـم التوثيـق القاضي جلال الدين الريغدموني الحنفي (ت 493 هـ) وشمس الائمة الحلواني الذي ألف كتابـا سمـاه : البسيط ، وجلال الدين بن محمد العمادي ، وصاحب المحيط برهان الدين عمر بن مازن الحنفي ، وجـده الحاكم الشهيد ، وظهيـر الديـن حسن بن علـي المرغيناني ، وابو بكر احمد بن علي المعروف بالخصاف، ومحمد بن افلاطون الرومي البرسـوي الشهيـر بافلاطون (ت 735 هـ) كان مقدما فيه ...

واستقصى محمد بن جرير الطبري الشروط فى كتاب على اصول الشافعي ، وقد ذكر بعضهم ان ابا جعفر الطحاوي سرق من كتابه ما اودعه في كتابه ، واخبرهم انه من نتيجة اهل الراي ، ثم جاء بعـده شيخ الشروط والمواثيق الامام الاصولي ابو بكـر محمد بن عبد الله الصيرفي الشافعي الذي صنف في ادب القضاء والشروط والمواثيق (39) ..

وممن صنف في الشروط والتوثيق المزنـي ، املى فيه كتابا جامعا ، وابو ثور ، وكتابه فيها مبسوط، وابو علي الكرابيسي ، وبين في تاليفه ما وقع في كتب اهل الراي من الخلل في شروطهم ، وكذلك داود بن علي الاصبهاني ، وشرح في كتابه أصول الشافعي ، وذكر ما عابه على يحيى بن اكثم من الشروط (40) .

وكان فيض الله طرسون زاده احد موالي الروم المشهورين بالفضل الباهر في فن الصكوك والحجج ماهرا جدا ، وجمع فيها صور وقفيات وتمسكات ، وهي دستور العمل عند اهل الروم (41) ..

واقدم كتاب مصري مؤلف في فن التوثيق هو كتاب محمد بن عبد الله بن عبد الحكم (ت 268 هـ) .

كما ان اقدم كتاب اندلسي حول هذا العلم في المائة الثالثة هو تاليف محمد بن سعيـد الموثـق القرطبي دعي « ابن الملون » كما قاله صاحب الصلة (ت 280 هـ) وكان حافظا لـراي مالـك عالمـا بالشروط (42) .. كما وصلتنا وثائق ابراهيـم بن سليمان بن ابى زكرياء الاندلسي (43) (ت : 326 هـ) ووثائق محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة القرطبـي ، لقبه : « البرجون » (ت : 330 هـ) وقد ولي قضاء البيرة بقرطبة ، ومـات بالاسكندريـة (44) ..

وأول من الف في فن التوثيـق من المذهـب المالكي ابن ابي زمنين (45) الاندلسي (ت : 399 هـ) . (1008م) ومن كان خصيصا فى علم التوثيق أيضا بعصره وبلده

---

(39) كان يقال انه اعلم خلق الله بالاصول بعد الشافعي ، وهو اول من صنف من الشافعيـة في علـم التوثيق ، ومن تصانيفه كتاب في الاصول ، و شرح رسالة الشافعي ، وكتاب الاجماع ، (ت 330هـ) (الفكـر السامـي ص : 134 / 3) .

(40) كشف الظنـون ، ص : 1046 / 2 .

(41) « خلاصة الاثـر » للمحبي ، ص : 3/52 .

(42) تاريـخ العلمـاء والرواة لابن الفرضـي ، ص : 14 / 2 .

(43) ابـن الفرضـي ، ص : 24 / 1 .

(44) الديباج المذهب ، ص : 251 ـ 252 ، جذوة المقتبس ، ص : 91 ، ثم ترتيب المدارك للقاضي عياض ، ص : 86 ـ 87 .. 92 / 6 ، ط : وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، « تاريخ علمـاء الاندلس » ، ص : 2/51 ، له : « المنتخب » في الوثائق العداية ، بخط مغربي مبتور الطرفين رقم 2957 ، بخزانة تامكروت الناصرية .

(45) محمد بن عبد الله بن عيسى من اهـل البيرة ، ومن مفاخر غرناطة ، وكبار المحدثين والفقهـاء الراسخين ، له : « تفسير للقرءان » و « شرح المدونة » واختصار لها . ليس في مختصراتهـا مثله ، وله كتاب : « منتخب الاحكـام » ، واختصار « شرح الموطا ، لابن مزين » و « اصول الوثائق » وكتب مهمة ، ولا يبعد عده من المجدديـن فـي قطـره (جـذوة المقتـبس ، ص : 53 ، الديباج : 229/2 ، تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي ، ص : 2/80 ، « الفكر السامي » للحجوي ، ص : 3/124 ، تاريخ قضاة الاندلس ، ص : 110 ، شجرة النـور ، ص : 10 / 1 ، هدية العارفين ، ص : 2/58) . وقد ذكر هذا الكتاب : « منتخب الاحكـام » ابن فرحـون في « الديباج » ص : 270 ، وبركلمان في الملحق ، 1 ، ص : 335 . ورقم الكتاب في المكتبة الوطنية 1730 ، حرف د . وفي آخر الكتاب جوابـا ن عن مسالة تتعلق بالحبس ، أولهما لمحمد العربي ، وثانيهما لابراهيم بن عبد الرحمن الجلالي من ص : 266 الى 270 .

الفقيه الموثق محمد بن احمد الاموي المعروف بابن العطار (46) (ت : 399 هـ — 1009 م) ، له كتاب : « الوثائق والسجلات » الذي اعتنى بتحقيقه ونشره المستشرق الاسباني « بيدرو شالميتا » Pedro CHALMETA وف. « كورينطي » تحت اشراف مجمع الموثقين المجريطي ، المعهد الاسباني العربي للثقافه بمدريد عام 1983 ، وقدم للكتاب وصدره بمقدمة باللغة الاسبانية ، وقد اشتمل الكتاب على نحو 675 صفحة ، ويعتزم المستشرق الاسباني « شالميتا » السير في هذا الدرب لما رسمه لنفسه من دراسة مصنفات الوثائق ، وتحقيق ما يقع بين يديه من امهاتها ، ومن الوثائق الوقفية التي اشتمل عليها الكتاب وثيقة تحبيس (47) ، ووثيقة تحبيس على صغار وكبار ، وان شئت عقدت في الصدر (48)، وباب من فصول الاحباس (49) ، ووثيقة تحبيس خيل او سلاح او حلي ، او دواوين علم ، او مصاحف او ثياب العواري (50) ، ووثيقة في استرعاء عقد حباسة لتقية او لامر يذكره ، ويجوز ان يعقد بهذا في الصدقات والهبات ، وفي العتق والتدبير ايضا (51)، . ووثيقة استرعاء في تحبيس ، واخرى استرعاء في حبس على السماع ، ووثيقة اشهاد بعض الاعيان او الاعقاب على تجديد حبس قد ذهبت شهوده او فقد كتابه (52) ، وتسجيل قاض بحبس يثبت أصله او يثبت بالسماع ، وقد حدث فيه بيع ، والمبتاع يعلم بالحبس او لا يعلم ، والقضاء بالواجب في ذلك كله ، ووثيقة استغلال بحبس ، يكون المحبس حائزه على بنين صغار ، وينفق على مصالح نفسه ، ويوجب فسخ الحبس .. وتسجيل بحبس ثبت أصله ، او ثبت بالسماع ، وقد احدث فيه بيع والمبتاع يعلم بالحبس ، او لا يعلم ، والقضاء بالواجب في ذلك كله (53) .

وقد شرح وثائق ابن العطار محمد بن عمر ابن يوسف القرطبي الذي يدعى ابن الفخار (ت : 419 هـ).

وممن برع ، في الاندلس ، في فن التوثيق احمد بن سعيد بن ابراهيم المعروف بابن الهندي (54) ، وغيرهم (55) .

---

(46) رئيس الموثقين ، كان متفننا في علوم الاسلام ، عارفا بفن التوثيق والشروط ، كما نعته ابن فرحون في ديباجه ، وقد املى فيها كتابا .. عليه عول اهل زماننا اليوم ، وكان يزري باصحابه المفتين ، ويعجب بما عنده الى ان تمالؤوا عليه بالعداوة ، وحملوا قاضي قرطبة ابن زرب على سخطه بجميع انواع الجراح ، وامضاها ابن ابي عامر ، وامره بملازمة بيته ، فناله مكروه عظيم ، وقد رد علي ابن العطار في وثائقه ابن الفخار (المدارك ، ص : 288 / 7) .

(47) ص : 171 . (48) ص : 177 . (49) ص : 3 20 . (50) ص : 206 . (51) ص :232 .

(52) ص : 234 — 235 — 236 . (53) ص : 588 — 595 — 620 .

(54) ابو عمر احمد بن سعيد الهمداني المعروف بابن الهندي احد الفقهاء الموثقين ، اقر له فقهاء الاندلس بتضلعه في علم الشروط ، وكتابه في ذلك مفيد جامع ، يحتوي على علم كثير ، وعليه اعتمد حكام الاندلس والمغرب ، سلك فيه الطريق الواضح ، وتكلم فيه غير واحد بانه عديم المروءة ، كما نعته ابو مروان ابن حيان القرطبي مؤرخ الاندلس باشنع النعوت ، واقسى العبارات ، فذكر ابن بسام صاحب الذخيرة فصولا من انشاء ابن حيان ، يشنع فيها عن ابن الهندي الذي لاعن زوجته، وعوتب في ذلك ، فقال : « اردت احياء سنة اميتت » كما حكاه عن ابن عات (انظر مقالا نفيسا كتبه الاستاذ سيدي عبد الله كنون ، عن : « نقطة ضعف في تاريخ ابن حيان » ص : 305 ، ع: 29، مجلة «المناهل»، وانظر جوابا دفاعيا عن هذه النقطة للدكتور محمود علي مكي ، في مقدمته وتقديمه وتعليقه على كتاب : « المقتبس ، في انباء اهل الاندلس » وذلك في رده في قضية الثلب والوقوع في الاعراض ، ودفاعه عنه في صحيفة : 89 — 96 — 100 — 101) . انظر ترجمة ابن الهندي ، في المدارك ص : 7/146 ، و شجرة النور ، ص : 1/101 . والفكر السامي ص : 3/124 ، والصلة لابن بشكوال ، ص : 19 — 1/20 ، ابن سعيد ، المغرب ، ص : 1/217 ، ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص : 1/172 وقد اختصر وثائق ابن الهندي ابو المطرف عبد الرحمن بن هارون الانصاري ص : 291/ 7 ، المدارك للقاضي عياض : ط : وزارة الاوقاف .

(55) انظر ادوار التوثيق ، وعرض اشهر الموثقين المؤلفين فيه ، مع ذكر وفياتهم منذ أول الاسلام الى عام : 1387 هـ للشريف الاصيل النسيب العلامة المحقق ابي الشتا ابن الحسن الفازي الصنهاجي (ت : 1946) .

ومن علماء الجزيرة الخضراء بالاندلس علي بن عبد الله المتيطي الذي مهر في كتابه الشروط والوثائق ، وقد ألف الوثائق الشهيرة التي تنسب اليه ، وهي : « النهاية والتمام ، في معرفة الوثائق والاحكام » (ت : 570 هـ) (56) .

وقد الف ابو عبد الله محمد بن هارون الكنساني (ت : 750 هـ) « اختصار النهاية والتمام ، في معرفة الوثائق والاحكام » لعلي بن عبد الله المتيطي (57) ، كما اورد بروكلمان في ملحقه ص : 2/374 ، وثائق ابن اسحاق بن عبد الرحمن الغرناطي (ت : 751 هـ 1350 م) (58) .

وقد قيد ابو هارون بن احمد بن جعفر بن عات النفزي الشاطبي المفقود في وقعة العقاب ـ بكسر العين من فضلك ـ من ناحية جيان عام 609 هـ ، طررا على الوثائق المجموعة ، لابن فتوح البونتي (59) الذي جمع فيه امهات كتب الوثائق وفقهها . ولابن القاسم سلمون بن علي بن سلمون الكناني الغرناطي (ت : 767 هـ ـ 1335 م) كتاب في الوثائق عنونه بـ : « العقد المنظم للحكام ، فيما يجري بين ايديهم من العقود والاحكام » (60) .

ومن علماء المغرب الذين الفوا في هذا الفن ، وادخلوا عليه عدة مسائل ، وضمنوا الوثائق احكاما قضائية ، واحتفظوا في وثائقهم بأسلوب الاندلسيين ، تقديرا له وتخليدا لاثره الجميل ، احمد بن يحيى الونشريشي الذي الف شرحا على وثائق الفشتالي (61) ، والزقاق (ت : 912 هـ) له : « تحفة الحكام ، بمسائل الدعاوي والاحكام » والقاضي اليفرني ، وابو الحسن علي ابن يحيى الصنهاجي الريفي منشئا ونسبا ، الاندلسي الجزيري قرارا ووفاة (ت : 585 هـ) الذي الف في الوثائق مختصره : « المقصد المحمود ، في تلخيص العقود» وهو كتاب مفيد جدا ، قال في زوائد التكملة رقم : 2378 : « وكثر استعمال الناس له لجودته (62) » . . وفي خلال المائة الثامنة كتب ابو جعفر احمد بن محمد بن ابراهيم الاوسي المكناسي الجنان ، شرحا على وثائق ابن الجزيري سماه : « المنهل المورود ، في شرح المقصد المحمود » ، ويقع في ثلاثة أجزاء ، وللقاضي ابى عبد الله محمد بن ابى القاسم محمد الفشتالي (ت : 823 هـ) كتاب الوثائق ، كما ان لاحمد الونشريشي (ت : 914 هـ) : « المنهج في آداب الموثق ، واحكام الوثائق » وقد اعطت الاسرة العرضونية في هذا المجال ، عالمها الفذ ابا العباس احمد بن الحسن بن يوسف الشهير بابن عرضون الزجلي صاحب التآليف العديدة (ت:992 هـ1584م)

---

(56) « الفكر السامي » للعلامة السيد محمد الحجوي ، ص : 61 / 4 .

(57) اورده بروكلمان في ملحقه ، ص : 1/661 .

(58) يوجد بالخزانة العامة حرف : د رقم : 1418.

(59) اوردها بروكلمان في ملحقه ، ص : 1/666 ، و ص : 2/960 ، وتوجد نسخة بالمكتبة الوطنية ، حرف : د. رقم : 1700 ، راجع ترجمة المؤلف في الديباج ، ص : 58 ـ 61 . و « المدارك » ص: 8/166 ، ط. وزارة الاوقاف والشؤن الاسلامية بتحقيق الاستاذ البحاثة سعيد احمد اعراب .

(60) توجد نسخ منه بالمكتبة الوطنية حرف : د. رقم : 670 ، وحرف : د. رقم : 1076 ، مخطوط . و 2108 ، د. وهو في مجموع من ص : 1 ـ 219 ، وقد ذكره سركيس في معجم المطبوعات ص : 122 ـ طبع بمصر عام 1301 وسنة 2 130 ، راجع ترجمة هذا المؤلف في « شجرة النور الزكية » لمحمد مخلوف ص : 214 ، وفي الديباج لابن فرحون ص : 125 . . . "

(61) مطبوع بفاس ، والفشتالي من الموثقين المغاربة (ت : 779 هـ ـ 1377 م) ورقم المخطوط في خ. ع. 2108 ، حرف : د ، ذكره احمد بابا في « نيل الابتهاج » ص : 266 ، وسركيس في معجمه ص : 1453 ، طبعت على الحجر بفاس عدة مرات .

(62) « العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين » ، ص : 57 ، للعلامة المحقق سيدي محمد المنوني ، وقد شرحه احمد بن ابراهيم الاوسي الجنان ، من شيوخ مكناسة ، في اسفار ثلاثة ، وسماه : « المنهل المورود ، في شرح المقصد المحمود » فاربى على الاجادة ، بيانا وافادة ، وقد قال ابن الخطيب الذي لقيه عام 761 هـ في « نفاضة الجراب » : « ناولني اياه ، واذن في حمله عنه » (الاتحاف ، ص : 322 ـ 223/ 1) .

والذي له : « اللائق ، في علم الوثائـــق » (63) ، ويوجد في المكتبة الوطنية : « التقييـــد الابي ، في علم الوثائق » وهو لبعض علماء مراكش ، الفه حوالي عام : 1182 هـ (64) ، وغيرهم كثير (65) .

❋ ❋ ❋

هكذا تكونت هذه الثروة الفكرية في رحـــاب الفقه ، ومن مجهود رجال القضاء والافتاء والتوثيــق او بواسطة القاضي الموكول اليه ذلك من مصـــدر التشريع تكونت كتب النوازل والاحكام التي لا نعرف وجود مثلها في اي قطر آخر من اقطـار الاسلام على الشكل الذي هي موجودة عليه في بلاد المغرب ، فقد نبغ المغاربة في الفقه الاسلامي اكثر مما نبغـــوا في غيره من العلوم ، وادخلوا على انظمته من التحسينات والتنقيحات ما لم يفعله غيرهم من العلماء المسلمين الامر الذي جعل الفقه الاسلامي ممثلا كاملا لذهنية المغاربة ، وظواهرهم الاجتماعيــة (66) ؛ وكانـــت فتاوي الفقهاء ، واحكام القضـاة هي المصدر المباشر لاوامر السلطة ، وهذا هو السر في كـــون الفقــه الاسلامي لم يدون في شكل بنود كالقوانين العصرية، لان احكامه كانت تتبع نوازله سواء في عهد الوحي ، او في عهد الميزان الذي هو اجتهـــاد الفقهـــاء في استنبـــاط الاحكـــام مـــن الادلـــــة (67) .

ولقد عرف الموثقون بالنزاهـــة والائتمـــان والاستقامة في مختلف الاعصار والامصار ، والبقاع والرقاع .. فان الناس يطمئنون اليهم ، ويلـــوذون بتوثيق مصالحهم ، ويستودعونهـــم مـــن الاعـــلاق والنفائس ، ويضعون بين ايديهم من الاموال والاسرار الغزار ما ترتاح لهم نفوسهم وافئدتهم ، لذلك كانوا ، دائمـــا محـــل التقديـــر والاجـــلال (68) .

❋ ❋ ❋

(63) وهو في مجموع من ورقة 17/ب الى : 89/د ، ذكره الكتاني في « سلوة الانفاس ص : 2/268 ، واورده بروكلمان في ملحقه ص : 2/693 ، وسـركيس في معجمه ص : 180 (حرف : د رقـم : 1090) المكتبة الوطنية الرباط . وانظر البحث القيم الذي كتبه الدكتور عمر الجيدي بمجلة (دعوة الحق) بعنوان : « علم التوثيق في المغرب و الاندلس » ... واحمد هذا هو اخ لابي عبد الله محمد ابن عرضون ، وارث العلم لا عن كلالة ، كما حلاه العلامة الاديب ابو العباس المقري ، وكتاب احمد طبع على الحجر بفاس عدة مرات ، كما طبع مرارا على الحروف بمدينة تطـــوان عـــام 1953 . (انظـــر ترجمتــــــه فـــي « شجـــــرة النور الزكية » ص : 286 ، و « الابحاث السامية » للفقيه محمد المرير ، وكذلك في «ازهار البستان» لاحمد بن اعجيبة ، و «جذوة الاقتباس» لابن القاضي).

(64) مكتوب بخط مغربي تحت حرف : د ، رقم : 756 .

(65) انظر « صناعة التوثيق في العهد النبوي » ص : 1/155 ، و 3/144 ، و 3/148 لمحمد الحجوي، الفكر السامي . وانظر « شرح الزقاقية » لاحمد بن محمد بن محمد بن عبد الواحـــد بن علـــي الونشريشي رقم : 5 ــ 6 . مخطوط تحت رقم : 889 حرف : د ، وانظر : « المنهـــج الفائق » للونشريشي ص : 5/ط : حجرية ، « واللائق لمعلم الوثائق » لابن عرضون ص : 1/3 : تطوان، وانظر ايضا : وثائق الغرناطي ص : 3/ط : فاس . و « الفائق ، في الاحكام والوثائق » ، في سبعة اجزاء ، لمحمد بن راشد البكري القفصي .

(66) « دفاع عن الشريعة » للاستاذ سيدي عـــلال الفـــاسي ، ص : 12 .

(67) المصـــــدر السابـــــق ، ص : 129 .

(68) مما يعتلج في الصدر ، ويستوقد الضلوع ، انه في عهد الاستعمار الدابر ، وقع في ذلك الحين ان المراقب المدني : « ينوط » ، وخليفته : « كوزيني » . في ناحية « تازة » آخذا بمزقان الوثائـــق والرسوم العدلية المكتوبة باللغة العربية . اذا ادلي بها المتداعيان ، او احدهما ، وقبل ذلـــك ، وقع في عدة جهات اخرى حتى اصبحت رسوم الزواج نفسها تسجل باللغة الفرنسية ... وقـــد صدرت المنشورات المقيمية التي تعرض على اعضاء المحاكم العربية استعمال اللغة الفرنسية في جميع الوثائق والمستندات ... وقـــد صرح المحامي « بيكار » في جلسة عقدتهـا اللجنـــة المكلفة بدرس نظام لعدليـــة البربريـــة بتاريخ : 1930/2/26 ، ان اعضاء هذه اللجنة متفقـــون جميعا على عدم تسجيل احكام المحاكم العرفية باللغة العربية !! ؟ (دفاع عن الشريعة ص : 163)

بيد ان العالم الاديب الموسوعي لسان الدين ابن الخطيب تحامل على الموثقين ، ومد فيهم قلمه ، وسلقهم بالسنة حداد ، فالف فيهم كتابا ذكر فيه عيوبهم ، وعدد مثالبهم وجهلهم وغباءهم ، واسماه : « مثلى الطريقة ، في ذم الوثيقة » ...

وقد راى القاضي عياض بخط الامام الحافظ سيدي احمد الونشريشي رحمه الله على ظهر كتاب ابن الخطيب الآنف الذكر ، والذي ذم فيه الموثقين .. ونص ما الفاه بخط الونشريشي : « الحمد لله ، جامع هذا الكلام المفيد هنا باول ورقة منه ، قد كد نفسه في شيء لا يعني الافاضل ، ولا يعود عليه في القيامة ولا في الدنيا بطائل ، وافنى طائفة من نفيس عمره في التماس مساوىء طائفة ، بهم تستباح الفروج ، وتملك مشيدات الدور والبروج ، وجعلهم اضحوكة لذوي الفتك والمجانة ، وانتزع عنهم جلباب الصدق والديانة ، سامحه الله ، وغفر له .. قال ذلك ، وخطه بيمنى يده عبيد ربه احمد بن يحيي ابن محمد بن علي الونشيريشي ، خار الله سبحانه له (69) .

❊ ❊ ❊

تلك ملامح عابرة من تاريخ علم التوثيق في الفقه الاسلامي الذي تزخر به المكتبات العربية والاسلامية ... واولئك هم علماؤه الافذاذ الذين افنوا اعمارهم الخالدة ، وتركوا ثروة زاخرة ، وآثارا باقية علمية في غرة الزمان تشهد لهم بالفلج والتفوق.

ويشتمل كل كتاب وثائقي ، في رحاب الفقه على طرز ونماذج للوثائق الوقفية تضم آراء علماء التوثيق في موضوع الوقف ، مما يكتب له ، ان جمع، وجود علمي ، وحضور تاريخي ، قائم الذات في ميدان التوثيق الوقفي ..

لقد كانت هذه الوثائق تمتاز بالسلاسة والبلاغة، وسلامة اللغة ، وعلو النفس ، ثم فسد الاسلوب ، وامتاز بالحشو والتطويل ، وغلبت عليه العجمة ، وبعد عن السليقة العربية ، وتفرع عن ذلك اسلوب قرارات المحاكم ووثائقها ، فمالت الى التطويل الذي لا داعي له ، والتكرار الممل على ما فيها من الركاكة والضعف حتى صار يضرب بها المثل ، فمن رأى رسالة طويلة ، زادت عن حدها ، قال : « انها ليست رسالة ، ولكنها حجة شرعية » ..

وكانت الحجج تكتب على ورق سميك ، وتلف لفا ، تبدو معه كأنها قنبلة ، او عصا غليظة تهشم راس قارئها ، كما وصفها الشيخ علي الطنطاوي في احدى حلقاته المتعة الرائعة ...

لقد قلنا فيما سبق بأن الوقف ينشأ عادة بمقتضى حجة شرعية هي الوقفيات ، ولدى استعراضنا للوثائق الوقفية ، يتبين لنا انها كانت تحتوي على الاركان الاساسية ، والعناصر التالية ، مع اختلاف ، من حيث الاسهاب والاختصار بين الواحدة والاخرى ...

اولا : مقدمة يذكر فيها فضل الوقف وثواب الواقفين ويحدد فيها اسم الواقف والدافع الى الوقف

ثانيا : ذكر العقارات الموقوفة على مدرسة « كذا » وذكر مواقعها وحدودها ، وانواعها ، وتفاصيل دقيقة عن مشتملاتها .

ثالثا : تفاصيل مختلفة عن المدرسة وجهازها التعليمي ، المدرس ، او الشيخ ، وسائر العاملين

---

(69) « ازهار الرياض ، في اخبار عياض » ص : 2/297 ، نشر في خمسة اجزاء بتحقيق : مصطفى السقا ، وابراهيم الابياري ، وعبد اللطيف شلبي ، القاهره عام 1941 ، واعادت وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية طبعه بطريق«الاوفست». وكان الشيخ عبد الحي الكتاني قد وقعت اليه نسخة من رسالة ابن الخطيب : « مثلى الطريقة ، فى ذم الوثيقة » بخط العلامة ابى عبد الله محمد بن الطيب القادري الفاسي ، وهي في نحو كراسين تتبعها الكاتب المذكور مرة بالنقد ، ومرة بذكر النظائر والمماثلات ، وذكر انه نقلها من خط الونشريشي (التراتيب الادارية ص : 1/277) .
« ومثلى الطريقة ، في ذم الوثيقة » نشرت في : « مجلة معهد المخطوطات العربية » بالقاهرة ، مج : 12 ، ج : 2 . نوفمبر 1966 بقلم : عبد الحفيظ منصور ، انظر نفح الطيب ص : 6/278 ، وطبعتها ، ايضا ، « دار المنصور ، للطباعة والوراقة » ـ الرباط : 1973 ، للاستاذ عبد الوهاب بنمنصور ...

فيها ، والشروط التي ينبغي ان تتوفر فيهم ، وواجباتهم ، وطلبة المدرسة ، وعددهم ، والشروط التي ينبغي ان تتوفر فيهم ، والواجبات التي عليهم القيام بها ، وفي سياق ذلك تحدد الوقفية بشكل ما مواضيع الدرس ، ومنهاج الدراسة .

رابعا : مرتبات العاملين في المدرسة ، وكيفية دفعها والعملة التي تدفع بها ، والمؤن التي تصرف كجزء من المرتب او في مناسبات الاعياد ... وكذلك مخصصات الطلبة من خبز ، ودراهم ...

خامسا : تعيين ناظر على الوقف ، وبيان واجباته في العناية بالوقف وصيانته واستغلاله والانفاق من ريعه على المدرسة والعاملين فيها . وغالباً ما كانت الوقفيات تشترط ان يكون النظر للواقف في حياته ، ثم لاحد اولاده واحفاده من بعده.

وكان تنفيذ شروط الوقفية بدقة ، امر ينبغي مراعاته ، ويشرف عليه الجهازان الاداري والقضائي (70) ...

— لقد كانت الوقفيات العلمية ، مثلا ، تتضمن معلومات مفصلة ، وشروطا دقيقة تتعلق بقبول الطلاب ، وبمنهج التدريس ، وتذكر الموضوعات ، بل والكتب التي كان على الطلاب ان يدرسوها ، كما تحدد الواجبات التي كان يترتب على الطلاب ان يقوموا بها ...

— وان علاقة ناظر الوقف ، بالوثيقة الوقفية، خصوصا ، علاقة متينة ، اسسها الفقه الصحيح ، والبصر النافذ ، والفهم النير ، ودعامتها تطبيق ما تتضمنه الوثيقة ، اذ هو المعني بدراستها وتطبيقها ، بل وكتابتها احيانا ان دعت لحاجة ، واقتضى الحال، حتى يتسنى له ان يحمي حقوق ورغبات الواقف ، من التلاعب والازورار ، وتحريف الكلم عن مواضعه مما يؤدي الى التعطيل والتفويت ، والتمريض والتمويت.

وفيما يلي نقدم ثلاث نماذج لوثائق وقفية ، كيف تكتب ؟ وكيف تكون صياغتها الدقيقة ، ومراعاتها الاحتياطية الواضحة .. الجامعة المانعة ، مكتفين بهذا القدر فيما يلي :

بعد البسملة ، وحمد الله تعالى ..

اشهد فلانا انه وقف وحبس وابد ما سياتي ذكره ، الجاري بعد ذلك في يده وملكه وتصرفه وحيازته ، واختصاصه الى حين صدور هذا الوقف والثابت له بحجة رقمها كذا .. والمنجز اليه بالارث من والده . وذلك جميع المحدود بكذا .. وقفا صحيحا شرعيا وحبسا صريحا مرعيا ، لا يباع ولا يوهب ولا يورث ولا يرهن ، ولا يملك ولا يستبدل الا بمثله اذا انعدمت منافعه بمحله مبتقيا فيه رضا الله تعالى ، ومتبعا فيه تعظيم حرمات الله ، لا يبطله تقادم دهر ، ولا يوهنه اختلاف عصر كلما مر عليه زمان أكده ، وكلما اتى عليه عصر اظهره واثبته .

انشأ الواقف فلان — اجرى الله الخير على يديه — وقفه هذا على كذا .. على ان الناظر في هذا الوقف والمتولي عليه يبدأ من ريع الوقف بعمارته وترميمه واصلاحه لابقاء عينه وتحصيل غرض واقفه ، ونمو غلته ، وما فضل بعد ذلك يصرفه لمصارفه المعينة اعلاه ، وهي كذا .. يبقى ذلك أبد الآبدين ، ودهر الداهرين الى ان يرث الله الارض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

ومآل هذا الوقف عند انقطاع سبله وتعذر جاهته الى الفقراء والمساكين من امة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

وشرط الواقف المذكور النظر له في وقفه هذا، والولاية عليه لنفسه مدة حياته ، يستقل بها وحده لا يشاركه فيها مشارك ، ولا ينازعه فيها منازع ، وله ان يوصي به ويسنده الى من يشاء ثم من بعد وفاته لولده فلان ... او للارشد من اولاده وذريته وعقبه من اهل الوقف المذكور ، فان انقرضوا عن آخرهم ولم يبق منهم احد كان النظر لفلان ..

وشرط الواقف المذكور ان لا يؤجر وقفه هذا، ولا شيء منه لاكثر من سنة فما فوقها ، وان لا يدخل المؤجر عقدا على عقد حتى تنقضي مدة العقد الاول، ويعود المأجور الى يد الناظر وامره .

اخرج الواقف هذا الوقف عن ملكه ، وقطعه من ماله ، وصيره صدقة بتة بتلة مؤبدة جارية في الوقف

(70) مؤسسة الاوقاف ، ومدارس بيت المقدس ، للدكتور كامل جميل العسلي .

المذكور على الحكم الشرعي المشروح اعلاه ، حالا ومالا ، وتعذرا وامكانا ، ورفع عنه يد ملكه ، ووضع عليه يد ناظره وولايته .

وقد تم هذا الوقف ولزم ونفذ حكمه ، وابرم وصار وقفا من اوقاف المسلمين ، لا يحل لاحد ان ينقض هذا الوقف ، او يغيره ، او يفسده ، او يعطله بأمر ، ولا بفتوى ، ولا مشورة ولا حيلة ، وهو يستعدي الله عز وجل على من قصد وقفه هذا بافساد او اعتداء ، ويحاكمه لديه ويخاصمه بين يديه، يوم فقره وفاقته ، وذاته ومسكنته ، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ، ولهم سوء الدار .

وقبل الواقف المشار اليه ما له قبوله من ذلك قبولا شرعيا ، واشهد على نفسه الكريمة بذلك ، وهو بحال الصحة والسلامة والطواعية والاختيار ، وجواز امره شرعا (71) .

حرر ذلك بتاريخ كذا ...

والنموذج الثاني ، هو تحرير وثيقة وفقية لاشهاد شخص بانه حبس نسخة من القرءان الكريم على مسجد ، ليقرا فيها القرءان ، وهذه الوثيقة تمتاز في تحريرها بالضبط والاحكام ، والوضوح والبيان والاقتصار على موضوع الوثيقة .. وهذا نصها : « الحمد لله وحده ، اشهد فلان الفلاني انه حبس الربيعة ، واجزاء القرءان العشرة او الاثنى عشر التي بداخلها المكتوب التحبيس المذكور على اول ورقة من جزئها الاول على مسجد كذا (72) ، شرفه الله بدوام الذكر فيه ، ليقرا كل يوم في الاجزاء المذكورة في المسجد المذكور في اذان العصر ، او عند الزوال، او غيره ، او يوم الجمعة بعد الصلاة ، او قبلها حسبما جرت به العاده بقراءة ذلك في المسجد المذكور حبسا مؤبدا (73) ووقفا مخلدا ، الى ان يرث الله الارض ومن عليها ، وهو خير الوارثين ، ومن بدل او غير ، فالله حسيبه (74) ومتولي الانتقام منه (75) ، « وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون » (76) ..

وشرط المحبس المذكور ان ينتفع بها في داخل المسجد المذكور ، ولا تخرج منه الى غيره . وبسط يد امام المسجد المذكور ، وهو فلان عن حوزها ، فحازها من يده معاينة ، وجعلها في خزانة المسجد المذكور ، دخر (77) الله له اجر ذلك ، وجعله من الاعمال المقبولة يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم ، عرفا قدره (78) ، شهد به عليهما باكمله وعرفهما ... وفي كذا (79) ..

ومما على ظهر الكتب من التحبيس من غير شهادة ولا توثيق ، انه لا يعمل عليه حتى يثبت بشهود ، او يثبت انه خط الواقف ، فاذا وجد كتاب مكتوبا في اوله ، او على بعض اوراقه : « حبس » او « حبس على من فيه اهلية لقراءته » فذلك محض زمام ، لا يعول عليه ، لا يعتبر به الكتاب حبسا ممنوعا من البيع مثلا ، وانما يصير حبسا :

1 ــ اذا ثبت تحبيسه باشهاد عدلين او بأن الخط المكتوب فيه هو لمالكه فلان .

2 ــ وثبتت حيازته عن المحبس .

3 ــ وملكية المحبس للكتاب ، كذا ذكره صاحب المعيار في الكراس الرابع من نوازل الاحباس، ونظمه صاحب « العمل المطلق » بقوله :

---

(71) « منهاج المسلم » لابي بكر جابر الجزائري ، ص : 367 ــ 368 ، ط : 8 .

(72) تسمية المحبس عليه في الوثيقة هي من اركانها ، ولكنها اذا خلت منها الوثيقة ، فلا تبطل ، ويكون الحبس مصروفا الى الفقراء والمساكين كما قاله البرزلي .

(73) اي ينتفع به الناس في المسجد المذكور ما دام موجودا ..

(74) ان محاسبه وكافيه ، وكفى بالله حسيبا . (القرطبي) .

(75) على تبديله لشكل الحبس ، او على ادخال تغيير فيه .

(76) تهديد ووعيد للظالمين عموما .

(77) بفتح الخاء ، مثل : ادخر ، اي خبأ ، واعد .

(78) اي المحبس ، والحائز منه المذكور .

(79) اي وقت الساعة من يوم كذا (التداريب على تحرير الوثائق العدلية للشريف الصنهاجي (ت : 1946) ص : 2/592 ، وانظر ايضا : الصفحات : 589 الى 606 من المصدر السابق .

وما على ظهر كتاب يوجـــد
من رقم تحبيس ، بلا من يشهد
ليس بعامــل ، الى ان يعلمــا
الوقف بالشهود ، او يثبت مــا
يفيد : ان الخط للمجلس ،
وملكه الاصل ، وحوز الحبس (80)

* * *

بل ان بعض الواقفين يتشددون في توثيق وقفياتهم ، وذلك بأن يستدعوا الى بيوتهم بعد كتابة الوقفية ، صدور العلماء ، واكابر القوم ، واعيان البلد ، وعلية الامة ليؤكدوا ، امامهم ، وليشهدوهم بما جاء في وثيقة الوقف بان لا تحرف ، ولا تبدل ، ولا تفسر ، ولا تفوت ، ولا تعوض ، وذلك ما فعله المحسان الكريم المرحوم السيد الحاج ادريس بن الحاج محمد البحراوي الرباطي الذي وقف قصره الرائع الانيق على الحديث والقرءان حيث استدعى الى هذا القصر كبار العلماء ، وصدور الامة ، وخريجي دار الحديث الحسنية والطلبة ، ووجهاء العدوتين ، وبعض السادة الوزراء يتقدمهم وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية السابق الفقيه السيد الحاج احمد بركاش حيث اقام صاحب القصر حفلة كبرى سلم اثناءها وثيقة الوقف للوزير المذكور، وقال كلمته المؤثرة البليغة ، بصوت متهدج ، وفؤاد متاجج ، والدموع تموج في عينيه ، وتجول في مآقيه، ثم تنحدر على خديه ، وتتخلل حباتها الباردة شيبة الحمد : « انني احبس هاته الدار على القرءان والحديث . ولا اريد ان تكون في المستقبل الا لهاته الغاية ، ولا تحول الى اية غاية اخرى ، بحيث تركت الحق للورثة بالرجوع في هذا التحبيس ، فيما اذا اريد تحويلها عن غايتها » .

وقد اجابه الوزير المفضال الفقيه السيد الحاج احمد بركاش بتأثر بالغ ، وانفعال مثير ، وهو يتسلم مفاتيح دار الحديث الحسنية ، بيد الشكر والتقدير ، وقال : « انني جئت مرسلا من قبل صاحب الجلالة الملك المعظم جلالة الحسن الثاني حفظه الله لاتسلم الدار ، وانه يعدكم بأن الدار ستبقى موقوفة على القرءان والسنة والحديث ، ولا تتحول الى اي هدف آخر ، الى ان يرث الله الارض ومن عليها ، وهو خير الوارثين » .

وبالمناسبة فقد وجه المرحوم مفتي طرابلس الشام وعالمها الكبير الفذ ، الشهم الابي الشيخ السيد نديم الجسر قصيدة يشيد فيها بمكرمة السيد الحاج ادريس البحراوي الذي وقف قصره لدار الحديث ، يقول فيها :

يهنيك يا ادريس يا بحر الندى
فضل وايثار وبذل وهدى
والمجد مجد كله ، لكن اذا
كان لوجه الله فهو المرتضى
وخير ما تنفق من اموالنا
ما كان محبوبا ، بذا الوحي اتى
والدار للسكنى على قلب الفتى
في هذه الدنيا اعز ما اقتنى
في حب خير الخلق قد حبستها
وقفا بها يتلى حديث المصطفى
يبني لك الله بها من فضله
بيتا من الجنة مرفوع الذرى
جعلتها دار حديث ، عملا
بقول ذاك الشاعر السامي الحجا
وانما المرء حديث بعده
فكن حديثا حسنا لمن وعى

كما انشد فضيلة العلامة الاديب بالطبع ، الشيخ الاستاذ ابو بكر بن احمد بناني الرباطي حفظه الله ابياتا بمناسبة تاسيس دار الحديث الحسنية امام بعض اصدقائه ومريديه في يوم 19 رمضان 1388 جاء فيها :

ارى « علم الحديث » غدا ينادي
على من كان فيه له درايه
اغثني ، فالحديث له « انقطاع »
و «ضعف» لا «تناط» به الرعايه
فلا شيخ لنا يروي حديثا
« باسناد » تصح به « الرواية »
وابقاني الزمان امام قوم
غدوا يمشون في طرق العماية
فلا علم ولا دين متين
ولا فكر يجيد به الرمايه

(80) العمل المطلق للسجلماسي الرباطي ، ص : 124 / 1 ، ملزمة : 31 / 1 .

فنرجو الله للتحديث قومـــا
باسناد الحديث لهم عنايـــه
وفي دار الحديث لنا رجـــاء
تخرج من تتـم به النهايـــه

ولاخينا المجاهد الفقيه الاديب الاستاذ السيد محمد الكبير البكري قصيدة يهنىء فيهـا المحسن الحاج ادريس البحـراوي بجعـل قصـره « دارا للحديـــث الحسنيـــة » :

ان كان للحب آثار مخلـــدة
فالبحراوي له في الحب آثـار
ابشر ابا بحروي ، قد رزقت هدى
والله يكرم من يشا ويختـــار
ابصرت نور الحديث فاهتديت به
وللاحاديـث انـوار وأسرار
لما اهتديت به ، احببت صاحبه
محمدا من به يعتز الابـــرار
صلى عليه الاه العرش ما طلعت
شمس ، وما نبتت في الروض ازهار
وقد دعتك محبة الرسول الـى
اهداء دار ، وما ادراك ما الدار
اعطيت دارك كي يتلى الحديث بها
وآية الحب : اعطاء . وايثـار
فصارت الدار دارا للحديث ، وفي
كل العصور له أهـل وانصـار
فلتطمئن فان ذي التجارة لـن
تبور ، قد وردت بذاك اخبـار
وليهنأ المحسنون طرا أن لهـم
جنات عدن بها حـور واثمـار
وليهنأ المخلصون طرا ، انهـم
تحط عنهم يـوم الحشر اوزار

* * *

وعود على بدء ، فقد نظم المولـى محمد بـن عبد الله نظام العدلية المغربيـة ، وضبـط نظـام التوثيق بها ، يقول في ظهير منشور ، بعد الحمدلـة والصلاة على رسول الله : « هذا ظهير كريم ، يجب ان يتلقى بالتبجيل والتعظيم ، صدر بأمرنا المطـاع يعلم منه اننا نأمر القضاة بسائر ايالتنا ان يكتبـوا الاحكام التي يوقعونها بين الناس في كل قضية ، ولا يهملوا كتابة الحكم في شيء من القضايا ، وليكـن المكتوب رسمي : ياخذ المحكوم له رسما يبقى بيده حجة على خصمه اذا قام عليه يوما ما . . . وياخذ المحكوم عليه رسما، ليعلم ان القاضي حكم عليه بالمشهور (81). وعلى كل قاضي من القضاة ان يعمـل بموجـب ما ذكرناه ويقف عندما رسمناه ، لكونه حكما شرعيـا ، ومنهاجا بين قضاة العدل مرعيا ، ومن خرج عمـا ذكرناه بان حكم ، ولم يكتب حكمـه ، أو لم يشهـد عليه العدول ، فهو عندنا معزول ، وتناله منا العقوبة التامة . ونامر الواقف عليه من عمالنا ، وولاة امرنا، ان يقفوا في هذا الامر حتى يجري عليه عمل القضاة ، ولا يهملوه الا في المحتقرات التافهة المقالات » (82) .

وقد اهتم بشروط التوثيق في ميدان الوقف خصوصا السلطان المولى الحسن الاول ، حيث وضع تلك الشروط المتعلقة بالتوثيق في طليعة مسائـل الدوة الخطيرة ، واسس لها ضابطا عدليا بعثـه الى جميع القضاة والنظار ليطبقوه في جميع دوائرهـم

(81) وقعت مذاكرة بين ابي العباس احمد بن خالد الناصري ، وبين بعض فقهاء عصره في فتـوى القاضي ابن سودة ، وتصحيح الشيخ عبد القادر الفاسي لها . وهي ان الخصم لا يلزمـه اعطـاء موجباته التي بين يديه ليتصفحها خصمه . . . وان من بعدهما من المتاخرين اختلفوا فيها . . . فمنهم من أعترضها . . ومنهم من صوبها ، و كان لا يقول بقول من تذاكر معه في هذا الموضوع ، فالف رحمه الله تاليفا في « اعطاء الرسم ، للخصم » ذكر فيه ما تحصل لديه من نصوص الفقهاء في جواز اعطاء الرسوم ، وتعيـن ذلك في بعض الاحوال ، واستدل على ذلك بنصوص مـن الكتاب والسنة واقوال الفقهاء ، ويوجد : « اعطاء الرسم ، للخصم » في مجموع يحمل رقـم : 2295 حرف : د. بالخزانة العامة من ص: 49 الـى 65 .

(82) الاتحاف ، ص : 1/189 ، وانظر في نفس المصدر ، ونفس الموضوع الصفحات : 195 — 200— 240 — 3/310 . من نفس المصدر . . .

القضائية ويعملوا بموجبه عام 1299 . نظرا لكثرة التداعي والنزاع الناشىء عن تساهل عدول البادية، واخلالهم بشروط التوثيق خصوصا فيما يتعلق بالاصول والمبيعات العقارية .

ومما كتبه هذا السلطان الى قضاة مراكش :

« ... كما بلغنا أن طائفة من العدول ، اذن لهم في الشهادة افتياتا من غير اعتبار للشروط (83) التي شرطناها ، ولا وقوف مع الحدود التي بيناها وحددناها ، واتخذ منهم ، ومن الاعوان والوكلاء اشتراك للطمع ، وجسور بناها التهور والهلع (84) ، وتعد للاستئثار بها . حالتي الحرب والسلم ، هذا مع انا بالغنا في اختياركم لتطهير الصحيفة ، وابعاد ساحة الشريعة عن الامور الشنيعة المخيفة ، واختبرنا ، وخبرنا ، وانتقينا ، وابقينا ،ولكن صدق الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم : « الناس كابل مائة ، لا تكاد تجد فيها راحلة (85) » .

وممن امر بذلك ايضا ، واوجب العمل به وشدد فيه ، واوعد مخالفه بالعقوبة الشديدة ، السلطان ابو عبد الله محمد بن عبد الله كما هو مسجل في كتاب « اتحاف أعلام الناس » (86) .

وقد وضع المولى الحسن بن محمد بن عبد الرحمن في عام 1291 هـ ضبطا عدليا جديدا مفصلا ليجري عليه عمل العدول الموثقين في شهادتهم .. ولقد كان القاضي الفقيه السيد احمد ابن سودة (87) قاضي مكناس من جملة من وجه اليهم السلطان مولاي الحسن هذا الضابط المهم . ونص الكتاب الموجه الى ابن سودة طبقا لاصله المحفوظ بالمكتبة الزيدانية ، بعد الحمدلة ، والصلاة ، والطابع الحسني الكبير ...

« الفقيه القاضي السيد احمد بن سودة ... وبعد ، فالذي يكون عليه عمل العدول (88) في

---

(83) قال ميارة : « الموثقون يكتبون الوثيقة على المسطرة الجارية من غير تعرض لفهم بعض فصولها، هذا في الكاتب ، فما بالك بالعامي الذي يشهد عليه العدول ، فكيف يواخذ بما لم يفهم معناه » ..

وفي حاشية الرهوني نقلا عن العلمي في نوازله ، عن قاضي الجماعة بفاس سيدي محمد بن علي الفيلالي ما نصه : « فان الغالب اليوم في الحواضر ، فكيف في البوادي يكتبون الوثيقة على المسطرة المألوفة ، ولا يلتفتون لمعاني الالفاظ ولا يسمعون معرفة ، ولا غير ذلك ، ويتساهلون، فعلى القاضي التثبت في ذلك » . قال الرهوني : « وما قاله هو الحق الذي لا شك فيه » .

(84) يعني تصديق القاضي للرسم وعلامته ، وجاء في نص الكتاب الذي وجهه المولى الحسن الاول الى القاضي بنسودة : « ... واجرة كتب الوثيقة بالمعروف من غير ضرورة ولا ضرار ، ولا ضابط لذلك يوقف عنده ، وذلك يختلف باختلاف العمل ، الا ما كان عن طيب نفس بغير طلب » (« العز والصولة » ص : 2/49) . انظر : موضوع القاضي الذي يقسم أجرة الوثائق مع الشاهدين في المعيار للونشريشي ص : 10/211 ، وانظر ايضا ، جواب اذا اعطي الموثق عن وثيقة كتبها اكثر من المعتاد ، هل يسوغ للكاتب اخذ الزائد ؟ أم لا ؟ (المصدر السابق ص : 10/184) . وانظر ايضا : « نشر المثاني » ص : 1/121 كلام لسان الدين ابن الخطيب في هذا الموضوع منقولا عن « مثلى الطريقة ، في ذم الوثيقة » .

(85) هذا الكتاب موجه من المولى الحسن الاول الى قضاة مراكش ، وهو من انشاء الكاتب ادريس بن محمد العمروي .

(86) الاتحاف ، ص : 3/188 وما بعدها ..

(87) ابو العباس احمد الطالب بن سودة المري الفاسي ، قاضي الجماعة بمكناس ، ورئيس مشيخة المحدثين بالمجلس السلطاني ، توفي بفاس صباح الجمعة 10 رجب عام 1321 هـ ، ودفن بالزاوية الشرادية الكائنة بدرب الدروج عن يمين المحراب ..

(88) يرمي هدف المشرع المغربي من تنظيم العدول الى تسهيل المعاملات على الناس في ميدان التوثيق ، ويقول الفقهاء بانه يسوغ للعدول تلقي الشهادات ، بنوعيها الاصلية والاسترعائية . فالعقود التي يتلقاها العدول تكتسب تاريخا صحيحا ، يمكن ان تكون حجة على الغير منذ تاريخ تسجيلها بدفاتر المحكمة (المجلس الاعلى ـ الغرفة المدنية ، حكم عدد : 54 ، بتاريخ 24 دجنبر عام 1958 ، ملف عدد 615 ، مجلة القضاء و القانون ص : 833 / 2) .

الشهادات الراجعة لما سيذكر من القضايا هو التمشي على مقتضى الضوابط (89) التي ستبينها لما فيها من الاحتياط، واحكام زمام المناط، والسلامة من الخلل حالا، وحتى ما لم يكن جرى به العمل منها ... ومنها أنهم لا يكتبون وثيقة بيع الاصول الا بعد ثبوت الملك لبائعه، وكذا التحبيس».

ومما جاء في هذا الضبط العدلي الهام مما يهم جانب النظار والاوقاف: «وما كان مشتركا مع جانب الحبس لا بد فيه من الاذن الخاص من القاضي، وحضور الناظر، او وكيله، واعمال موجب بذلك، ويشترط على النظار، انهم لا يبيعون فيض ماء لجانب الحبس الا باذن خاص مع شروطه الخمسة، وهي:

1 – ان لا يكون على حيطان المسجد ضرر من اجرائه.

2 – وان يكون ذلك في فضلة يستغني عنها المسجد.

3 – وان تكون تلك الفضلة للمرحاضات التي تحتها هناك.

4 – وان يكون القدر المبيع مقدرا بالقادوس الفخذي مثلا، بحيث ان يكون الماء لا يزيد ولا ينقص، اما ان كان ينقص تارة، ويزيد اخرى بكثرة المتوضئين والمغتسلين او قلتهم، فلا.

5 – وان يثبت السداد في الثمن الى المدة المستأجرة اليها حسبما اجاب بمضمن ذلك العبدوسي، كما في أوائل الحبس من المعيار، ونقله صاحب العمل الفاسي بقوله:

وفيض ماء حبس يباع
وما به للحبس انتفاع

كما يشترط على النظار، ايضا، انهم لا يعقدون على ما هو بجانب الحبس معاوضة، ولا بيعا، الا باثبات الشروط المقررة في محلها على يد القاضي، المشار لها اجمالا بقول العمل الفاسي:

كذا معاوضة ربع الحبس
على شروط أسست للمؤتسي

وتفصيلا بقول صاحب العمل المطلق (90):

وما من الحبس لا ينتفع
به، ففيه البيع ليس يمنع.

وبالمعاوضة فيه عملوا
على شروط، عرفت، لا تهمل

كون العقار خربا. وليس في
غلته ما بصلاحه يفي.

وفقد من يصلحه تطوعا.
والياس عن حالته ان ترجعا (91)

كما يشترط على الناظر، قبل انه لا بد من حضور عدلين من عدول الصائر، في كل صائر، وشرط عليهم، ايضا، انهم ان ابرموا عقد كراء رباع الاحباس، فلا تقبل زيادة من زاد ذلك الا بعد اثبات الغبن، ولو كان دون الثلث، وان لم يبرموا العقد، وانما وقع الالتزام من المكتري بكذا، فمكن من ربع الحبس، ثم جاء من يزيد، فتقبل الزياده حينئذ، ولو بدون الثلث، فلا محيد لهم عن تتبع هذه الشروط، ثم من الاحتياط ايضا، الزام العدول ان يكونوا يؤدون رسوم تعمير الذمم والابراء والتقديمات والرجوع عنها والوصيات والرجوع عنها والحيازة .. يوم تاريخ كتابتها او ما قاربه، فاعرف ذلك، واوجب العمل بمقتضاه، والله يسلك بالجميع مسالك

---

(89) توجه وزارة العدل من حين لآخر عدة مناشير الى مختلف قضاة التوثيق بالمملكة المغربية تتغيا من ورائها شرح مقتضيات الظهير المنظم لمهنة العدول، كما انها تبين التزامات العدول بشأن مسكهم لدفاتر الجيب الخاصة بهم، وتنظيم هذه الدفاتر والعقوبات التي يتعرض اليها كل من يقدم على مخالفة هذه الالتزامات.

(90) هو ابو عبد الله محمد بن ابي القاسم السجلماسي الرباطي، شرح: «العمل الفاسي» الذي حصل اكباب القضاة والمفتين عليه، وشرح اليواقيت الثمينة وغيرهما، كان فقيها محررا نقادا، وكتبه تدل على باعه، وواسع اطلاعه (ت: 1214 هـ) في ابي الجعد بالوباء (انظر: «تاريخ الضعيف» و «الفكر السامي» ص: 127 – 128 / 4).

(91) انظر ص: 249 / الكراس: 32 / 1 من «العمل المطلق».

الصواب والسلام (92)، في 20 حجة الحرام عام 1306 هـ.

وكان من جملة ما فكر فيه جلالة السلطان مولاي عبد العزيز وضع ضابط عدلي خاص بالمعاملات والمخالطات التي تقع بين تجار الاجانب والرعايا المغاربة سعيا الى التخلص من المشاكل الدولية التي كان يجلبها هذا النوع من المعاملات المختلطة ؛ واصدر بذلك أمره الشريف الى قضاة المملكة، ومن بينهم الفقيه السيد أحمد بن سودة (93).

وفي عهد المولى يوسف ابن الحسن صدر كتاب ضابط بشأن ترتيب الحسابات بنظارات الاحباس وحساباتها وتوثيقها لصوائرها ومدخولاتها، اشتمل على قسمين أثنين، وما تفرع عنهما، وذلك في عشرين صفحة، وقد حرر برباط الفتح في فاتح ربيع الثاني عام 1333 ــ 6 فبراير 1915 تحت اشراف مدير الاوقاف السيد أحمد الجاي الوزير للاوقاف فيما بعد، رحمه الله..

وقد صدر ظهير شريف في ضبط قسم العدول، اشتمل على ستة عشر فصلا تضمنت دستورا كاملا لنظام العدول، وذلك في عهد المغفور له مولانا محمد الخامس في 23 يونيه عام 1938 (94).

وفيما يتعلق بتنظيم خطة العدلة اليوم، وتلقي الشهادة وتحريرها صدر ظهير شريف رقم : 1.81.332، صادر في 11 رجب عام 1442 (6 ماي 1982) يتضمن الامر بتنفيذ القانون رقم : 11.81، القاضي بتنظيم خطة العدالة، وتلقي الشهادة وتحريرها..

وصدر مرسوم رقم : 2.82.415. صادر في 4 رجب 1403 (18 ابريل 1983) بشأن تعيين العدول ومراقبة خطة العدالة، وحفظ الشهادات وتحريرها وتحديد الاجور (انظر نص الظهير بالجريدة الرسمية عدد : 3678 ــ ص : 72 ــ 1983/4/27).

وفيما يخص عدول النظارات بصفة خاصة فقد صدر منشور وزيري عدد : 2205، في شأن عدول نظارات الاحباس يتضمن : « ان النظر الشريف اقتضى أن الموظفين بالاحباس لا يتعاطون الشهادات الخارجة عن النظارات، وما يرجع لاشغالها، بل يقتصرون عليها حيث أنهم موظفون بها.

وبناء على ما ذكر، فلتحضر العدول الموظفين بها ولتامرهم بعدم تعاطي الشهادات الا فيما يرجع للنظارات المذكورة، ولتلزمهم العمل بمقتضاه، وعدم الخروج عليه بحال والسلام، في 3 رجب عام 1335 موافق 25 ابريل 1917.

* * *

ان ملوك دولتنا لما علموا ان منصب القضاء، وما يندرج تحته من مسؤوليات، أسنى المناصب، وأعظم الولايات بعد الامامة العظمى حملتهم عواطفهم الدينية، ووقفت بهم غيرتهم الاسلامية على التحري التام في تقديم من يصلح لمنصب القضاء، فكانوا عند اقتضاء الحال تولية قاض يجدون في البحث والتنقير عمن فيه اهلية، واستعداد تام لتقلد تلك الخطة، ولم يكونوا يجتزئون في ذلك بظاهره في العلم والعمل، بل لا تقف هممهم عند تلك المظاهر حتى يضيفوا الى ما رأوا نتيجة السماع ممن يظنون صدقه وتحريه، ومراقبته لمولاه، في سره وجهره ظنا يقرب من اليقين (95)..

يخلص من هذا انه يجب أن يكون من يتصدى لكتابة الوثيقة عدلا ضابطا أمينا كتوما، قديرا على هذه الصناعة، عارفا بالموضوع، ملما به من جميع اطرافه، جامعا للشرائط على اختصارها، بعيدا عن الحشو والتطويل، في أسلوب صاف ناصع، وفي لغة صحيحة واضحة، لا يتعثر في الاطناب والقعقعة اللفظية، ولا يهبط الى الركاكة التي تثير السخط، حتى لا يترك منفذا يستوجب الطعن من حيث الشكل والموضوع...

(92) الشهادة العدلية، وثيقة رسمية تفيد ثبوت ما تضمنته من بيانات وصحة تاريخها، ولا يمكن ان يطعن فيها الا بادعاء الزور، انظر « العز و الصولة » لابن زيدان، ص : 51 / 2.

(93) انظر نص الكتاب، وطريقة كتب الوثيقة بالجزء الثاني، ص : 52 من كتاب « العز والصولة ».

(94) انظر تفصيلا عن هذا الظهير في كتاب : « هذه مجموعة منيرة » التي اشتملت على المهم من الظهائر الشريفة، والضوابط المتعلقة بتنظيم وتمتين العدلية الشرعية الاسلامية.. (طبعة : ماروك ماتان MAROC matin عام 1952).

(95) العز والصولة، ص : 9 / 2.

ويسرني ، في ختام هذا البحث ، ان انقل كلاما للشيخ الشاب (96) علي الطنطاوي . وهو يتحدث عن المحاكم الدمشقية ، وما تحويه من وقفيات شرعية ثمينة ، وجهوده لاصلاح احوالها حيث قال : « أعود الى شيء طالما ابدات فيه واعدت ، وكتبت وخطبت، انبه الى ثروة عظيمة ، اخاف عليها ان تضيع ، واحسب انها قد ضاعت الآن ، تلك هي الوقفيات ، عندنا في المحكمة الشرعية وقفيات من مائتين الى مائة وخمسين عاما ، فيها من تاريخ البلد العمراني وخططه ، ومن وصف دمشق ، وحاراتها واحيائها ، وذكر ولاتها وحكامها ، ووصف دورها ومساجدها ، وذكر القرى التابعة لها — فيها من ذلك شيء كثير ، لم يعد يعرفه منا الا القليل ، تستخرج منه عشرون رسالة جامعية تنال بكل واحده منها على اعلى الشهادات ، فهي كنز لا يقدر بثمن ، ولا تغني عنه التواريخ المطبوعة ، لان فيها ما لاتحتويه هذه التواريخ .

كانت هذه الوقفيات ادلة شرعية لاصحاب الحقوق ، فلما الغى حسني الزعيم الاوقاف الذرية ، وصفاها ووزعها على غير مستحقيها من غير دليل شرعي يستند اليه ، ويعتمد عليه ، لم تبق لها قيمة مادية ، وصفت للتاريخ والعلم ، لذلك خفت ان تضيع ، وبذلت ما استطيع من جهد قليل ، بلساني وبقلمي ، فكتبت الى وزارة المعارف ، والى الجامعة، والى المجمع العلمي ، وندبت الناس الى الاحتفاظ بها خوف ضياعها ، فلم يصغ الي احد ، وأخشى ان تكون ، الآن ، قد ضاعت ، وحينئذ لا تكفي موازنة الدولة لخمس سنين لتعويضها ، لانها كنز لا يعوض (97) .

وبدون تعليق ...

وقد جرى تعاون كبير بين هيئة « اليونسكو » الدولية ودار الوثائق القومية بالخرطوم في اطار برنامج اعتمدته هذه المنظمة العالمية لدعم التعاون بين مراكز الارشيف والتوثيق في العالم العربي .

وفي هذا الخصوص قام الدكتور محمد ابراهيم ابو سليم مدير دار الوثائق القومية بزيارة كلية الاعلام بالعاصمة المغربية رباط الفتح لمدة ثلاثة اسابيع بتكليف من هيئة اليونسكو كأحد مستشاريها ، في مجال الوثائق ، حيث القى محاضرات في فن التوثيق بالكلية ، كما قام بمراجعة مقتنيات المكتبة لاستكمال المادة الخاصة بالوثائق ، وتقويم اطروحات الطلاب بالنسبة لهذا الفرع من العلوم ، وقدم بعض المحاضرات العامة عن التوثيق والمجتمع ..

وقد اشار الدكتور ابو سليم الى ان التعاون بين مراكز التوثيق العربية امر مطلوب نظرا لحاجة هذه المراكز الى الخبرة ... وفي مجال تبادل الخبرات بين دار الوثائق السودانية ، قام الدكتور ابو سليم بترتيب وثائق المحاكم الشرعية بدولة قطر عام 1983 ، كما قام بترتيب الوثائق القضائية لدولة الامارات العربية المتحدة عام 1982 ..

وتمتد الصلات بين اليونسكو ودار الوثائق السودنية الى درجة الاستعانة بالدار السودانية في مجالات الخبرة والاستشارة في المجال الافريقي ايضا ... وقد قررت هيئة اليونسكو انشاء مختبر اقليمي بدار الوثائق القومية « بالخرطوم » لتدريب الوثائقين في مجال تصوير وحفظ المقتنيات من الاقطار العربية ..

الشهادة على الخط في ميدان الوقف :

الرباط : محمد بنعبد الله

---

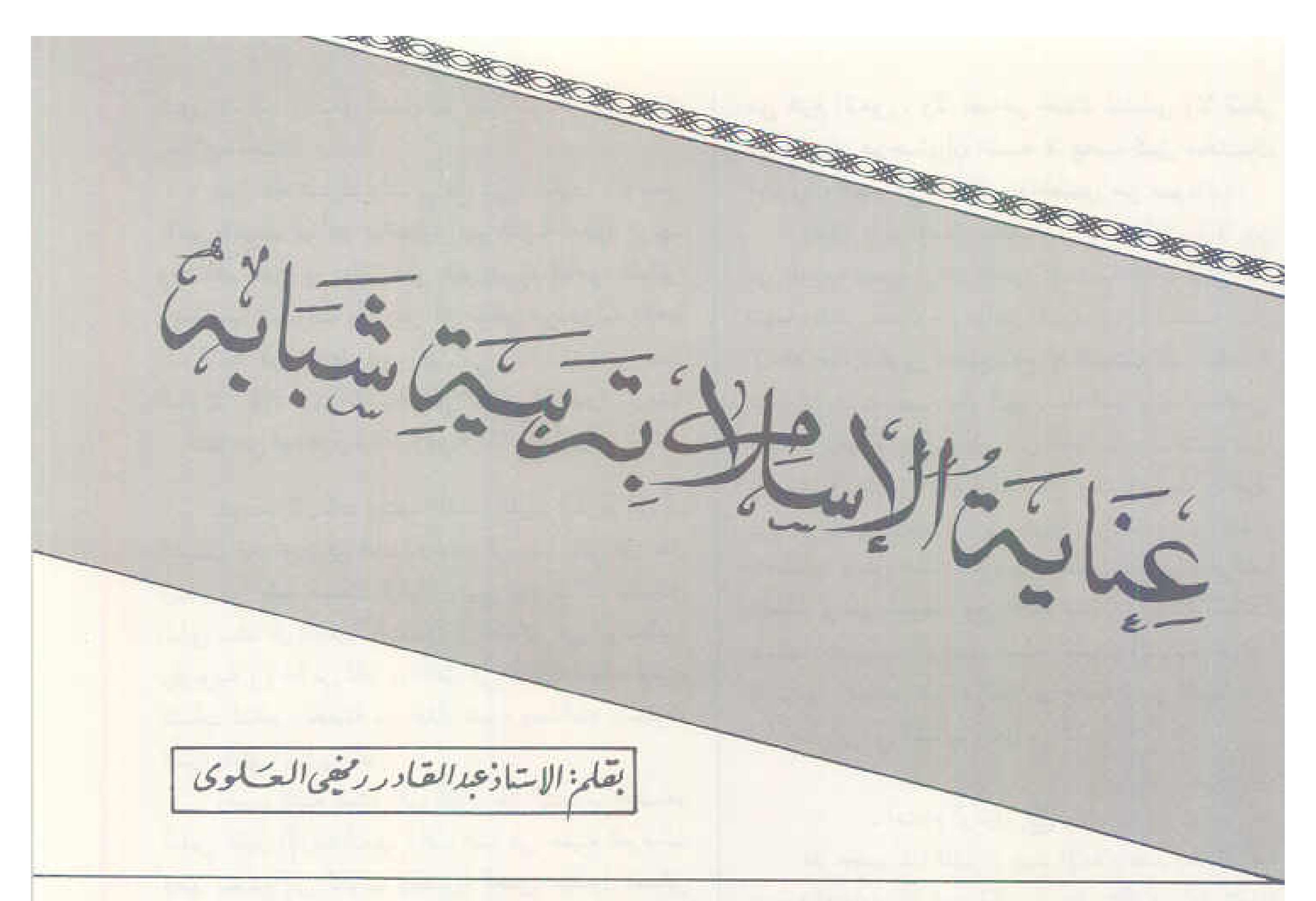
(96) ما سمعت كلاما ، او رأيت صورة او قرات كتابا للشيخ الشاب علي الطنطاوي السوري الذي جمع بين ركانة الشيوخ ووقارهم ، وظرف الفتيان وخفة روحهم ، وذكاء قلبهم ، الا وتذكرت، تواً، قول كثير عبد الرحمن الخزاعي في حبيبته عزة بنت جميل بن وقاص الذي يقول لها :

يا عز ، هل لك في شيخ ، فتى ابدا ... وقد يكون شباب ، غير فتيان

او استعرضت قول المتنبي في مدح المغيث بن العجلي :

يروع ركانة ، ويذوب ظرفا ... فما تدري ، اشيخ ، ام غلام ؟

(97) الحلقة 132 من مذكرات الشيخ الطنطاوي . « الشرق الاوسط » .



عناية الإسلام بتربية شبابه

بقلم: الأستاذ عبد القادر رمضى العلوى

لقد اعتبر المنتظم الدولي هذه السنة خاصة بالشباب أطلق عليها السنة الدولية للشباب، ونحن نبين في هذا لبحث أن الإسلام هو السباق دائما لكل مكرمة، ومنها عنايته بالشباب وتربيته.

قال ﷺ : سبعة يظلهم الله بظل عرشه يوم لا ظل لا ظله «إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا ي الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل تصدق بصدقة أخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقته يمينه، ورجل دعته مرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله، ورجل كر الله خاليا ففاضت عيناه».

من المسلم به أن الحياة المعاصرة تتطلب تكوين جتمع متكامل متضامن، تسوده روح الأخوة والتعاون، النصح لله ولرسوله ولكافة المسلمين وعامتهم. ويكون من خلال هذا ومن باب الأوليات إصلاح المجتمع بجميع بقاته، وتوجيهه الوجهة الصالحة ليكون مجتمعا مثاليا طبع علاقاته طوابع الدين الراسخ، والمحبة الصادقة ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون.

وغير خاف أن الشباب عمدة من أعمدة المجتمع، يتقوى بها إن كانت راسخة متينة، وينهار إن كانت نخرة متلاشية، ولذلك وجبت العناية به ليكون للأُمة دواما وأصالة وحسن تدبير.

والإسلام اعتنى بالشباب عناية خاصة تتجلى في الإشادة بكل شاب طبع حياته بطابع الاستقامة وروح الامتثال والتقوى، وخاف الله في جميع حركاته، ومن خلال ذلك يخلق التوجيهات الصالحة لبناء النفس والجسم والعقل على نمط متكامل يعطي للحياة الدنيا حظها، وللآخرة مطالبها، وينشأ نشأة دينية وأخلاقية تبشر بالخير وتفتح طريق السعادة في الدنيا والدين.

القرآن الكريم ينوه بالشباب

وهكذا نجد القرآن الكريم وقد خص الشباب بالتوجيه من خلال القصص التي ساقها تكريما للشباب الذي سبق

ظهور الإسلام، واستحق الفضل بما جناه من كريم الصفات وجلائل الأعمال.

يقول الله تبارك وتعالى في سورة الكهف : ﴿**نحن نقص عليك نبأهم بالحق، إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلاها لقد قلنا اذن شططا**﴾، ويقول في آية سابقة من نفس السورة : ﴿**إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا : ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهيء لنا من أمرنا رشدا**﴾.

فبهذه الآيات ومثلها أشار القرآن الكريم إلى أن الشباب قد خلد في الصالحات ذكره بما أوتي من عقل وتبصر في وقت طبعت الأهواء جميع المعاملات وانشغل الناس بمشاغل الدنيا وابتعدوا عن التفكير في الوحدانية والربوبية والإخلاص لله، وبالتأمل في الكون وخلقه، فخرج الشباب ليتقص الحقيقة من خلال تدبره ومطالعته واستقرائه لأسرار الكون وما وراءها.

وضرب الله المثل في القرآن عن الشباب الطاهر النفس القوي الإرادة الذي يراقب الله في جميع تصرفاته وهو يتطلع إلى الثواب والجزاء الحسن، فيقول تعالى حكاية عن سيدنا يوسف وهو في فتوته وشبابه وجماله : ﴿**وراودته الذي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيث لك، قال : معاذ الله، إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون**﴾.

والقرآن الكريم يسوق لناالقصص للاستفادة والتثبيت، مصداقا لقوله تعالى : ﴿**وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك**﴾. ومنها نلاحظ الغاية المقصودة في إظهار العناية بالشباب وحثه على اقتباس السنن الحسنة من ماض الأمم السابقة.

يقول تبارك وتعالى في سورة الأنبياء : ﴿**قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم**﴾. ثم نجد لقمان وهو يعظ ابنه ويربيه، ويضع أمامه علامات منيرة لكي يسترشد بها في طريقه : ﴿**يا بني أقم الصلاة، وآمر بالمعروف، وانه عن المنكر، واصبر على ما أصابك، إن ذلك من عزم الامور، ولا تصاعر خدك للناس ولا تمش في الارض مرحا، إن الله لا يحب كل مختال فخور، واقصد في مشيك، واغضض من صوتك**﴾.

وهكذا اهتم الإسلام بالشباب اهتماما كبيرا لا يقل عن اهتمامه بجميع أركان الدعوة الإسلامية إن لم يكن أكثر منها، وليس ذلك من دواعي الاستغراب إذا سلمنا بأن الإسلام جاء لتكوين مجتمع نافع، إذ المجتمع كما أسلفنا لا يقوى إلا بشبابه، فهم دعائم اليوم وبناة الغد وآباء المستقبل. ففي توجيههم والعناية بهم كل الضمانات الاجتماعية والحضارية، فقياس الأمم عادة يقاس بعدد شبابها، والتعرف على خريطتهم الاقتصادية في المهارة والاختراع والابتكار والانتاج، فيمثل الشاب في بلده قلبها النابض وحركتها المعطاء وعقلها الموجه. وهو الأداة المنفذة والطاقة العاملة بقوتها وتجربتها. وكان عليه الصلاة والسلام يقول : (استوصوا بالشباب خيرا فإنهم أرق أفئدة وألين قلوبا واني لما بعث آمن بي الشباب وكفر بي الشيوخ).

- اهتمام الرسول ﷺ بالشباب -

فلا عجب كما قلنا ان يهتم الإسلام منذ بدأ نشأته بتوجيه اهتمامه بالشباب، فكان الرسول ﷺ في أول تحمله الرسالة يتصل بالشباب ويثق فيهم.

وكان له فيهم تطلع خاص يرى فيه المستقبل الصارخ والقيادة الراسخة والقلب المتفتح للإيمان الذي لا تراجع فيه ولا خذلان. فقد روى جندب البجلي رضي الله عنه قوله : (كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزارة (فترة الشباب القوي) فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازداد إيماننا) وكان ﷺ يقول : (الزموا أولادكم واحسنوا أدبهم). فيكون الخطاب هنا على سبيل الالزام والوجوب لأن الاخلال به يكون إخلالا بما هو وارد في القرآن الكريم : ﴿**يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا**﴾.

فتتحمل الأسرة بما فيها الأب والأم أمانة الإحسان إلى الولد وتربيته تربية إسلامية صحيحة لأن المولود يولد على طبيعته فيأخذ اتجاهه وعقيدته من الوسط الذي يفتح عينيه فيه فيقول عليه الصلاة والسلام : (كل مولود يولد على

الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه).

وكان الرسول الأكرم يقرب إليه الشباب ويجالسه، ويستمع إلى آرائه وأقواله، بل ذهب إلى أبعد من ذلك فلقد أعطى أسامة بن زيد وهو في أول شبابه قيادة الجيش ليحارب قضاعة، وكان الجيش بطبيعة الحال يضم العديد من الصحابة الأخيار يكبرونه سنا ويفوقونه تجربة، ولم يعترض أحدهم على الرسول، لأنهم وجدوا في عمله درسا من الدروس النافعة لأبنائهم من الشباب، يتعلمون من خلاله تحمل المسؤولية والاعتماد على النفس في توجيه الأحداث المحيطة حتى يخبروا اهليتهم وكفاءتهم. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : (علموا أولادكم السباحة والرماية ومروهم أن يثبوا على الخيل وثبا) وهذا التوجيه منه رضي الله عنه مبني على تعاليم الإسلام التي تريد أن يكون المسلم قويا في كل شيء وهو مقتبس من قول الرسول ﷺ : (المومن القوي أحب إلى الله من المومن الضعيف وفي كل خير).

ويقدر الإسلام العلم والعلماء، ولذلك فهو يهيب بشبابه أن يكون في طليعتهم يتسابق لنيل درجاته العليا وكان من خصائص المجتمع الإسلامي الأول أن يتطلع إلى المزيد من التعميق في أسرار القرآن والسنة، فيأخذ عن الشباب الذي طبع الله قلبه للإسلام وأنار بصيرته لإدراك أسرار الآيات والأحاديث. من ذلك ما ثبت عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يفضل الاستماع إلى شروح ابن عباس رضي الله عنه على غيره من كبار الصحابة وشيوخهم كلما حدث أن وقع اجتماع أو تدارس آية وكان يريد من وراء ذلك أن يفهم الصحابة أن ابن عباس رغم شبابه فإنه عالم قوي الادراك. وهكذا ففي يوم ضمهم مجلس كالعادة سأل عمر رضي الله عنه الجالسين عن قوله تعالى : ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾ حتى نهايةالسورةفشرحهاالشيوخ علىأن الله أرادأن يبلغ رسوله أنه بعد أن دخل الناس في دين الله أفواجا بعد فتح مكة وجب عليه التسبيح والاستغفار، ثم سأل بعد ذلك ابن عباس بقوله : (وما تقول يا ابن عباس فقال : ذلك أجل رسول الله ﷺ : إن الله يقول لرسوله : إذا فتحت مكة ودخل الناس في دين الله أفواجا، فقد تمت رسالتك ودنا أجلك، فاستعد للآخرة بالاستغفار والتسبيح فقال عمر ما أرى إلا رأيك).

الرسول يحترم رأي الشباب

وكان من مبادئ الإسلام اعتماده على الشورى امتثالا لقول الله تعالى : ﴿**وشاورهم في الأمر**﴾ فأخذ الرسول الكريم بهذا الاتجاه وأعطى للشباب حظه من الرأي بل ذهب إلى أبعد من ذلك ونزل عند رأيهم أحيانا لعلمه أن رأيهم يكون منبثقا من الإيمان القوي والرغبة في تحقيق الطموح المتدفق، وطوي المراحل للوصول إلى إحقاق الحق ونشر ردائه. من ذلك ما وقع في غزوة أحد، فقد علم الرسول الكريم بوصول جيش المشركين إلى جبل أحد زاحفا على المدينة لأخذ الثأر عن ما وقع لهم في غزوة بدر التي فتح الله بها باب انتشار الإسلام والتعرف على شوكته التي لا تكسر، فأخذ المشركون عدتهم التي بلغت ثلاثة آلاف مقاتل ومعها مائتي فارس بقيادة خالد بن الوليد - قبل إسلامه - في وقت لم يكن للمسلمين عتاد من هذا النوع، فأدرك الرسول مخاطر هذه المعركة وعواقبها، فرأى أن يبقى في المدينة تاركا للمشركين الهجوم عليها لتضحل قوة الفرسان بين الأزقة ويستطيع أهل المدينة المشاركة في الحرب ولو من فوق السطوح بالرمي بالحجارة وغيرها. غير أن الشبان المتحمسين من الأنصار أصروا على الخروج لقتال المشركين خارج المدينة، فنزل الرسول ﷺ، عند رأيهم ودخل بيته ليلبس درعه فعاب من وافق رأي الرسول على الشباب وعلى إصرارهم فرجع الرسول ليجد المتحمسين قد غيروا رأيهم لكنه عليه السلام قال : «ما كان لرسول الله وقد لبس درعه لينزعها.

وإذا كان الرسول ﷺ، قد سلك هذا النهج رغم ما فيه من المخاطر، فإنه أراد أن يعلم الصحابة الكرام أن رأي الشباب محترم ما دام قد صدر عن حسن نية ورغبة في الانتصار لله ولرسالة نبيه، فمجال التربية واسع يتوجب أن يكون من بين عناصره إعطاء المتربي فرصة التعبير والتجربة، لأن التجربة درس من دروس الحياة التي تعلم وتربي وتكوّن، وإن صح التعبير فهي معمل لإخراج أفراد

المجتمع وصناعة شبابه وقد يرسخ في ذهن الشباب تلك الأغلاط التي ارتكبها في فترة تدبيره فيستفيد منها ويتعظ بها فلا يعود إلى أسبابها.

الشباب والتربية الدينية

ولإعطاء رسالتنا حقها من العناية نرى أن نلفت النظر إلى أن حياة الشباب محفوفة بالمصاعب، تذكيها نفحات المراهقة وأطوار البلوغ، وتخلق فيها نزوات جبارة تتصارع مع الدوافع الأخلاقية الكامنة في نفس الشباب. فإذا وجدت سبيلا للتأثير عليها كانت كارثة في حياة الشباب وسببا من أسباب خروجه عن الطريق السوي، لذا يجب الإدراك، بأن أخطر مرحلة في حياة الإنسان خاصة هي تلك التي تلتقي فيها فترة انسحابه من الطفولة ودخوله حلبة الشباب. وعليه فإن التحسب لهذه الفترة الدقيقة يجب أن يكون قبل وصولها بالذات ولا يتأتى ذلك إلا بتلقين الطفل مبادئ الدين وإرشاده إلى عواقب الخروج عنه.

فإذا تعلم الشباب وأخذ من أسرار الآيات البينات وهو في مطلع شبابه استطاع أن يحجب عن نفسه أسباب الزلل والزيغ، فبقوله تعالى مثلا : ﴿**فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى**﴾. يدرك الصلة بين عمله ومآله، فيحجم عن ولوج ميادين الفساد والخراب. وهذا بطبيعة الحال عندما يدرك من قبل أن هذا القرآن نزل ليكون صلة بين الخلائق والخالق، فهو كلامه إليهم على لسان رسوله : ﴿**إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لتنذر من كان حيا**﴾. وليس على الرسول أكثر من التبليغ والتبيان، وعلى المرأ أن يختار إلى أي الطرق يسير، وفي كلها جزاء ينتظره مادام السير في الطريق يؤدي حتما إلى نهايتها، وصدق الله العظيم : ﴿**ياأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ظلّ فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل**﴾.

ومتى رسخت في قلب الشباب وعقله أهداف الإسلام ورسالته الصادقة تشبت بطبيعة الحال - بأهدابه واهتدى بهديه، وتخلق بأخلاقه وقدم نفسه فداء لدينه وعقيدته ونصرته.

فالتربية الإسلامية تُحَلّي الشباب حُلَلَ الرحمة والايثار، وتنهاه عن المناكر وتأمره بالمعروف، وتشرح له المضار الموجودة في الأُمور المنهى عنها، والمنافع التي تتضمنها الأشياء المأمور بها، وتعطيه حرية التفكير في الأصلح وهو يتدبر قول الله تعالى : ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المومنين الذين يعملون الصالحات إن لهم أجرا كبيرا وإن الذين لا يومنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً**﴾.

تعليم الشباب كيف يدافع عن إسلامه

فإذا نشأ شبابنا على تقوى من الله ورضوان اصبح درعنا الواقي وسلاحنا البتار وقوتنا التي لا تغلب، فانطلق يدافع عن دينه غيرة وحماية، ودعا إلى التمسك به والاهتداء بأحكامه، فانتشرت بفضله كلمة الله، وعاد للإسلام دوره الطلائعي في تسيير الحياة الدنيوية، ومتى كان لنا شباب طبع على حب ملته وإدراك مكامن الدين الحنيف تعبدت الطريق أمامنا وزالت كل المسالك الوعرة لأنه - بوجوده في كل مكان - سيعبر عن حقيقة الإسلام كما آمن بها وكما تعلمها من كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ويدافع عن الدين في مواجهة من يتقولون على الرسول والقرآن، مصداقا لقوله تعالى : ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم**﴾، ورد على المعاندين على أنه الدين القويم الذي بشرت به الكتب السابقة في قوله تعالى :﴿**وإذ أخذ الله ميثاق النبيئين لما آتيناكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتومنن به ولتنصرنه قال قال أأقررتم وأخذتم على ذلك إصري ؟ قالوا : أقررنا، قال : فاشهدوا وإنا معكم من الشاهدين**﴾.

وقال تعالى : ﴿**ومبشرا برسول يأتي من بعدي**

اسمه أحمد﴾. وأفهم أهل الكتاب أن دين الإسلام جاء بواسطة رسوله سيدنا محمد ﷺ، ليتم ما سبق أن جاء به الرسل السابقون **﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيئين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبورا﴾**.

ويقول تعالى : **﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾**.

ولا يمكن أن نحصر مهمة تربية الشباب وتكوينه في المجالين المنزلي والمدرسي بل إن التطورالحالي والحياة المعاصرة والتقدم التكنولوجي جعل الامكانيات متعددة ومتنوعة فأصبح الاعتماد على تكوين الشباب دينيا مطلوبا من وسائل الاعلام مثلا، إذ بإمكانها أن تضع برامج خاصة بالشباب المسلم من خلال ما يعرض من مواضيع ومحاضرات وندوات وإنتاج أفلام إسلامية صرفة عن السير، ودور الشباب في مطلع الدعوة الإسلامية. ثم تقدم إليه توجيهات عن المحرمات والممنوعات بوسائل علمية وعملية. ويدخل في دور الاعلام إقامة مناظرات بين الشباب نفسه بمحضر رجال العلم الإسلامي، فينظم مثلا لقاء بين شابين أو ثلاث يتحدثون فيه عن دور الصلاة في تربية النفس وترويدها على الامتثال وضبط الغريزة، ويتحدثون كذلك عن الصوم وفضائله على الجسم والعقل والروح، ويتناقشون عن الزواج في الإسلام وأثر التنظيمات العصرية عليه، ويتكلمون عن مضار الطلاق وآثاره، ولا يهمنا أن تكون المناقشة في المستوى العالي إذ أن الغاية ليست الثقافة كميدان ولكن تكوين ملكة البحث عن مكامن الإسلام، وتبعا لذلك فلا معنى أن يشترط في الشباب مستوى ثقافي عالي بل يمكن أن نفسح المجال حتى إلى تلاميذ الأقسام الثانوية وهم أبناء 15 أو 16 سنة.

ثم أنه من الواجب أن نترك للشباب فرصة الاستفسار؛ ونحاول أن نعطيه جوابا مقنعا من خلال الكتاب والسنة والواقع الإسلامي وسيرة الرسول ﷺ.

ويجب أن يكون اهتمامنا ونحن نؤلف قصصا أن نجعل للتراث الإسلامي قصب السبق فيها، ومن خلاله تقتبس للقارئ فصولا مشرقة ومشرفة من الملاحم البطولية عند الشباب المسلم. ولنا في علي بن أبي طالب وابن عباس وأبي ذر الغفاري وخالد بن الوليد وابن عمر وغيرهم كثير،المثل الأعلى للشباب المسلم في مطلع الدعوة وبرفقة الرسول الأكرم، وإذا أسرعنا الخطى وانتقلنا إلى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية تطالعنا أسماء نعيش على طعمها ورحيقها إلى اليوم في مختلف المجالات العلمية، وميدان الاختراع وليست في حاجة إلى القول بأن الخوارزمي وابن الهيثم وابن رشد وغيرهم كانوا فقط نواة من جذور الإسلام الصحيح والتعاليم الصادقة لهذا الدين.

ـ الشباب والعلوم المعاصرة ـ

وغير خاف ما دام الحديث قد ساقنا إلى ميدان العلم والمعرفة إن نذكر أن دين الإسلام حمى راية الانطلاق في لتسابق إلى العلم والارتواء من فيضه الدافق في أي ميدان كان، لا يهمنا منه إلا الادراك والاستنباط والاستقراء، فيكون من الواجب أن نبلغ شبابنا أن دعوة الإسلام ابتدأت بالإشارة إلى العلم والتعليم ليفهم المسلم أن العلم نور يهدي به الله، وبواسطته يتقوى إيمانه ويقترب من ربه وخالقه، ويزداد يقينا بأن عظمة الكون دليل على عظمة الخالق ـ ولا حد لعظمته ـ يقول الله تعالى : **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾**. ويقول : **﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾** وللدعوة إلى العلم والحرص عليه قال ﷺ : (فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد).

فالشباب المسلم وهو يتعلق بتعاليم دينه أولى الناس بأن يكون مطلعا على ما وصل إليه العقل من اختراعات وصناعات ومعطيات متنوعة، لا يهمنا ضررها ونفعها بقدر ما يهمنا إنها من عقل الإنسان، وان التعرف عليها أمر

وجوبي، لأن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿أو لم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يفقهون بها﴾ ويقول : ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾ ويقول : ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾.

وبصفة عامة فإن الشباب المسلم مطالب بالمشاركة في كل الميادين الاجتماعية المعاصرة مع حرصه التام على أن يتبع الأصلح فيها، لأن شباك الأعداء وحبال المخادعين منصوبة لشبابنا في كل مكان، وشيطان الشر يترقب خطاهم كما أكد ذلك الخالق سبحانه فقال : ﴿فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن إيمانهم ومن شمائلهم﴾.

فالمشاركة في الرياضة والندوات والرحلات والنشاط الثقافي والفني كالرسم والتمثيل كلها ميادين من حق الشباب أن يندمج فيها وليكون رسول إخوانه المسلمين عند بقية الشباب ويبين لهم بطريق الممارسة والتنفيذ تعاليم الإسلام وتربيته.

وذلك أن التيارات المتواجدة في الحياة اليومية والتقلبات المتوالية تتسلل إلى ساحة الشباب فيتأثر بأحداثها، فالواجب أن نفسرها له بحسب المفهوم الإسلامي وما يراه الإسلام لها من أسباب، وما يقترحه من علاج، فلا يكون من المنطق أن نسد أمامه طريق التفكير في تطوراتها، لأن ساحة الإسلام لا تخاف من الأهواء ولا تنخدع بالاديولوجيات وعليه فلا نرى بأسا أن يتعرف الشباب المسلم ـ وهو قوي الإيمان بدينه ـ على مختلف الاتجاهات ويدرس أبعادها ومضمونها ليتبين خبثها وسوء طويتها، فإذا عرف الشاب المسلم أن نظرية الشيوعية هي سلب الإنسان شخصيته التي تكرم الله عليه بها وميزه عن باقي المخلوقات فقال : ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾. يدرك بالبديهة أن هذا المذهب خروج عن الحقيقة الإنسانية وتعطيل الإنسان في الحياة على أنه مخلوق رزق العقل يتدبر به والقوة ليسخر بها باقي الكائنات.

ـ حضارتنا وحضارتهم ـ

ومن باب الإرشاد أن تعطى لشبابنا نظرة توجيهية عن الحضارة في مفهوم العالم النصراني واليهودي واللاديني على أنها ضرب من الانحلال والتعفن وتخدير العقول وطمس الأخلاق، وان إنسانها أصبح يتطلع إلى حياته الحيوانية على أنها نوع من التقدم والرقي فضرب عرض الحائط بالمقومات الروحية، ووصل الاستهتار ببعض الدول التي ترتب عندهم في رأس القائمة وأعلى سلم الحضارة والمدنية. إلى سن تشريعات تبيح الشذوذ الجنسي وتدافع عنه، وبعضها يبيح الزنا ولا يعاقب عليه، والبعض الآخر أباح الاجهاض وقتل النفس التي حرم الله، وغير ذلك من أنواع الاستهتار بأبسط مبادئ الحياة الاجتماعية المثالية.

وكثيرة هي الأبواب التي يمكن أن نوجه منها إلى الكفار طعنات تدل على خساستهم وانحطاط مجتمعاتهم، ويدرك من ورائها الشباب المسلم أن الحق أحق أن يتبع، وأن ديننا الحنيف هو المعيار عند اختلاط الهواجس والتيارات وأن ﴿من يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾.

وإشارة بسيطة وهامة يجب أن يتنبه لها الشباب ويتمسك بها وهي ما قاله عليه السلام : (إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه) وبذلك فلا محل فيه للتطرف والتعقيد والتشدد والتضيق حتى نخرج من مفهوم الدين الإسلامي والذي أسس على اليسر منذ أن أمر الله رسوله بالتبليغ بل بشره بأنه تحمل رسالة أيسر الأديان فقال تعالى : ﴿ونيسرك لليسرى﴾.

ومن باب تحصيل الحاصل أن تقول : إن الاختلاف في تفسير بعض الأحاديث أو بعض الآيات لا يجب أن يكون سببا في وقوع شقاق بين المسلمين أو تضارب في أقوالهم تدفع إلى نزعات وخلق الطائفية.

ولا يجب أن يكون الاجتهاد في تفسير بعض الأقوال وحيا يجبر صاحبه الناس على اتباعه، لأن ذلك يعتبر تطرفا وتعنتا. والواجب يفرض أن يحترم كل ذي رأي صاحب الرأي الآخر، وأن يكون النقاش بالموعظة الحسنة بعيدا عن الجدال العقيم، والذي يجعل عامة الناس في خلط

واضطراب وينبت أسباب العداوة بين المذاهب والاجتهادات.

لقد علق بعض الأصوليين بقوله على قوله تعالى : **﴿وداوود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذنفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما﴾** فقال : لولا هذه الآية لهلك كل المجتهدين. ويجب أن يكون الحكم على الشيء فرعاً عن تصوره، فلا يراد من الحكم العناد والتعصب وفرض الرأي بدون مناقشة أو إقناع.

وكلمة أخيرة يجب أن يعلمها شبابنا ويومن بها وينشرها، وهي أن الإسلام يوصي بالمحبة الإنسانية، ولا يضمر حقدا أو عداوة لأحد مهما كان اتجاهه أو دينه، مادام هناك نوع من الاحترام المتبادل، والتعاون الصادق، والمعاملة الخالية من الدس والمكر : **﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾.**

فإذا ظهر منهم أعداء الإسلام واتجهت نيتهم نحو النيل من تعاليمه والمس بكرامته وجب آنذاك معاملتهم بما هو مناسب لتصرفهم. ولم يبق وقتئذ مناسبة تسمح بالتعاون معهم لأن التعاون معهم يسيء إلى نخوة الإسلام وكرامته. وكل تعاون مع أعداء الإسلام ضد الإسلام وضد أمه يضع المتعاون في صف المنافقين ويجعل مصيره مرتبطا بمصيرهم.

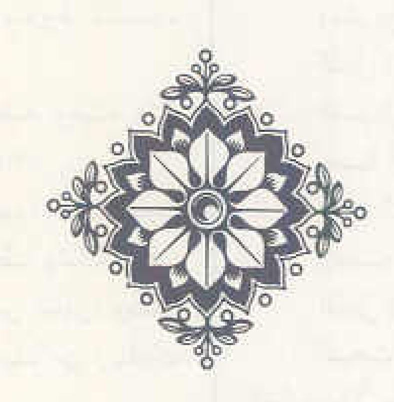
وذلك مصداقا لقوله تعالى : **﴿بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المومنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا﴾.**

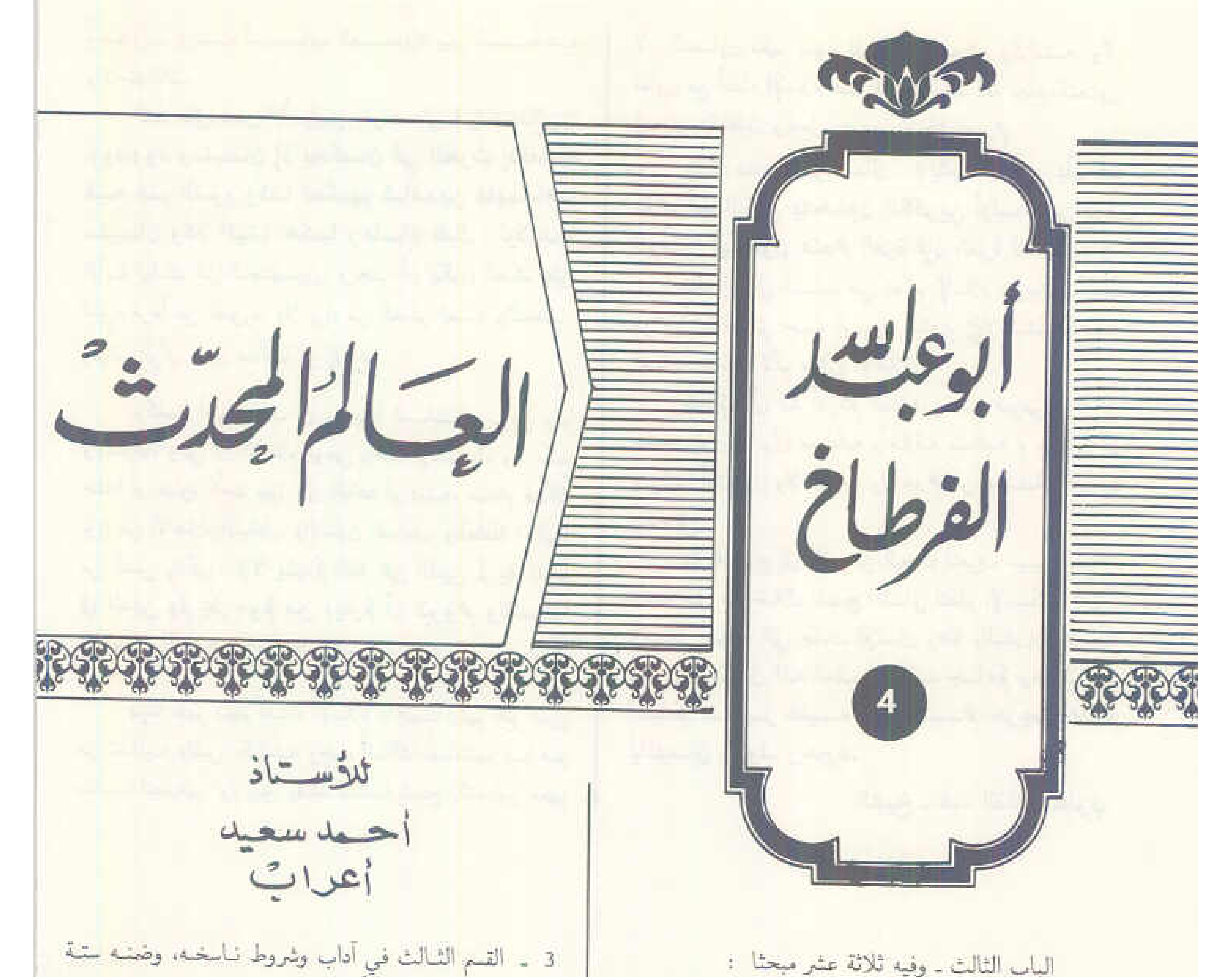
تلك إخواني الشباب هي تعاليم الإسلام وتربيته وتلك هي الأخلاق التي جاء الرسول الكريم ﷺ، ليتمها وهو القائل : (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

ولعلكم الآن قد أدركتم أنه دين جمع فوعى، وأحسن صنعا وتوجيها وأن مبادئه وأخلاقه مثالية لم يستطع أن يدركها أفلاطون ولا سقراط ولا غيرهم من فلاسفة الحضارة والاجتماع.

ولا نحتاج إلى كثير من البحث لنعرف سبب ذلك، لأنه جلي من خلال المنهج المثالي لتعليم الإسلام الحنيف وأهدافه السامية التي جاءت للإنسان رحمة وللبشرية هداية وإرشادا وصدق الله العظيم : **﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عندتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾.**

الشيخ ـ عبد القادر العلوي





للأستاذ
أحمد سعيد
أعراب

الباب الثالث ـ وفيه ثلاثة عشر مبحثا :

المبحث الأول في كتابة الحديث، وشروط كاتبه ـ وهو النوع الأربعون، وجعله خمسة أقسام :

1 ـ القسم الأول في كتابة الحديث وضبطه، وضمنه ستة أبيات للأصل، وبيتا واحداً للذيل (101).

2 ـ القسم الثاني فيما على كاتبه من وجوب صرف عنايته إلى ضبطه متنا وسندا، خطا ونقطا وشكلا، وفي كيفية الاعتذار عما يقع في نسخه من الخلل؛ وضمنه عشرة أبيات للأصل، وأحد عشر بيتا من زيادات الذيل (102).

3 ـ القسم الثالث في آداب وشروط ناسخه، وضمنه ستة وعشرين بيتا للأصل، واحد عشر بيتا من زيادات الذيل (103).

4 ـ القسم الرابع في اختصار صيغ الاداء والتحويل، وضمنه خمسة أبيات للأصل، وأربعة عشر بيتا للذيل (104).

5 ـ القسم الخامس في آداب وشروط كاتب التسميع، وضمنه ثمانية أبيات للأصل، وبيتا واحدا للذيل (105).

المبحث الثاني في رواية الحديث ـ وهو النوع الحادي والأربعون، وجعله ستة أقسام :

101) الورقة : 54 ـ (أ).
102) ورقة : 54 ـ (ب)، 55 (أ).
103) ورقة : 55 ـ (ب)، 56 (أ ب).
104) ورقة : 57 ـ (أ ب).
105) ورقة : 58 ـ (أ).

1 ـ القسم الأول في صفة الراوي ـ ولا يخلو حاله : إما أن يروى من كتابه، أو من حفظه؛ وهو إما أن يكون عالما أو أميا، بصيراً أو ضريرا، إلى غير ذلك؛ وضمنه إثني عشر بيتا للأصل، وأربعة وثلاثين من زيادات الذيل (106).

2 ـ القسم الثاني في جواز حذف بعض الخبر ـ اختصارا، وفي اختلافهم في تقطيع المتن وتفريقه؛ وضمنه ثلاثة أبيات للأصل، وبيتين إثنين للذيل(107).

3 ـ القسم الثالث في التحذير من اللحن والخطأ والتصحيف، وفي كيفية الإصلاح، ورواية الخطأ والصواب؛ وضمنه ستة عشر بيتا للأصل، وستة عشر أخرى للذيل (108).

4 ـ القسم الرابع في النهي عن الزيادة في نسب أو وصف شيخ من شيوخ السند؛ وعن زيادة ما لم يسمعه من الشيخ، وغير ذلك؛ وضمنه أربعة أبيات للأصل، وسبعة أبيات من زيادات الذيل (109).

5 ـ القسم الخامس في إعادة السند في نسخ اتحد إسنادها، وفي تقديم بعض المتون على أسانيدها؛ وضمنه خمسة عشر بيتا للأصل، ولم يذيل عليه المؤلف بشيء (110).

6 ـ القسم السادس في جواز إبدال الراوي النبي بالرسول، وعكسه، وفي بيان حال سامعه ـ إن كان فيه ما يوهنه؛ وضمنه خمسة أبيات للأصل، وأحد عشر بيتا من زيادات الذيل (111).

المبحث الثالث في آداب المحدث ـ وهو النوع الثاني والأربعون، وجعله أربعة أقسام :

1 ـ القسم الأول في بيان أشرف العلوم، وفي فضل علوم الحديث وأهله وضمنه سبعة أبيات للأصل، وثمانية أبيات للذيل (112).

2 ـ القسم الثاني في كون التحديث فرض عين أو كفاية، وفي وجوب الكف عن التحديث ـ خوفا من التخليط ـ لهرم أو عمى، أو اختلاط أو غير ذلك؛ وضمنه ثلاثة أبيات للأصل، واثنين وعشرين بيتا من زيادات الذيل (113).

3 ـ القسم الثالث في آداب المحدث عند تحديثه، وضمنه أربعة أبيات للأصل واثني عشر بيتا من زيادات الذيل (114).

4 ـ القسم الرابع في ترتيل الحديث، والثاني في إلقائه ودرسه، وعدم سرده سردا يمنع السامع من فهم بعضه؛ وضمنه أربعة عشر بيتا للأصل، وإثني عشر بيتا من زيادات الذيل (115).

المبحث الرابع في بيان ألقاب المحدثين، وهي : الحافظ، والمحدث، والمسند، والمبتدئ، والطالب، والراوي؛ ثم الحجة، والحاكم، والأمير ـ وهو النوع الثالث والأربعون، وما يتعلق به؛ وضمنه عشرة أبيات للأصل، وأحد عشر بيتا من زيادات الذيل (116).

المبحث الخامس في آداب طالب الحديث ـ وهو النوع الرابع والأربعون، وفيه أربعة أقسام :

1 ـ القسم الأول في تصحيح النية، واستعماله مكارم الأخلاق، وغير ذلك؛ وضمنه إثني عشر بيتا للأصل، وخمسة وأربعين بيتا من زيادات الذيل (117).

2 ـ القسم الثاني في كيفية وضع العلامة على الأصل المنتسخ منه للمقابلة، أو لذهاب فرعه؛ وفي الحض على فهم ما يسمعه، وسوى ذلك، وضمنه ستة أبيات للأصل، وبيتا واحدا للذيل (118).

3 ـ القسم الثالث في طلب حفظ الحديث وإتقانه، والمذاكرة فيه مع أهله؛ وفي طلب تصنيفه، إن كان أهلا لذلك؛ وفي حكم التصنيف وكيفيته، وما يتصل

(106) ورقة : 58 ـ (ب).
(107) ورقة : 58 ـ (ب).
(108) ورقة : 59 ـ (أ ب).
(109) ورقة : 60 ـ (أ).
(110) ورقة : 61 ـ (ب).
(111) ورقة : 62 ـ (أ).
(112) ورقة : 62 ـ (ب).
(113) ورقة : 63 ـ (أ ب).
(114) ورقة : 64 ـ (أ).
(115) ورقة : 65 ـ (ب)، 66 (أ).
(116) ورقة : 66 ـ (ب)، 67 (أ).
(117) ورقة : 67 ـ (ب)، 69 (أ ب).
(118) ورقة : 70 ـ (أ).

بذلك؛ وضمنه ثمانية أبيات للأصل، واثني عشر بيتا من زيادات الذيل (119).

4 ـ القسم الرابع في الرباعيات الجامعة لآداب الطالب، المنسوبة للإمام البخاري؛ وفي بيان من نسبها له، ومن أنكرها وجزم بوضعها، إلى غير ذلك؛ وسنتحدث عنها في تقييم الكتاب؛ وقد ضمنه سبعة وخمسين بيتا، كلها من زيادات الذيل (120).

المبحث السادس في العالي والنازل ـ وهو النوع الخامس والأربعون،ضمنه أحد عشر بيتا للأصل،وستة أبيات للذيل(121).

المبحث السابع في المسلسل ـ وهو النوع السادس والأربعون، وضمنه ستة أبيات للأصل، وستة أخرى للذيل (122).

المبحث الثامن في غريب ألفاظ الحديث ـ وهو النوع السابع والأربعون، وضمنه أربعة أبيات للأصل، وثلاثة أبيات من زيادات الذيل (123).

المبحث التاسع في المصحف والمحرف ـ وهو النوع الثامن والأربعون، والتاسع والأربعون، وضمنه ثمانية أبيات للأصل، وثلاثة عشر بيتا من زيادات الذيل (124).

المبحث العاشر في الناسخ والمنسوخ ـ وهو النوع الخمسون، وضمنه أربعة أبيات للأصل، وبيتا واحدا للذيل (125).

المبحث الحادي عشر في مختلف الحديث ـ وهو النوع الحادي والخمسون، وضمنه عشرة أبيات للأصل، ولم يذيل عليه المؤلف بشيء (126).

المبحث الثاني عشر في أسباب الحديث : ـ وهو النوع الثاني والخمسون، ضمنه أربعة أبيات للأصل فقط(127).

المبحث الثالث عشر في تواريخ المتون ـ وهو النوع الثالث والخمسون ـ وذلك من ألطف ما انفرد به صاحب الذيل، وضمنه خمسة أبيات :

أفرد تـــأليف تـــواريـــخ المتـــونْ
البـــدر يلقيني إمـــام ذي الفنـــونْ
إذ علم ذا النـــــوع جلي الرتب
جم الفـــوائـــد مـــزيـــل الشغب
ممـــا استفيـــد منـــه علم النـــاسخ
فكن لـــه صـــاحب فهم راســـخ
ويعرف التـــاريـــخ بـــالأول أو
بـــالقبـــل والبعـــد وغير ذاحكـــوا
كـــآخر الأمرين : شهر ستـــة
وكـــالوضـــوء المروي عن بريـــدة(128)

الباب الرابع : وفيه ثمانية عشر مبحثا :

المبحث الأول في معرفة الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وفيه ثلاثة أقسام :

1 ـ القسم الأول في تعريف الصحـــابي، وذكر مراتب الصحابة في رواية الحديث، وسوى ذلك، وهو النوع الرابع والخمسون، وضمنه خمسة عشر بيتا، للأصل، وواحدا وثلاثين بيتا من زيادات الذيل (129).

2 ـ القسم الثاني في اختلافهم في تعداد الصحابة، وفي بيان طبقاتهم، وما يتصل بذلك، وضمنه تسعة عشر بيتا للأصل، وثمانية وعشرين للذيل (130).

3 ـ القسم الثالث في ذكر من مات أخيرا من الصحابة، وذكر أماكن موتهم، وضمنه أحد عشر بيتا للأصل، وستة أبيات للذيل (131).

المبحث الثاني في معرفة التابعين وأتباعهم وطبقاتهم، وفي المخضرمين وعددهم، وهو النوع الخامس والخمسون،

---

119) ورقة : 70 ـ (ب).
120) ورقة : 71 ـ (أ ب)، 72 (أ ب).
121) ورقة : 73 ـ (أ ب).
122) ورقة : 73 ـ (ب).
123) ورقة : نفسها.
124) ورقة : 74 ـ (أ ب).
125) ورقة : 74 ـ (ب).
126) ورقة : 75 ـ (أ).
127) ورقة : نفسها.
128) نفس الورقة.
129) ورقة : 75 ـ (ب)، 77 (أ ب).
130) ورقة : 78 ـ (أ ب).
131) ورقة : 79 ـ (أ ب).

ضمنه اثني عشر بيتا للأصل، وواحدا وخمسين بيتا من زيادات الذيل (132).

المبحث الثالث في رواية الأبر عن الأصاغر، والصحابة عن التابعين، والأصل في ذلك، - وهو النوع السادس والخمسون، وضمنه أربعة أبيات للأصل، وثلاثة وعشرين بيتا من زيادات الذيل (133).

المبحث الرابع في رواية الصحابة عن التابعين، عن الصحابة، - وهو النوع السابع والخمسون، ضمنه ثلاثة أبيات للأصل، وستة أبيات من زيادات الذيل (134).

المبحث الخامس في رواية الأقران، وهو النوع الثامن والخمسون، ضمنه عشرة أبيات للأصل، وثمانية أبيات للذيل (135).

المبحث السادس في الإخوة والأخوات - وهو النوع التاسع والخمسون، وضمنه خمسة أبيات للأصل، وتسعة أبيات للذيل (136).

المبحث السابع في رواية الآباء عن الأبناء وعكسه، - وهو النوع الستون، والحادي والستون، وضمنه سبعة أبيات للأصل، وستة أبيات للذيل (137).

المبحث الثامن في السابق واللاحق - وهو النوع الثاني والستون، ضمنه خمسة أبيات للأصل، وأربعة عشر بيتا من زيادات الذيل (138).

المبحث التاسع فيمن روى عن شيخ، ثم روى عن غيره عنه - وهو النوع الثالث والستون، ضمنه بيتين للأصل، وبيتا واحداً للذيل (139).

المبحث العاشر في الوحدان - وهو النوع الرابع والستون، وضمنه خمسة أبيات للأصل، ولم يذيل عليه بشيء (140).

132) ورقة : 79 - (ب)، 82 (أ ب).
133) ورقة : 83 - (أ ب).
134) ورقة : 83 - (ب).
135) ورقة : 84 - (أ ب).
136) ورقة : 85 - (أ ب).
137) ورقة : 86 - (أ).
138) ورقة : 86 - (ب)، 87 (أ).
139) ورقة : 87 - (ب).
140) ورقة : نفسها.

المبحث الحادي عشر فيمن لم يرو إلا حديثا واحدا - وهو النوع الخامس والستون، وضمنه ثلاثة أبيات للأصل، وسبعة أبيات للذيل (141).

المبحث الثاني عشر فيمن لم يرو إلا عن واحد - وهو النوع السادس والستون، وضمنه ثلاثة أبيات للأصل، ولم يذيل عليه بشيء (142).

المبحث الثالث عشر فيمن أسند عن النبي ﷺ حديثا من الصحابة الذين ماتوا في حياته - عليه السلام - وهو النوع السابع والستون، ضمنه بيتين للأصل، وبيتين آخرين للذيل (143).

المبحث الرابع عشر فيمن ذكر بنعوت وصفات متعددة - وهو النوع الثامن والستون، ضمنه أربعة أبيات للأصل، وتسعة أبيات للذيل (144).

المبحث الخامس عشر في أفراد العلم - وهو النوع التاسع والستون، ضمنه أربعة أبيات للأصل، وبيتين اثنين للذيل (145).

المبحث السادس عشر في الأسماء والكنى، وهو النوع السبعون، وضمنه ستة أبيات للأصل، وثمانية وثلاثين بيتا من زيادات الذيل (146).

المبحث السابع عشر في أنواع عشرة من الأسماء والكنى - مزيدة على ما في مقدمة ابن الصلاح، وألفية العراقي، وهي مأخوذة من كلام ابن حجر في النخبة وغيرها، - وفيه أنواع عشرة، من النوع الحادي والسبعين - إلى النوع الثمانين - بدخول الغاية، ضمنه ثمانية عشر بيتا للأصل، واثنين وأربعين بيتا من زيادات الذيل (147).

المبحث الثامن عشر في الألقاب - وهو النوع الحادي والثمانون، ضمنه ثلاثة أبيات للأصل، وأربعة وعشرين من زيادات الذيل (148).

141) ورقة : 88 - (أ).
142) ورقة : نفسها.
143) ورقة : 88 - (ب).
144) ورقة : نفسها.
145) ورقة : 89 - (أ ب)، 90 (أ ب).
146) ورقة : 91 - (أ ب)، 93 (أ).
147) ورقة : 93 - (ب)، 94 (أ).
148) ورقة : 94 - (ب).

الباب الخامس : وفيه أربعة عشر مبحثا :

المبحث الأول في المؤتلف والمختلف - وهو النوع الثاني والثمانون، وفيه ثمانية أقسام :

1 - القسم الأول في بيان أهمية هذا النوع، وأنه لا يعرف بالقياس والضبط، وإنما يعرف بالنقل والحفظ، وفي الترغيب في الاعتناء به، إلى غير ذلك، وضمته أربعة أبيات للأصل، وسبعة أبيات للذيل (149).

2 - القسم الثاني في ذكر جملة من المؤتلف والمختلف - على سبيل العموم - من غير اختصاص بكتاب معني - كأسفع، وأسقع، وضمنه سبعة أبيات للأصل، وبيتين اثنين للذيل (150).

3 - القسم الثالث في ذكر جملة منها أيضا على العموم كأمنة، وأمية، وآمنة... وضمنه ثلاثة عشر بيتا للأصل، وعشرة أبيات للذيل (151).

4 - القسم الرابع في جملة أخرى على سبيل العموم - مبتداة بالخدري، وضمنه ستة عشر بيتا للأصل، وستة أبيات للذيل (152).

5 - القسم الخامس في تخصيص أفراد بعض البلدان، وفي ذكر رجال بأسمائهم، أو بكناهم، وغير ذلك، ضمنه سبعة أبيات للأصل، وتسعة أبيات للذيل (153).

6 - القسم السادس في ذكر جملة من المؤتلف والمختلف - مختصة بصحيح البخاري، وضمنه خمسة عشر بيتا للأصل، وعشرة أبيات للذيل (154).

7 - القسم السابع في ذكر جملة أخرى مختصة بصحيح البخاري أيضا، ضمنه سبعة وعشرين بيتا للأصل، وسبعة عشر بيتا للذيل (155).

8 - القسم الثامن في جملة من المؤتلف والمختلف - مختصة بصحيح مسلم، ضمنه خمسة عشر بيتا للأصل، وستة أبيات للذيل (156).

---

149) ورقة : 95 - (أ).
150) ورقة : 95 - (ب).
151) ورقة : 96 - (أ).
152) ورقة : 96 - (ب)، 97 (أ).
153) ورقة : 97 - (ب).
154) ورقة : 99 - (أ ب)، 100 (أ).
155) ورقة : 100 - (ب)، 101 (أ).

المبحث الثاني في بيان ذيل النوع المتقدم (المؤتلف والمختلف)ورتبه على مقدمة ومقصد،وخاتمة، وضمنه(182) بيتا (157).

أشار في المقدمة إلى كثرة جزئيات هذا النوع :

هذا وجزئيات هذا النوع
كثيرة قد أفردت بالجمع
وقد قصدت نظم ما لم يذكر
منها لتنشيط مريد الخبر
قطفتها من هدي ذي المعالي
والبعض من خلاصة الكمال (158)
رتبتها على حروف المعجم ليسهل الأخذ عليك
فأعلم...

وجعل المقصد قسمين :

- القسم الأول في الأسماء والكنى المشتبهة داخل الكتاب، وفيما خمسة ملاحق :

1 - الملحق الأول في حرف الألف :

فإن ترد مشتبها لدى الكتاب
فهاكها في النظم مكشوف النقاب
من ذاك اخزم بخاء معجمة
وليس فيه أحزم بمهملة... (159)

2 - الملحق الثاني في حرف الباء - إلى آخر الخاء :

برة اسم بنت أم سلمة
كذا لزوجي طه قد كان يمة
ابنة جحش مع بنت الحارث
غيرها النبي خوف النفث...(160)

3 - الملحق الثالث في حرف الدال المهملة - إلى آخر الظاء المشالة المعجمة :

داود جم في الرجال الجلة
ودلهم وديلم قل جملة
رباب بالفتح وبالكسر رباب

---

156) ورقة : 103 - 104 (أ ب).
157) ورقة : 104 - (ب)، 105 (أ).
158) ورقة : 105 (ب).
159) الورقة نفسها.
160) نفس الورقة.

واهمزه ثم ضم وافتحن زنـابُ...(161)

4 ـ الملحق الرابع في حرف العين ـ إلى آخر الكاف :

وليس في الصحب ولا الاتباع

عبد الرحيم قل بلا نزاع (162)

5 ـ الملحق الخامس في حرف الميم ـ إلى النون ـ وهو آخر هذا القسم :

مبارك مع المثنى مجزاهْ

مجمع محرر خُذ نباهْ

مينا معتب مغيث المخزومي

مخرم شيخ البخاري فاعلم...(163)

القسم الثاني في المشتبه خارج الكتاب، وفيه سبعة ملاحق :

1 ـ الملحق الأول في حرف الألف إلى آخر الثاء :

هبان اسكاب كذا الاسكافْ

وأجلح أويسهمْ عفافْ...(164)

2 ـ الملحق الثاني في حرف الجيم إلى آخر الخاء المعجمة :

الجملى جبريل نجل أحمر

وجرهد نجل رزاح السري

جنادة ثم جنيد جندب

جبارة نجل المفلس أوهبوا...(165)

3 ـ الملحق الثالث في حرف الدال المهملة ـ إلى الشين المعجمة :

دحية بالكسر وضم دخثم

مما ونونا ثم تصغير نمي

ثم أبو ليلى دخين الحجري

مع الدخيل ابن اياس يجري...(166)

4 ـ الملحق الرابع في حرف الصاد إلى آخر الغين المعجمة :

أم صبية صغر ثم صرد

ضضام طرخان صرار الكسر تُقَدْ

علي بالتكبير وزنه كثيرْ

أما المصغر فنفيه شهيرْ..(167)

5 ـ الملحق الخامس في حرف الفاء ـ إلى آخر القاف :

فطر وفائت وفروة قُرَاتْ

فضالة وفرج ـ لا بدآتْ

والفضل والفضيل نجل الجحْدَرِي

وفاتك والفاكه الصحب السري...(168)

6 ـ الملحق السادس في حرف الكاف إلى آخر الميم :

أبو كدينة وكردوس أتى

ثم أبو كبشة خذه مُثْبتا

صغر كويبا وكليبا وكُمَيْلْ

كنار كنار(169) كنان وكهيلْ...(169)

7 ـ الملحق السابع في حرف النون ـ إلى آخر الياء :

ونسبوا النحوي للقبيل

وتارة للعلم يا خليي

فما نسب إلى قبيلة النحو يَزِيدْ

بالاتفاق ابن الرضى أبي سَعِيدْ(170)

وختم تذييله هذا على (المؤتلف والمختلف) بقوله :

هذا تمام ما أردت ذكره

فاحفظه كالأصل تنال خيره

وما بقي منه فراجع أصله

حيث هديت واشكرن أهله

إذ بحر أسماء الرجال زاخر

ليس يخوض فيه إلا الماهر

وجاهل السبح كمثلي عاجز

عن خوضه إذ دونه حواجز...(171)

المبحث الثالث في المتفق والمفترق ـ وهو النوع الثالث والثمانون، وضمنه أربعة عشر بيتا للأصل، واثنين

(161) ورقة : 106 ـ (أ ب).
(162) ورقة : 107 ـ (أ).
(163) ورقة : 107 ـ (ب)، 108 (أ).
(164) ورقة : 108 ـ (ب).
(165) ورقة : 109 ـ (أ).
(166) ورقة : 109 ـ (ب).

(167) ورقة : نفسها.
(168) الأول بالفتح والثاني بالكسر. وليس ذلك مكررا ـ كما توهمه عبارة المؤلف.
(169) ورقة : 109 ـ (ب).
(170) ورقة : 110 ـ (أ ب).
(171) ورقة : 111 ـ (أ ب).

وعشرين بيتا من زيادات الذيل (172).

المبحث الرابع في المتشابه بالنوعين المتقدمين (المؤتلف والمختلف، والمتفق والفترق) - وهو النوع الرابع والثمانون، ضمنه سبعة أبيات للأصل، ولم يذيل عليه بشيء (173).

المبحث الخامس في المشتبه المقلوب - وهو النوع الخامس والثمانون، ضمنه بيتين للأصل - بدون تذييل (174).

المبحث السادس فيمن نسب إلى غير أبيه - وهو النوع السادس والثمانون ضمنه ثلاثة أبيات، ولم يذيل عليه بشيء (175).

المبحث السابع فيمن نسب إلى خلاف الظاهر - وهو النوع السابع والثمانون، ضمنه بيتين للأصل، وثمانية أبيات من زيادات الذيل (176).

المبحث الثامن في المبهمات - وهو النوع الثامن والثمانون، وفيه فصلان :

1 - الفصل الأول في حد المبهم وما يتصل بذلك، ضمنه بيتين للأصل، وأربعة عشرة بيتا من زيادات الذيل (177).

2 - الفصل الثاني في مواضع المبهمات، وبيان المقبول منها والمردود، وضمنه بيتين للأصل، وخمسة أبيات للذيل (178).

المبحث التاسع في معرفة الثقات والضعفاء - وهو النوع التاسع والثمانون، ضمنه ثمانية أبيات للأصل، وتسعة وخمسين بيتا من زيادات الذيل (179).

المبحث العاشر فيمن خلط من الثقاة - وهو النوع التسعون، ضمنه ثلاثة أبيات للأصل، وعشرة أبيات من زيادات الذيل (180).

المبحث الحادي عشر في طبقات الرواة - وهو النوع الواحد والتسعون، ضمنه ثلاثة أبيات للأصل، وبيتين للذيل (181).

المبحث الثاني عشر في معرفة أوطان الرواة وبلدانهم - وهو النوع الواحد والتسعون - ضمنه ثلاثة أبيات للأصل، وأربعة عشر بيتا من زيادات الذيل (183).

المبحث الثالث عشر في معرفة الموالي - وهو النوع الثالث والتسعون، ضمنه بيتين للأصل، وتسعة أبيات للذيل (184).

المبحث الرابع عشر في تواريخ الرواة - وهو النوع الرابع والتسعون، ضمنه أربعة وثلاثين بيتا للأصل، وخمسة عشر بيتا من زيادات الذيل (185).

أما الخاتمة، فقد ضمنها ذيلا خاصا بتواريخ الرواة - عبر ثلاثة عشر قرنا، سنتحدث عن ذلك بشيء من التفصيل في عدد قادم بحول الله.

تطوان :   سعيد أعراب

---

(172) ورقة : نفسها.
(173) نفس ورقة.
(174) ورقة : نفسها.
(175) ورقة : 113 - (ب).
(176) ورقة : 114 - (أ).
(177) ورقة : 114 - (ب).
(178) ورقة : 115 - (أب).
(179) ورقة : 117 - (ب).
(180) الورقة نفسها.
(181) ورقة : نفسها.
(182) ورقة : 118 - (أ).
(183) ورقة : 118 - (ب).
(184) ورقة : 119 - (أ)، 121 (أ ب).

الزاوية المغربية

كمنتدى للفكر والاشعاع العلمي

للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله

الحلقة الأولى

تبلورت الزعامة العلمية خلال القرن الحادي عشر في ثلاثة من قادة الصوفية هم (1) السادة : محمد بن ناصر رئيس زاوية درعة بالصحراء ومحمد ابن أبي بكر المجاطي رئيس زاوية الدلاء بالاطلس ، وعبد القادر الفاسي الفهري صاحب زاوية المخفية بفاس .

وقد انتشرت الزوايا كمساجد في القارة الافريقية وكان لها دور كبير — كما اكد ذلك الامير شكيب أرسلان (2) في الكفاح ضد الاستعمار وفي دعم المد الاسلامي عبر القارة ، وقد أشار كثير من المؤرخين الغربيين الى ذلك حيث لاحظوا ان الاستعمار وخاصة الفرنسي كان يعتبر الزوايا الافريقية العدو اللدود وبداخله الرعب ، كما كانت اوربا تضطرب هلعا من ذكريات الجمعيات السرية السياسية (3) .

وقد أكد بوني موري (4) ان الاسلام كان من شأنه ان يغزو افريقيا عن بكره ابيها لولا الضربة التي انزلتها فرنسا بالطريقة التجانية فتوقفت على غرار توقف المد الاسلامي في اوربا عن طريق شارل مارتيل في بواتيي ببلاط الشهداء ، ومهما يكن فان المستعمرين قد لمسوا اكثر من غيرهم تلك القدرة الكبرى على الصمود والمقاومة التي خولتها الطرق الصوفية للزحف الاسلامي في افريقيا (5) .

وقد برز دور الزوايا الصوفية خاصة في الصحراء والاطلس حيث انبرى الدلائيون والناصريون ومئات الزوايا الاخرى في الاطالس والريف وبالاخص الاطلس الصغير (سوس) لنشر الوعي الاسلامي وثقافة القرءان والسنة المطهرة .

ومن هذه الزوايا العلمية (زوايا بني نعمان) من اهل (يعزى وهدى) البكريين وهي المدرسة المشهورة بالنعمانية بين القرنين السابع والثامن بسوس حيث بلغ صيتها مؤرخ ذلك العصر عبد الرحمان بن خلدون فأشار اليها في تاريخه وسماها (زوايا بني نعمان) .

ويتوارد على هذه المدرسة الى الآن طلبة صحراويون يتابعون دروسهم من الابتدائي الى العالي

---

(1) حسب صاحب (نشر المثاني) ج 1 ص 156 .
(2) حاضر العالم الاسلامي ج 2 ص 398 .
(3) المعرب المجهول — موليراس ص 105 .
(4) في كتابه : (الاسلام والمسيحية في افريقيا) Bonnet Moury
(5) كودار في كتابه : (وصف وتاريخ المغرب) (ج 1 ص : 105)

في الفنون كلها انطلاقا من المتون مرتبة على ايام الاسبوع الخمسة (عدا الخميس والجمعة) (6) .

وزاوية (تمكيد شت) ثانية الزوايا العلمية الكبار التي تذكر آولاها منذ القرن الحادي عشر وهي زاوية تامكروت ، ولا تعرف لها ثالثة منذ ثلاثة قرون من وادي درعة الى وادي نول في الخط المسامت للصحراء ، وقد اسستا على التصوف ، ولكن همم رجالاتهما اتجهت الى بث المعارف وتقرب منها بقدر فرسخ (ثمانية كيلو مترات فارسية) مدرسة سيدي بوعبدلي .

ومن زاوية تيمكيرشت تخرج علماء افذاذ من اولاد ابي السباع والشياظمة والرحامنة ومسفيوة وكدميوة وجزولة وآيت باعمران ، وتعتبر زاوية او مدرسة الحضيكي هامشية بالنسبة اليها ولفكرة الطرقية والزوايا في الصحراء الافريقية والمغربية خاصة صلة وثيقة بفكرة النسبة النبوية ، اي الشرف من جهة او المرابطة من جهة اخرى ، وكثير من الاشراف يعرفون بالمرابطين ، اذ ان الرباط كان النواة الاولى للزاوية يعد فيها المؤمن للجهادين الاصغر والاكبر ، ومن هنا انصهرت الفكرتان في تصوف سني مرتكز على دراسة دقيقة للمعارف الاسلامية ، فتطورت الزاوية على هذا النسق من رباط الى زاوية الى مدرسة ، وكان لذلك أثره منذ العهد المريني في الحواضر حيث ارتبطت المدرسة بالزاوية (زاوية النساك بسلا وشالة) في اطار مسجد قد يعزز بكتاب او مسيد ـ تصغير مسجد ـ او خلوة (كما في السودان) للتكتيب وتدريس القرءان وحفظ المتون ، وقد كان لشيوخ الطرق نفوذ واسع في هذه الاقاليم ، ففي الصحراء العربية بلغ نفوذ القادريين والتجانين مبلغا جعل المستعمر يحسب لهم الف حساب ، وقد قام زعيم الطائفة التجانية في (فوتة) السلطان الشيخ عمر الفوتي بمحاربة الفرنسيين ، ويظهر ان نفوذ الطرقية تزايد منذ عهد ملوك بني مرين ثم السعديين حيث كان لزاوية كرزاز عام 1008 هـ ـ 1599 م ضلع في بلورة الاستقرار السياسي بفضل تحالف سكان القبائل لنصرة الاشراف ورجال الدين ، وكانت كل قبيلة تبذل النفس والنفيس لايواء هؤلاء الشيوخ رعاية لاستقامتهم وسلفيتهم ، ففي عام 1011 هـ 1601 م غادر الشيخ بو علي بن حمود حمان مسقط رأسه بعين الشعير ليستقر في (قصر بلغازي) حيث هب الاعيان من كل دوائر (توات) لتحيته والسلام عليه اذ اعتبروه حكما عدلا في تسوية بعض المنازعات القبلية ، ولكن اعيان بلده (عين الشعير) ما لبثوا ان انتفضوا وعلى راسهم شيخ القنادسة سيدي محمد بوزيان متوسلين اليه بالعودة الى بلده فعاد في بالغ التكريم ، وقد قام القادريون في (الساقية الحمراء) بالدعوة الى الاسلام ساعدهم في ذلك برابرة طردوا من اسبانيا بعد سقوط غرناطة عام 898 هـ ـ 1492م وقد نشر السيد طوماس ارنولد Sir Thomas Warnold في الكتاب الذي ترجمه ثلة من الاساتذة ، منهم الدكتور حسن ابراهيم حسن ، ونشر بالقاهرة عام 1957 بعنوان (الدعوة الاسلامية) (ص 151) : نداء وجهه شيخ الطريقة القادرية آنذاك الى هؤلاء البرابرة الدعاة مذكرا بالواجب الذي القي على عاتقهم لحمل مشعل الاسلام الى تلك الاصقاع نظرا لانعدام المدارس وشيوخ يلقنونهم مبادىء الاخلاق وفضائل الاسلام في الصحراء ، وقد انطلق الدعاة جماعات جماعات تتالف من خمسة او ستة افراد الى جهات مختلفة في وقت واحد في اسمال بالية كل واحد عكازه في يده فبنوا الخلوات في الكهوف واثار تقشفهم وطول تعبدهم فضول القبائل الصحراوية التي بادلتهم الصداقة والود واصبحت كل زاوية وكل خلوة مركزا من مراكز التعليم الاسلامي واجتمع حولهم طلاب العلم واصبح هؤلاء الطلاب بعد فترة من الزمن دعاة الى الاسلام بين قومهم (7) .

اما نوعية الطرق التي عرفها باقي العالم الاسلامي فقد اوصلها ابو سالم العياشي (المتوفى عام 1090 هـ) الى اربعين باعتبار ما كان موجودا في زمنه ، اي القرن الحادي عشر الهجري ، وقد اضاف اليها محمد الصغير بن عبد الرحمان الفاسي الفهري

---

(6) المعسول للشيخ المختار السوسي ج 13 ص 9 .

(7) مقدمة كتاب (أولياء الاسلام) بقلم تروملي
G. Trumelet
(les Saints de l'Islam - introduction)

(المتوفى عام 1134 هـ) (8) بعض الطرق المغربية والاندلسية ، وقد لاحظ ابن عسكر (9) ان الطريقة الميمونية بالمشرق كالطريقة الشاذلية بالمغرب ، وكل من الشيخين علي بن ميمون والشاذلي مغربي، اذ امام الشاذلية هو ابو الحسن الشاذلي الغماري تلميذ مولاي عبد السلام بن مشيش ، وقد اشار العربي المشرفي في كتابه (الحسام المشرفي) الى اشهر الزوايا المغربية في عصره وهي زوايا وزان وتمكروت وسيدي الغازي وسيدي احمد الحبيب وكرزاز والقندوسية والكنتية والبقالية (10) .

وقد اطلق اسم الزاوية على مدن تفرعت عن هذه النوال كزاوية ابي محمد صالح (اسفي) وزاوية آيت اسحاق بل حتى في الاندلس اطلق اسم الزاوية على قرية من اقاليم (اكشونية) وحلق الزاوية قريبة من شلب (11) ، ولا تعتبر الاضرحة كلها زوايا بل هي مساجد فقط ، تضم جثمان لبعض كبار ائمة الصوفية كسيدي احمد بن عاشر وسيد عبد الله بن حسون في سلا .

زوايا المغرب وصحرائه

1 ـ زاوية آيت عياش :

راجع كتاب (الاحياء والانتعاش في تراجم سادات زاوية آيت عياش) لعبد الله بن عمر العياشي (من رجال القرن الثاني عشر) .
(خع 1433 د) .
وهي المعروفة ايضا بالزاوية العياشية .

2 ـ زاوية ابي بكر الفلالي : هي زاوية تابعة للسباعيين من آل عبد المعطي بحوز مراكش .

3 ـ زاوية ابي الجعد : هي زاوية آل الشرقي وقد نقم السلطان سيدي محمد بن عبد الله على كبيرها لوقته المرابط سيدي محمد العربي بن سيدي المعطي بن الصالح ، فأمر عام 1199 هـ/ 1784 م ـ خلال مروره الى مراكش بتادلا ـ بهدمها وطرد الغرباء الملتفين على آل الشيخ بها ، ونقل الشيخ سيدي العربي وعشيرته الى مراكش حيث مكثوا الى ان اذن لهم ولده المولى هشام بالعودة الى زاويتهم ، ثم نقم المولى سليمان ثانية على سيدي العربي فأمر بنقله الى فاس حيث اقام مدة ارجعه بعدها الى بلاده .
(الاستقصا ج 4 ص 117 / الوثائق المغربية ج 9 ص 346) ، راجع (الزاوية الشرقاوية في ابي الجعد اواخر القرن الماضي) .
وهو بحث للاستاذ ايكلمان

في نشرة جمعية تاريخ المغرب (عدد 4 ـ 5) الرباط 1972 ـ 1973 .

4 ـ زاوية ابي زكرياء من حفدة سيدي يعزى ويهدى ، دفين (زاوية اسا) ، وتوجد له زاوية بسلا قبل القرن الثامن . DAL. F. Eickelman

راجع (ابن قنفذ) في كتابه « انس الفقير » وابن مرزوق في « المسند الصحيح الحسن » ومن هذه الاسرة خاتمة المحققين محمد بن سعيد المرغيثي (المعسول ج 10 ص 183) .

5 ـ زاوية ابي الشكاوي بشالة (قرب الرباط) لعلي ابن منصور البوزيدي (1004 هـ / 1595 م) .

6 ـ زاوية ابي عنان او الزاوية العنانية : ذكرها ابن بطوطة في رحلته (ص 22 و 177) ـ الطبعة الاولى ـ مطبعة وادي النيل ـ القاهرة (عام 1287) وهي اعظم زاوية شهدها بن بطوطة في المغرب والمشرق تقع على (غدير الحمص) اي وادي الجواهر خارج المدينة البيضاء (فاس الجديد) ، وقد اكد محمد بن علي الدكالي السلوي (الكناشة العلمية ص 278) ان الدلائيين جددوا بناءها ايام نفوذهم بفاس .

---

(8) في (الاسانيد العالية والمرويات الزاهية والطرق الهادية الكافية) (وهي غير المنح البادية في الاسانيد العالية لابي مهدي عيسى الثعالبي) في القسم الثالث منها ، (الكتاب موجود في خمس عشرة كراسة من حجم متوسط) .
(9) الدوحة (ص 123) في ترجمة علي بن ميمون.
(10) مخطوط في خع 2276 ك (ص 112 ـ 357).
(11) الحلل السندسية ج 1 ص 87 .

7 ـ زاوية ابي محمد صالح : هي نـواة مدينـة اسفي حيث دفن ابو محمد في صدر المائـة الثامنة ، وكانت طريقته مبنية على تنظيم الحج بحيث كان له ركب للحجيج يسمـى المركـب الصالحي يتوجه الى الحجاز مـن اسفـي ، (المنهاج الواضـح ص 352 / السلـوة ج 2 ص 42 / الديباج المذهب ص 132) .

ولابي محمد صالح تاليف في التصوف توجـد نسخة منه في (خم 4376) وكان لحفيده أبي العباس احمد بن يوسف شان وقد مدحه ابـن الخطيب السلماني (الاستقصا ج 2 ص 109).

8 ـ زاوية احمد بن عبد القادر التستاوتـي بسلا (الاعلام للمراكشي ج5 ص 62) (الطبعة الاولى).

9 ـ زاويـة سيـدي احمد بن علـي الحنفي .

10 ـ الزاوية الاحمدية اي زاوية سيدي احمد بن مـوسى . (راجـع العابديـــن) .
والاحمدية أيضا طريقة الصوفـي الفـاسي احمد بن علي البدوي المتوفـى بطاطا عـام (673 هـ ـ 1277 م) .

وقد صنف فيها علي بن برهان الدين ابراهيـم الحلبـي الشافعـي (1044 هـ ـ 1635 م) كتابه (النصيحة العلوية في بيان حسن طريقة السادة الاحمدية) (خع 1827 د) (68 ورقة) (الاعلام للزركلي ج 5 ص 55 / ملحق بروكلمان ج 2 ص 418) .

11 ـ زاوية احنصال : احدى جماعـات دائـرة ازيلال (عمالة بني ملال) (نواتها زاوية) .

12 ـ زاوية أسا بدائرة اكلميم : زاوية تاسست في اقليم تكنة حوالي القرن الحادي عشر بعـد طرد المشركين من تيزكي ـ سلام والقضـاء على قصر ادروم ، وقد تجمعت حول هـذه الزاوية عناصر من اصول مختلفة هي التـي كونـت آيـت اوسـي

m. de Furst, Etude sur la tribu des Aït Assa

واول هذه العناصر اهل حمو وعلـي الذيـن ضربوا خيامهم في ايفران وتكجيست وهـم الذين اسسوا مسجد (اسا) وقد انضم الى الزاوية بعد ذلك اهل اجواكين الواردين مـن تاجاكانت واهل اكوارير وهم محارزة تيميمون بكورارة ، ويظهر ان زاوية (اسا) انشاهـا شيخ صوفي توفي عـام 500 هـ ـ 1107 م حسب وثيقة محفوظة في الزاوية ، ويقام سوق سنـوي لحـد الآن بهذا المكـان .

وقد كان لهذه الزاوية صيت كبير حدا الشيخ الكبير محمد بن احمد الحضيكي الى النزول بها وقد توفي عـام (1189 هـ ـ 1775 م) وهو صاحب الشرح على الهمزية للبوصيري (خع 1658 د) ، وقد دفن بهذه الزاويـة (يعزى ابن وهدى) المتوفى عام (726 هـ ـ 1325 م) وتوجد مذكرات مجهولة المؤلف في حياته وقع النقل عنها الى القـرن العاشر .خصرها محمد بن عمرو السوسي الاسريري من رجال القرن التاسع وسماها (الهدى في اخبار آل يعزى وهـدى) ، (راجع دليـل المـؤرخ رقـم 860) .

13 ـ زاويـة سيـدي اسماعيـل بدكالـة اشار المؤرخ البرتغالي (لويز) الى السيـد سعيد الدكالي فلاحظ صاحب الاستقصا انه ربما كان هو والد سيدي اسماعيل صاحـب زاوية دكالة ، وقد اكد (لويز) ان سعيدا هذا جمع في الجبل الاخضر اثنـي عشر الـف مقاتل وزحف بهم على الجديدة التـي كـان يحتلها البرتغاليون وانضم اليه قائد ازمـور وبعض اشياخ الشاوية في 250 من الخيل ، ولكن سعيدا مات أثناء الحصـار فافتـرق الجمع حوالي عـام 1034 هـ ـ 1624 م . (الاستقصـا ج 3 ص 127) .

14 ـ زاوية آغلان بدرعة : مؤسسـها محمد بـن محمد بن عبـد الله بن الحسين الـدرعـي الورزازي المتوفى بمكة (1174 هـ ـ 1761م) (فهـرس الفهـارس ج 2 ص 429) .
وهو صاحب شرح (المقنع في علم ابى مقرع) خـع 1074 د / 1467 د / 1673 د .
ملحـق بروكلمـان (ج 2 ص 707) .

15 ـ الزاوية الالغية : اسسـها الشيخ علي بن احمد السـوسي والد صديقنا المرحوم الشيخ محمد

المختار السوسي الذي صنف (منية المتطلعين الى من في الزاوية الالفية من المنقطعين) جمع فيه زهاء مائة وسبعين من تلامذة والده والملازمين له (تقع في جزء صغير طبع على الحروف في 125 ص) .

16 ـ زاوية الامان هي زاوية سيدي حسين بن شرحبيل بسوس الاقصى ، وقد ولي امرها بعد وفاة عمه سيدي احمد بن ناصر الشيخ موسى بن محمد بن محمد بن محمد بن احمد ابن حسين والد مؤلف (الدرر المرصعة) (1142 هـ ـ 1729 م) (الاعلام للمراكشي ج 7 ص 237) .

17 ـ زاوية البركة بدرعة : ذكر الزياني في رحلته ان « أحسن ما في مغربنا من الزوايا الزاوية الناصرية الموسومة بزاوية البركة وطائفتهم احسن الطوائف » .

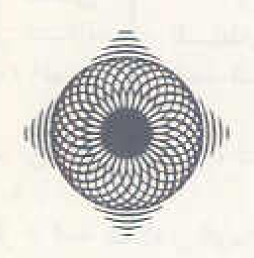
18 ـ زاوية سيدي البكري : منذ منتصف القرن التاسع الهجري تواردت على قصر اولاد امحمد بتامنطيت جماعة اولاد سيدي البكري التي ظهر فيها علماء كبار انتسبوا الى امراء بني مرين او الى الاشراف الادارسة ، وقد برز بعد وفاة المنصور السعدي زعيم هذه العائلة وهو سيدي محمد البكري الذي حج واقام بالقاهرة واستجاز واجاز جملة من علماء العالم الاسلامي ، وقد اسس حوالي 1028 هـ ـ 1618 م زاوية قرب (تزدايا) ما لبثت ان اصبحت مهبط رواد الفكر في هذا الجزء من الصحراء ، ولم يخل نشاطها الروحي من التأثير على الحياة السياسية في البلاد ، وهذه الفترة من تاريخ المغرب قد عرفت قيام زوايا اخرى كالزاوية الدلائية وزاوية تامكروت افاد منها كل من الاطلس والصحراء ، وقد كان لزاوية (سيدي البكري) علاقات مع ملوك السودان حسب رسالتين اوردهما (مارتان) Martin في كتابه (اربعة قرون ص 44) ، غير ان هذا النوع من الاتصال كان طبيعيا بين شيخ زاوية وبين السودان التي دعم الرابطة بها المنصور السعدي قبل ذلك بعقدين من السنين ، وقد ظلت هذه الرابطة موصولة سياسيا ودينيا وحضاريا الى عهد الحسن الاول أوائل القرن الهجري الرابع عشر .

والزاوية البكرية بالرباط يوجد حولها مخطوط في (خع 972 د) (راجع دليل المؤرخ رقم 139) ، (راجع المقالة او المقامة الفكرية في محاسن الزاوية البكرية) (كراسة) لمحمد بن احمد الدلائي المناوي المتوفى عام 1136 هـ ـ 1723 م .

19 ـ زاوية البور (في اولوز) برأس الوادي : يوجد بها اولاد سيدي علي بن الشيخ سيدي محمد بن ناصر حيث سكن مولاي علي هذا والعقب وابناؤه هم الناصريون السوسيون (المعسول ج 10 ص 34) .

20 ـ زاوية سيدي بوسونة : اخذ بها السلطان مولاي محمد بن عبد الرحمن سنده في الرماية عن اناس من حمير ، وكانت الرماية احد المشاغل السنية لهذه الزاوية

(الاعلام للمراكشي ج 6 ص 382 ـ طبعة الرباط لدى ترجمة السلطان) .





من المغرب إلى ليبيا

تقديم وتحقيق : الأستاذ محمد المنوني

مقدمــــــــة :

يمتاز النصف الاول من القرن الثالــث عشر للهجرة بنشاط متزايد للاتصالات وتوطيد العلاقات بين المغرب الاقصى من جهة ، واقطار المغرب العربــي والسودان الغربي من جهة أخرى ، وقد أسهم السلطان العلوي المولى سليمان بنصيب فى تنمية هذا التعاون ، ومواصلة سيرة اسلافه فى هذا الميدان ، وأول بادرة منه في هذا الصدد : هي المعونة العسكرية التي قدمها المغرب الى ليبية ضد حصــار مدينــة طرابلس من طــرف الاسطـــول الامريكـــي .

ففي عام 1217 هـ ــ 1803 م وجهت امريكــا اسطولها الحربي لحصار « طرابلس » التــي كانــت سفنها تضر بالسفن الامريكية آنذاك ، فهب المغرب لنصرة القطر الشقيق ، وسار الاسطول المغربــي يسابق الرياح ، حيث كانت سفنه خفيفة ، جامعة بين الشراع والمجاذيف ، وبهذا كانت قوة سيره مضاعفة ، وما كاد الاسطول الامريكي يصل الى طرابلس حتــى اعترضه الاسطول المغربي فقطعه عنها وابلــى بــلاء حسنا ، فلم تمر الا هنيهة حتى صيره على وجه الماء ،

ولما بلغ هذا مسامع امريكا بعثت عمارة اخــرى الى طرابلس ولكن لقيها الاسطول المغربــي ثانيا فبــدد العمـــارة الامريكيـــة (1) .

وفي عام 1218 هـ / 1803 ــ 1804 م أوفــد باي تونس حمودة باشا الى السلطان المولى سليمان ــ سفارة برئاسة الشيخ ابراهيم الرياحي ، وكان كتاب السفارة يتضمن طلب الامداد بالميرة للامة التونسية التي كانت في مسغبة ، وامتــدح رئيس السفــارة السلطــان المغربــي بقصيــدة مطلعهــا :

ان عز من خير الانام مــزار
فلنا بزورة نجلــه استبشار

قال في « الاستقصا » (2) : فاعجب السلطــان ومن حضر بها ، وامده بمطلبه من الميــرة وبهديــة جليلة ، وآب الشيخ من سفارته بخير مئـــاب .

وفي عام 1225 هـ ــ 1810 م وفــد على نفس السلطان الشيخ عثمان بن منصور التواتي سفيرا عن محمد الباقري أمير آهر بالسود ن الغربي ، وقد اهتمت

---

(1) من مقال للمؤرخ المغربي المرحوم محمد بن علي الدكالي ، نشره في جريدة المغرب « عدد ممتاز » رقــم 346 ، السنـــة الثالثـــة .

(2) ط. دار الكتاب ، ج 8 ص 118 ، وانظر « اتحاف اهل الزمان » لابن ابي الضيـــاف ج 3 ص 39 ، ولا تزال نصوص مراسلات هذه السفارة غيــر معــروفـــة .

الرسالة السودانية – التي حملها السفير – باطلاع سلطان المغرب على حركة الجهاد القائمة في هذه الجهات بقيادة الشيخ الامام عثمان بن محمد ابن عثمان بن صالح الفلاني ، وقد اجاب السلطان المغربي عن هذه الرسالة بكتابين : بعث بأحدهما للامير الباقري ، والثاني للمجاهد الشيخ عثمان ، ويتضمن الكتابان تنويها حارا بما يتعاونان عليه من الجهاد ، وتشجيعا لهما على الاستمرار في هذه الخطة الاسلامية ، وجاء في اواخر الجواب السليماني للباقري : « ويصلك الطابع الذي بعثت عليه على الوصف الذي اشرت في كتابك اليه » ، ويحمل هذا الجواب تاريخ اواسط جمادى الثانية ، عام 1225 ، وهو – تقريبا – نفس التوقيع في جواب الشيخ عثمان، المؤرخ في 18 جمادى الثانية من نفس العام (3) .

وفي عام 1226 هـ – 1811م انعقدت مصاهرة بين المولى سليمان واحد اعيان عرب طرابلس من قبيلة الحنانشة ويعرف بسبب النصر ، حيث تزوج السلطان المغربي من كريمة سيف النصر ، بعد ما كانت اختها في عصمة السلطان اليزيد ، وقد احتمل امير ليبية يوسف باشا آتي الذكر في وفادة عروس المغرب ، ووجه معها عشرة من امراء البحر ، واثنين من فقهاء طرابلس برسم مباشرة العقد ، وجارية تخدمتها ، مع طائفة من الجواري المغنيات العازفات ، وكان سفرهم من مرسى طرابلس على طريق البحر ، ولما نزلوا بالعرائش كان معهم اثاث كثير للنساء فيه مال جسيم ولباس وفرش : حمولة 130 بغلة بعث بها سلطان المغرب للمرسى المغربية صحبة وفد الاستقبال، برئاسة محتسب مكناس الحاج الطاهر بادو ، وفي 13 شعبان من نفس العام وصلت الاميرة الليبية لفاس ، فتلقاها جيش الودايا في زي عجيب ، واحتفى ابو الربيع بالوفد القادم مع العروس ، ووهب لكل من امراء البحر والفقيهين مالا جزيلا ، واهدى لامير ليبية مركبا بحريا ، ثم شرع في تصميم بناء قصر فاخر بفاس الجديد لسكنى العروس القادمة (4) .

ومن مظاهر هذه العلاقات الاخوية في نطاق المغرب العربي ، ان المولى سليمان ، اهدى قطعا من الاسطول المغربي لكل من الجزائر وليبية حينما اضطر لحل هذا الاسطول عام 1233 هـ (5) .

وفي عام 1234 هـ – 1818 م وقع اعتداء الاسطول الانكليزي على الجزائر ، وفي هذا الصدد ندب نفس السلطان نجله الامير ابراهيم ان يبعث الى باي القطر الشقيق كتاب مواساة في هذا الحادث ، وكان الذي باشر انشاءه هو الاديب الشهير ابو حامد العربي الدمناتي من اعيان كتاب البلاط السليماني (6) .

* * *

وبعد هذا نقدم ثلاث رسائل صادرة عن السلطان المولى سليمان لامير ليبية يوسف باشا ، الذي صار واليا عليها من اواسط عام 1210 هـ – 1796 م الى ان تنازل لاكبر اولاده علي بك اوائل عام 1249 هـ ، وهو من اسرة آل « قره مانلي » الذين تداولوا ولاية طرابلس وما اليها ، وكان آخرهم علي بك آنف الذكر، وقد استطرد ذكر يوسف باشا هذا : محمد بن عبد السلام الناصري في رحلته الصغرى (7) ، واثنى عليه بالحزم والضبط ، ونعته بمحبة اهل الدين،وقمع الاشرار المعتدين .

ويلاحظ ان هذه الرسائل ظلت مجهولة فيما وقفت عليه من المصادر المغربية والليبية التي تؤرخ

---

(3) لا تعرف الرسالة السودانية الا بواسطة الجواب المغربي عنها ، وقد ورد الكتابان السليمانيان معا في « انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور » للسلطان محمد بيلو ، طبعة مصورة عام 1951 – ص 178 – 181 .

(4) «تاريخ الضعيف الرباطي » عند حوادث عام 1226 هـ : مخطوطة خاصة .

(5) « الاستقصا » ج 8 ص 133 .

(6) الكتاب السليماني يوجد بخط منشئه ابي حامد الدمناتي في « كناشته » بالخزانة الحسنية رقم 3718 ، وانظر عن هذا الاعتداء « كتاب الجزائر للاستاذ احمد توفيق المدني ، الطبعة الاولى ص 42

(7) مخطوطة الخزانة الحسنية رقم 121 ، وانظر عن ترجمته « المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب » تأليف احمد بك النائب الانصاري الطرابلسي ، نشر مكتبة الفرجاني ، طرابلس الغرب – ليبيا ، ص 328 – 354 ، وانظر عن ترجمة المولى سليمان « الاستقصا » ج 8 ص 86 – 174 .

هذه الفترة، وقد استمرت دفينة في كناشتين اثنتين، حيث وردت الرسالة الاولى اثناء كناشة ـ غير مرقمة ـ للامير المولى عبد السلام بن السلطان المولى سليمان الذي اثبتها بخطه ، وترك بها بياضا في موضعيـــن : « الخزانة الحسنية رقم 4001 » ، بينما احتفـــظ بالثانية والثالثة الاديب المغربي العربي الدمناتي:اوائل كناشته الغير المرقمة ايضا ، والمحفوظة بنفس الخزانة تحت رقم 3718 ، وقد كتبهما ـ معا ـ بخطه الدقيق الممدوح ، مع التصريح عند تقديم الرسالة الثانيـــة بانها من املائه ، ولا شك ان هذا ـ ايضا ـ واقـــع الثالثة ، حيث تتشابه مع سابقتها في اسلوبهـــــا ، وتتحـــد معهـــا في بعـــض فقراتهـــا .

وتتناول هذه الرسائل تقرير اواصر المودة بين الطرفين ، والحديث عن المهادنة ، مع اعلان استعداد المغرب لمواصلة العون العسكري مهما اقتضى الحال ذلك ، وفي هذا الصدد ورد في الرسالة الثانيـــة : « لا نألوا جهدا في صلة نصركم ، واعزاز أمركـــم ، واتساق سعدكم، واسعاف قصدكم » ، وتبرز الرسالة الغاية من قطع هذا الوعد وتقول : « وقصدنا بهذا ان يعلم اعتناؤنا بامركم ، وعملنا على نصركم ، واهتمامنا بشانكم، ليقصر شأو عدوانها ، ويتضاءل طائر طغيانها» وفي هذا تلويح لمحاصرة الاسطول الامريكي لمدينة طرابلس ، وقد سبق ذكر بعض تفاصيل الحادث في صـــدر هـــــذا التقديـــم .

وورد في الرسائل الثلاث ذكر اغراض تطلب ليبية من المغرب انجازها دون تحديدها ، وقد تكون داخلة في نطاق الاسرار التي لا يباح للمراسلات افشاؤها ، اكتفاء بشرحها مشافهة من طرف القائمين بالسفارة .

وقد كتبت هذه الرسائـــل بأسلـــوب حسن ، ومتفاوت بالنسبة للرسالة الاولى مع باقي الرسائل ، وجميعها غفل من تاريخ صدورها ، حيث لم يكن اثباته يهم الناقلين لها،ونستطيع ان نتوصل الى تاريخ تقريبي لزمن كتابتها ، وهو الذي استندت اليه في ترتيبهـــا ، فقد ورد في الرسالة الاولى : « ولقد جددتم من خالص المحبة القديمة عهودا .. اقتداء بأسلافكم الكرام » ، ولم ترد هذه الفقرة في الرسالتين ، فاستنتجنا مـــن ذلك ان هذه هي الرسالة الاولى بين الجهتين في العهد السليماني ، ثم جاء في الرسالة الثانية التلويح لحصار مدينة طرابلس من طرف الاسطول الامريكي ، وقـــد عرفنا ان هذا الحصار كان في عام 1217 هـ ، فتكون هذه الرسالة بعد هذا التاريخ قريبا منه ، وتكـــون الرسالة الاولى قبل هذا التاريخ : بين اواسط عـــام 1210 هـ حيث ابتدأت ولاية الباشا يوسف ، الى عام 1217 هـ وهو تاريخ الحصار الامريكي ، اما الرسالة الثالثة فقد جاء في اواخرها الاعتذار عن ارسال الميرة الى ليبية بالغلاء الواقع في المغرب ، وشأن هذا الغلاء ان لا يكون في هذه الفترة قبل عام 1226 هـ/1811 ـ 1812 م ، حيث اخذت الفتن تترادف على المغرب الى نهاية العهد السليمانـــي (8) ، ومن المعـــروف ان الاضطراب يتبعـــه ارتفـــاع الاسعـــار .

وقد اثبتت نصوص الرسائـــل كمـــا ورد في مصدريها دون ادخال اي تعديل عليها ، بما في ذلك بعض الاعداد التي لم تعرب في الرسالتين الاخيرتين ورسمت بشكل الارقام المغربية ، وهناك بياض وقـــع في الرسالة الاولى في موضعين ، وخرق طرا على ثلاثة مواضع من الرسالة الثالثة ، وقد اثبتت ذلك كما وجد، ونبهت عليه في التعليق ، كما نبهت على بعض عثرات وردت في الرسالة الاولى ، والله ـ سبحانه ـ ولي التوفيـــــق .

نصـــــوص الرسائـــــل

الرسالـــة الاولـــى :

« نحمدك اللهم حمدا يطلق الالسنة ، ويوقـــظ القلوب من السنة ، ونوالي بالصلاة والسلام على سيد ولد آدم ، وعلى آله واصحابه ما تشرف الامد بهـــم وتعاظم ، وما جددت الرسائل من عهد تقادم . امـــا بعد : فهذا جواب من عبد الله ، المتوكـــل على الله : سليمان بن محمد بن عبد الله الحسني ، احســن الله عقباه ، وشمله لطفه ورحماه ، الى الهمام المقـــدام المظفر ، الشهم الكمي المجاهد الغضنفر ، ركن الدولة العثمانية ، وحامي حمى الثغور الاسلامية ، من ثبتت محبته في جانبنا بالتواتر والاجماع ، واقرت بذلـــك ضمائرنا فارتفع النزاع ، الكفيل بنصر الملة والدين، وزعيم أمراء الموحدين ، الحائز قصب السبق بتعظيم آل بيت المصطفى ، وكفى بانحياشه اليهم عزا وشرفا، القائم بوظائف الجهاد عاما فعاما وشهرا فشهـــرا ،

---

(8) انظر « الاستقصا » ج8 ، ص 114 وما بعدها .

امير الثغر الطرابلسي وما والاه من الاقطار برا وبحرا، السيد الكريم ، والخاقان العظيم ، أبو يعقـــوب (9) يوسف أبن علي باشا ، لا زال عزكم دائم الزيـــادة لا يبيد ولا يتلاشى ، ولا زال ثغر هذا الدهر في وجوهكم باسم (10) ، وارجاؤكم - ابدا - معطرات النواسم ، وايامكـــم كلهـــا اعيـــاد ومـــــواسم .

هذا وانهي لكريم علمكم ، وجميل حلمكم - مع تحيات تفاوح نسمات الروض المسطور ، وتسليمات تصافح افنان فنون الزهور ، ورحمة الله التامـــة ، وبركاته العامة - أن قد وصلتنا رسالتكم الرائقـــة الغراء ، فاصمت (11) اسماعنا حسنـــا ، واعينتنـــا سحرا ، مع ما أشتملت عليه من لطائف الاشارات ، ومحاسن الكنايات ، كل سطر منها معمـــور اسرارا ، موصل للمحمول له اوطارا ، تبين بدائع الفاظها عـــن بيان سحبان ، وتفسر (12) بفصاحتهـــا عن احسان حسان ، ولقد جددت من خالص المحبة القديمة عهودا، وقلدتم في نحر هذا الدهر منها عقـــودا ، اقتـــداء باسلافكم الكرام ، الذائدين عن بيضة الاسلام ، فهم لكم خير سلف ، وانتم لهم خير خلف ، وجوهركم مع جوهرهم في سلك واحد قد انتظم ، وعلى منهج العدل القويم ، والصراط السوي المستقيم ، يسلكه مـــن تاخـــر منكـــم ومن تقـــدم .

فما يك من خير أتوه فانمـــا
توارثه آباء آبائهـم قبـــــل
وهل ينبت الخطى الا وشيجه
وتغرس الا في منابتها النخـل

ثم طلع علينا صحبة هذا الكتاب المرفع ، الذي بفرائد الفوائد مرصع ، السيد الجليل .. (13) . سيدي عبد السلام الاسمر ، فاكتحلنا باثمد منظـــره عينا ، وشنفنا بمحاسن حديثه اذنا ، فلنعم البريد هو والسفير ، وحبذا الصاحب الخفيـــر (14) ...

وما وجهتم - بارك الله فيكم - من هديتكم فالكل قد وصل ، وحل من نظرنا احسن محل ، وما استصغرتموه منها فليس عندنا بمستصغر ، بل ذلك اجل ما يقتنى لدينا ويدخر ، وما ذكرتم في كتابكم من اقلاع السحاب الغر في هذه السنة عن ذلك القطر ، فانا نتوسل الى الله بمن يستسقى بوجهه الغمام ، عليه افضل الصلاة وازكى السلام ، أن يخصب لنا ولكـــم ما بيننـــا من البطاح والآكام ، وان لا يعدمنا رغد العيش ، وسعـــة الايام ، فانه أهل لذلك والقادر عليه ، وان لا ملجا منه الا اليه ، ثم ما انزلتموه بساحتنا ، ورجوتم قضاءه من جانبنا ، فجميع أغراضكم - على وفق مرادكم - ان شاء الله تقضى ، وسفيركم الوافد علينا لا جرم برضى، وهيهات ان ندع اعانتكم او نبدي في ذلك عذر ، ولا سيما وقد قطعتم من المهامه الفيح نجدا وغورا ، ومن البحار الطامية لجاجا خضرا ، اذ الحر للحر معوان ، والمومن للمومن كالبنيان ، لا زالت اعلامكم منشورة ، وسيوفكم على اعدائكم مقصورة ، ولا برحتم في هناء وسرور ، مطمئنين البال في حاضرتكـــم الشاهقـــة القصور ، آمنين في ظل راحتكم من الاكدار والشرور، ولا زال هذا المجد مخلدا فيكم وفي عقبكم الى يـــوم ينفـــخ في الصـــور ، آميـــن ، والسلام » .

الرسالـــة الثانيـــة :

« المقام الذي طاب ثناؤه ، وطرزت صحف الحمد انباؤه ، واشتهر بالمكارم أعتناؤه ، وتعددت مكارمـــه وآلاؤه ، مقام حبنا الذي بره محتوم الوجوب ، وحبه مرسوم في اسرار القلوب ، ومآثره تشهد بها صفوف المحاريب ومصاف الحروب ، ذو المناقب الفاخرة ، والمحب الذي نفعه الله بمحبة آل بيـــت الرسول في الدنيا والآخرة ، المرابط المجاهد ، والمتحلي بحلى القانت الزاهد ، السيد يـــوسف باشا ، ابقـــاه الله

(9) كـــــــذا .
(10) كـــــــذا .
(11) تصحيـــف عـــن أفعمـــت .
(12) تصحيـــف عـــن تسفـــر .
(13) بياض مقدار ثلاث كلمات تقريبا ، ولا شك ان الساقط هنا اسم السفير الذي هو من ذرية الشيخ الشهير سيدي عبد السلام الاسمر دفين زليتن حوز طرابلس ، والمتوفى عام 981 هـ ، ولم اعثر على اسمه ، وانما جاء في الرحلة الناصرية الكبرى ان ذرية هذا الشيخ لا تزال بقيد الوجود زمن هذه الرحلة الواقعة عام 1196 هـ ، حسب مصورة خ. ع. د 2651 - لوحـــة 169 .
(14) بيـــاض مقـــدار 12 كلمـــة تقريبـــا .

وقواعد عزه راسخة راسية ، ومعالم فضله عالية سامية ، وعناية الله له كالية ، وفواضله لديه متواترة متوالية، سلام كريم ورحمة الله التي لا تبرح ولا تريم .

وبعد : فقد علم وتحرر ، ووضح وضوح النهار لمن استبصر ، ما عندنا من الود الذي تألق نوره ، وثبت في صحف الخلوص مسطوره ، وخلصت من الشوائب بحوره ، وتحلت بجواهر الصفاء نحوره ، فهو - على الايام - يخلص خلوص الابريز ، وتظهر حلاه مونقة التطريز ، وكيف لا وقد ثبت لدينا من محبتكم الينا تشيع واضحة مذاهبه ، ووداد كريم شاهده وغائبه ، وخلوص اشرقت في سماء الصفاء كواكبه ، ولم لا وودادكم قد احكم سلفنا - رضي الله عنهم - معاقده ، واوضح في مرضاة الله موارده ، واقام على التعاون في سبيله سبحانه قواعده ، فهو يتأكد على الايام ويتجدد ، حتى لو استطعنا لا تمر ساعة الا في مكاتبة بيننا وبينكم تتردد ، اغتباطا بولائكم ، وارتباطا الى مصافاة اخائكم .

وقد ورد علينا كتابكم على حال اشتياق لوارده، وظما لموارده ، حائزا في ميدان الاعتراف بمحبته آل بيت الرسول مزية التقديم ، واحلى سبب ابر الحادث والقديم ، مصحبا بالهدية ، والمقاصد الودادية ، وصالح الادعية المتكملة - ان شاء الله - بنيل الامنية ، فقابلنا مقاصدكم بالثناء والاستحسان ، وشكرنا ما لاخوتكم الفاضلة من المزايا البرة والسجايا الحسان، وحضر بين ايدينا خديمكم الرايس فلان ، كتب الله سلامته ، ووالى كرامته ، فالقينا اليه من شكر مقامكم ما لزم ووجب ، وجلونا عليه ما عجز عن ادراكه واحتجب ، اذ قدركم عندنا اجل ، وذكركم بالجميل يملى فلا يمل .

والى هذا سدد الله امركم ، ورفع قدركم ، فقد تقرر - جبلة مطبوعة ، وسنة متبوعة - ان المهاداة تغرس المحبة وتنبتها ، وتؤكد المودة وتثبتها ، لا سيما اذا وردت على ضمائر اصفى في ذات الله من نطف الغمام ، واصون من درر الازهار في صدف الاكمام ، وقلوب متعاقدة على مرضاة الله والاسلام ، ولما قوي العزم والاغتباط ، وكنتم - رعاكم الله - اهل جهاد ورباط ، هاديناكم بثمانية افرس : اربعة ذكور ومثلها اناث ، جيادا عتاقا ، وجردا تسبق الصريخ استباقا، تنظم بها البشرى - ان شاء الله - عقودا ، وكيف وقد اخبرنا الصادق المصدوق ان الخير في نواصيها معقود ، حبيناكم باهدائها ، وسلكنا بها سبيل الملوك مع اودائها .

وجددنا اليكم هذا الكتاب عقدا لاخاء كمالكم ، واستطلاعا لما يسر - ان شاء الله - من متزايدات احوالكم ، عملا على شاكلة الود الكريم ، والاعتقاد السليم ، والرعي لما سلف من الود القديم ، فمن الله نسال ان يجعله في ذاته ، وذريعة الى مرضاته ، وبلادنا لكم ولسلفكم محراب مناجاة ، وسوق بضائعكم غير مزجاة ، وجهتنا هذه كجهتكم فيما يعرض من الاغراض ، والقلب بما تأملون مبتهج وراض ، ومقامكم لدينا بالتعظيم مخصوص ، ومحكم حبكم لآل البيت في كتاب قلوبنا منصوص ، لا نالوا جهدا في صلة نصركم ، واعزاز امركم ، واتساق سعدكم ، واسعاف قصدكم ، وقصدنا بهذا ان يعلم اعتناؤنا بامركم ، وعملنا على نصركم ، واهتمامنا بشانكم ، ليقصر شأو عدوانها، ويتضاءل طائر طغيانها (15)، والله - سبحانه - يصل لنا ولكم عوارف آلائه ، ويحملنا من مرضاته على ما يضاعف مواهب نعمائه ، ويحسن الظن فيكم من الدفاع عن دينه وجهاد اعدائه ، والقيام بسنن الجلة من خلفائه ، وهو - سبحانه - يحفظكم في كل الاحوال ، ويسدل عليكم عصمته الوارفة الظلال ، ويطلعنا من انبائكم على ما يبهج النفوس ويشرح الصدور ، ويمهد الجهات ويصلح الامور » .

الرسالة الثالثة :

« الحب الذي طاب ثناؤه ، وطرزت صحف الاخاء انباؤه ، واشتهر بحب على جنابنا اعتناؤه ، وتعددت مكارمه وآلاؤه ، والاخ الذي بره محتوم الوجوب ، وحبه مرسوم في اسرار القلوب ، ومآثره تشهد بها صفوف المحاريب ومصاف الحروب ، المرابط المجاهد، والفاضل الماهد ، السيد يوسف باشا ، وصل الله علاءه ، ونشر بالنصر على اعداء الله لواءه ، سلام كريم بر عميم ، ورحمة الله التي لا تبرح ولا تريم .

وبعد فانه ورد علينا كتابكم فاستجلينا منه حلة بيان قمتها البراعة ، وروضة احسان سقتها بنان

(15) الضمير في هذه الجملة وسابقتها يشير الى دولة امريكا التي قامت بحصار مدينة طرابلس على ما تكرر ذكره عند التقديم .

البراعة، ولجة ود للسان فيها سبح طويل، ومحجة فضل للاقلام فيها نص وذميل، ناطقا بلسان الفضل الذي املاؤكم معدن نضاره، ومطلع انواره، جاريا فى ميدان البر الى اقصى مضماره، عرفتمونا فيه بما أنتم عليه من صلاح الامور، فانتج انشراح الصدور، وعرفتمونا بمقتضى ما لكم فى علي جنابنا من الحب الذي مضاربه ان شاء الله لا تفل، وعراه الوثيقة لا تفصم ولا تحل، وصل الله اسباب ودكم، وشكر وفى عهدكم.

ونحن ان ذهبنا الى تقرير ما عندنا من حبكم الذي آياته محكمة، ومقدماته مسلمة، فلا يعترض منها رسم، ولا ينازع فيها والحمد لله خصم، لم يتسع نطاق النطق لاداء معلومها، ولا وفى المكتوب ببعض مكتومها، حتى لو استطعنا لا تمر ساعة الا عن مكاتبة بيننا وبينكم تتردد، وذمام كريم يتأكد، اغتباطا بولائكم، وارتباطا الى مصافات اخائكم، ومن المعلوم ان القلوب ينبىء بعضها بعضا بما تجن، والنفوس تجنح الى اشكالها وتحن، جعله الله في ذاته ودا وثيقا، وينهج الى ما يرضيه طريقا، وقد حضر لدينا خديمكم الرايس عمورة يسر الله مرامه، وجعل الفتح خلفه وأمامه، ووصل ما وجهتم لحضرتنا العلية صحبته من الهدية كثر الله خيركم، وتولى شكركم، والهدية وان كانت سنة ماضيه، وشريعة بازدياد الود آذنة وقاضية، فلدينا من كريم الاخاء ما لا يحتاج لتأكيد، ولا تكرير وترديد، والله على كل هذا رقيب وشهيد.

ونحن وان ثبت لدينا من اخائكم ما قرره الحب وسنه، فلا غرو في الاستنان بخصال الشريعة والسنة، فيصلكم منه 3 افراس: 2 لركوبك ان شاء الله، وواحد لنجلكم السيد علي اثمر الله غرسه، وزكى ذاته ونفسه.

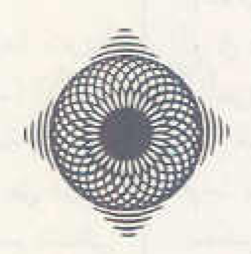
وقصارى الامر ومنتهى المرام، ان نكون (16) مضمن قوله عليه السلام: (17) يظلكم الله بظله، ويدخلهم تحت كنف كرمه وفضله، ولم نال جهدا في اعانة خديمكم الرايس، والشاوش فى مأمور(18) جنابكم بعون الله ملحوظ فى كل ما تريدون من اعانة فى جهاد، او التماس ارفاد، اللهم الا ما كان من أمر الميرة فما اخالكم تخفى عليكم احوال هذا القطر مما به من الغلاء وارتفاع الاسعار، فلو فتحنا بابا على الخلق، لاتسع الخرق، ولكمال ودكم تقبلون المعاذير وتراعون (19).

والمقادير، ونحن ان شاء الله على ما يجب لاخوتكم من التعظيم والاجلال، والثناء بما لكم من الشيم الكريمة والخلال، وهو سبحانه يبلغ الجميع من مرضاته غاية الامال، فهو ولي الاجابة وملجأ السؤال».

الرباط: محمد المنوني

---

(16) مواضع البياض خرق طرأ على الاصل.
(17) خرق في الاصل.
(18) خرق.
(19) خرق.



لمحات جد عابرة:

حول المدلول التاريخي والانساني لعالمية المدينة الاسلامية

بقلم: ابو مهدي

جمعت الحضارة الإسلامية بين ثلاثة قارات، هي كل العالم القديم الذي كان معروفا أثناء القرون الوسطى قبل اكتشاف اليابسة فيا بين المحيطين، الأطلسي والهادئ.

لقد نبعت أصول هذه الحضارة من آسيا، ثم ترعرعت فيا بعد، بين هذه القارة وبين إفريقيا وبينهما عبر البحر المتوسط وبين أوروبا، في أطراف مختلفة منها بالغرب والشرق.

ومن ثم، اتخذت الحضارة الإسلامية، صفة «العالمية» باعتبار أنها وسعت معظم العالم المعروف في عهد تفوقها، وبكل ما يعنيه هذا الشمول من تعدد شاسع في العناصر، وتنوع في الحالات، بيد أن هذا التعدد والتنوع - وهذه مأثرة الحضارة الإسلامية - كانا واقعين في إطار من التلاحم والتكامل، جعل من هذه الحضارة، مصهرا حقيقيا للشعوب التي شاركت فيها ومرحلة حاسمة في تاريخ التطور الإنساني بكامله.

لقد استوعبت الحضارة الإسلامية أوسع مجموعة بشرية متكاملة عرفها التاريخ فهذه شعوب شتى متنوعة الألوان والأعراق، لغات بكل حرف ولحن، أمزجة جماعية وبيئات اجتماعية وطبيعية، وأنماط حياة، ومجاري تاريخ على درجة بالغة من اختلاف الأوجه وتعدد المناحي، بقدر تنائي جهات المحيط الإسلامي المترامي الأطراف بين قارات العالم القديم وكثافة الحوائل المنبثة بين آفاقه.

ومع هذا، فقد اتسعت الروح التي قامت عليها حضارة المسلمين لامتصاص مثل هذه التنقاضات وتمثلها، وأمكن بفعل ذلك، بلورة كيان حضاري فريد، يضم مفارقات الخصائص الاجتماعية والفكرية والثقافية عبر القارات، إلا أن الطابع المعنوي العام المتميز به هذا الكيان، طابع مشترك، تبدو سماته في أقصى الشرق، كما في أقصى الغرب، لا اختلاف جوهريا من هذا المعنى، فيا يوجد هنا، أو هناك.

ولا يفهم من هذا، أن مظاهر الحضارة في مختلف الآفاق الإسلامية هي هي، بحيث لا تجد من خلالها فروقا بين طبيعة الحياة وآثارها في الشرق الأقصى الإسلامي مثلا، وبين مثل ذلك في أواسط إفريقيا الزنجية الإسلامية، أو بين هذه المناطق وبين غيرها في ناحية خليج البنغال، أو على شواطئ الشرق الإفريقي.

ان مثل هذا الفهم للأشياء، غير وارد بطبيعة الحال، ولهذا يجب تقييد القول حول تشابه الطابع الحضاري الإسلامي بكون هذا التشابه واقعا خاصة في النطاق المعنوي، أي في دائرة المفهوم الحضاري الأعمق، المتمثل فيا تحتضنه جماعة أو أخرى من قيم ومثاليات معنوية، وما ينطبع به الفكر العام من سمات مشتركة في تكيفه بموجب مثل هذه المؤثرات، ثم ما يرتد من ذلك على الأخلاق والسلوك في عمومياته، وما ينعكس منه في مضمار العادات والتقاليد، يومية أو موسمية، ونحو ذلك مما يتصل بأنماط الحياة الاجتماعية، وكثير من أوضاع الحياة بشكل عام.

ان هذه المجالات نفسها، لا تعرض بالضرورة حالة تشابه تام على صعيد المجتمع الإسلامي في اطلاقيته، إلا أن هناك في هذا النطاق قدرا واسعا من التاثل في الأحوال تبررها وحدة النبع الروحي والثقافي، القائمة به الصفة الإسلامية أساسا عند المسلمين وتجانس الشروط والمعايير التي ما فتئ يتم بها تطورهم المجتمعي، ضمن نطاق من المؤثرات، من بينها أساسا،المؤثر الديني وملابساته، وهذا قاسم مشترك، ذو فاعلية مهمة في ربط الشعوب الإسلامية بعضها ببعض على الصعيد المعنوي للحضارة، كما يتضح اثر ذلك في حياة هذه الشعوب العقلية والاجتماعية، وفي روح التراث المتخلف لها من تاريخها الإسلامي على امتداد أبعاده.

وحتى على المستوى المادي للحضارة، فإننا سنجد أن صورة الحياة الإسلامية ـ إذا ذهبنا نتبينها من هذه الزاوية ـ تعرض علينا كثيرا من القسمات المتشابهة فيما بينها على أوجه متعددة، خاصة ما يتصل من ذلك بالطراز المعاري الديني ومرافقه، ثم ما يدخل في باب الألبسة التقليدية، ومشهد الأسواق وسوى ذلك.

إن الحضارة الإسلامية ظاهرة وحيدة، مختلفة اختلافا كيفيا عن الحضارات غيرها وتتميز ـ من حيث أبعادها المادية ـ بطاقة شمول واستيعاب جد شاسعة، والملحوظ أن حيوية المدنية الإسلامية بهذه الصورة، لا تختص بعصر دون آخر، فهذه الحيوية، لم تنحصر في عهود ازدهار نفوذ المسلمين السياسي، كما أنها لم تتراجع عندما جزر مد سلطانهم وآل بعد توسعه الدافق إلى نضوب، لقد احتفظت الحضارة الإسلامية بديناميتها هذه، حتى عندما تهاوت الأوطان الإسلامية، تحت غمرة السطوة الأوروبية أثناء القرون الأخيرة. وغدا أهلها خلال الحقبة، معرضين لعمليات التحويل المراد منها، خلخلة رسوخ أصالتهم الحضارية، وأكثر من هذا، فإن جاذبية القيمة العليا للفكر الإسلامي وهي العقيدة قد استمرت خلال فترات تدهور المسلمين على حالها سواء من حيث الفاعلية أو النشاط، مثلما كان حالها ابان سؤددهم، ومن ثم، بقي الأفق أمام الدعوة مفتوحا لاكتساب مزيد من المواقع، وتحدى الحملات التبشيرية المنظمة، والواقعة في الكثير من الحالات، ـ تحت إشراف القوات الاستعمارية نفسها؛ وبقدر ذلك التألق المستمر في جاذبية الدعوة ـ رغم قيود الظرف وسلبياته ـ كان تألق مضمونها الثقافي وملابساته الحضارية يتمثل ذلك في تجدد مقدرتها على إعادة صياغة مفاهيم أولئك الذين يعتنقونها، وتحويل علاقتهم بأنفسهم وبالناس، وتطعيم حصيلتهم من المعرفة، بفيض من المعاني والدلالات الجديدة، تنعكس على نظرتهم للحياة، ومسلكهم فيها، ان مثل هذه التأثرات، لتشكل قاعدة مبدئية لحالة خصبة بإمكانيات التطور الحضاري، مثلما يحدث دائما بالنسبة لمن يأخذون بمبدأ ما، فيجدون فيه مورد فكر وثقافة ونهج في الحياة، ويرتسم لهم بذلك سبيل لمراجعة موقعهم في مضار الحضارة، وتطوير ممارستهم الحضارية على ضوء هذه المراجعة.

ان الانتشار الذي ما فتئ الإسلام يحققه في أنحاء إفريقيا وغيرها من مناطق العالم في عصرنا، لينطوي في محتواه على بذور تحولات حضارية من هذا المعنى، تتناول في المدى القريب، وجهة التفكير والتقييم عند الجماعات التي يتخذ الإسلام بين ظهرانيها مراكزه وتنفذ ـ عبر ذلك ـ من منظور الأمد البعيد ـ إلى تغيير الصورة الحضارية لهذه الجماعات وفقا لموحيات الثقافة التي تحصلت لها بتعرفها على مصادر الفكر الإسلامي الذي اعتنقته وما يتأتى لها من ذلك أيضا، عن طريق التفاعل الفكري، مع بقية العالم الإسلامي، في ارتباطها به.

ومن ثم، فالمعروض أمامنا باستمرار، عن الظاهرة الحضارية الإسلامية، هو توالي قوة الدفع الإيجابي في صلب هذه الحضارة، خلال عصرنا، مثلما توفر لها من طاقة على هذا النحو أثناء الحقب الماضية، وليس هناك، إلا ما يوذن بأن هذه الطاقة موصولة الفعل في مقبل الأزمنة، متجذرة الأثر أكثر، نتيجة لقرب المفهوم الإسلامي من ذهنية المجتمعات التي تتعرف إلى هذا المفهوم وتعتنقه، ولما يقدم هذا المفهوم من حلول لقضايا هذه المجتمعات، وتنسيق لمصالحها ومواقفها، في اتجاه البحث عن تعايش عالمي أفضل، واستكشاف سبيل ثقافة إنسانية سمحة ومتحررة.

وفي الرجوع للأصول التاريخية تعرفا على عوامل الشمول والاستيعاب في الكيان الحضاري الإسلامي، نرى أن الطابع الإنساني لتلك الحضارة، كفل لها ـ على مدى الدهر الطويل ـ سعة القابلية التي توفرت لها كمصهر مثالي لعبقريات الشعوب، ومحور استقطاب ملائم لهذه العبقريات.

لقد قامت الحضارة الإسلامية - فيما يخص النظرة إلى العلاقات بين الناس - على مبدأ التماثل بين الأجناس في القيمة، فلا تفاوت فطريا بين عرق وآخر من الأعراق، ولا اعتبار لاختلاف الألوان والسحن والخصائص الجسمية بين السلالات، ومن ذلك، كان انصهار الشعوب بسهولة في بوتقة هذه الحضارة، وكان منه بالتالي، صفتها عبر القارية، التي شملت العالم القديم في جل أطرافه.

وإلى هذه السماحة في روح الحضارة الإسلامية، مما ساعد على سهولة الاندماج السلالي في حظيرتها، فقد هيأت مثالية العلم، التي سادت تلك الحضارة، المناخ المناسب لكافة العناصر المتساكنة، كي تدلي بما لديها من تراث علمي، في تشييد البناء الحضاري الذي كان آخذا في التكامل.

ومن مجموع المساهمات هذه، تبلورت - كما يعلم - قيمة حضارية عالمية الوجهة، غنية من حيث محتواها الفكري والثقافي، هي هذه القيمة المدعوة بالحضارة الإسلامية، والتي ملأت الفراغ الحضاري في العالم كله، أثناء الحقبة الطويلة بين أوائل العصر الوسيط إلى مشارف العصور الحديثة.

ولا مجال للمقارنة هنا بين عالمية الموضوع الحضاري في إطاره الإسلامي، وبين عالمية المدنية التي تبسط ظلها على العالم الآن.

فالمدينة التي ترعرعت في حظيرة العالم الإسلامي، والتي نصطلح على دعوتها بالمدنية الإسلامية تنتسب انتسابا صميما إلى المسلمين عامة، وتستمد كثيرا من مواضعاتها، من خصائصهم وعبقرياتهم القومية، في تفاعل دقيق بين المفهوم الإسلامي الذي أخذوا به، وبين عطاءات هذه الخصائص والعبقريات.

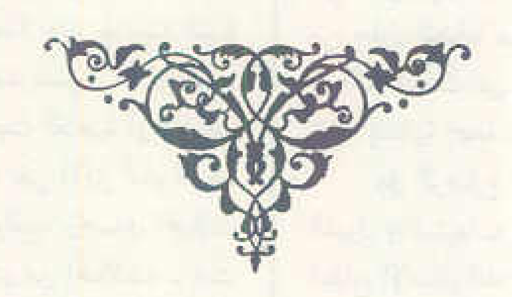
وحيث أن المسلمين كانوا يعمرون حيزا كبيرا من العالم القديم، ويؤثرون بنفوذهم وإشعاعهم على ما حولهم من القطاعات الأخرى من الأرض، فإن الحضارة التي تفتقت عن ظرفهم، كانت تبدو بحكم هذا الاعتبار، كأبرز نموذج يطبع وضعية العالم الحضارية في ذلك الحين.

والأمر بالنسبة للمدنية الحديثة، يختلف عن هذه الصورة بفارق أساسي.

ذلك أن الحضارة الحديثة، وإن كانت تؤثر بفعالية حقانية، في تشكيل جوانب من صورة الحياة عند مختلف الشعوب المعاصرة، بما فيها - بطبيعة الحال - الشعوب الإسلامية، فإن هذه الحضارة لا ترقى مع ذلك، إلى مستوى الحلول محل القيم الحضارية الخاصة عند هؤلاء أو الآخرين.

ومن ثم، تبقى المدنية الحديثة، مدنية عالمية في نطاق فهم لهذه الصفة، محدود بحدود معينة.

أما المدنية الإسلامية، فيمكن - على درجة من المناقضة لذلك - إضفاء صفة العالمية عليها، بالنسبة لظرفها التاريخي، وذلك ضمن مفهوم أكثر إطلاقية وبالتالي، أوفى شمولا.



من روافد البناء الثقافي في المغرب

بقلم: مسلك ميمون

إن رصد الثقافة المغربية منذ نشأتها إلى الآن يظهر مدى التنوع والاختلاف الذي مرت به والذي أكسبها ميزة خاصة، وطابعا فذا كما يظهر حقيقة تتمثل في مدى المسار التطوري البطيء الذي سارت عليه عبر مختلف العصور والأزمنة بما في ذلك عهدها الأول الذي تمثله العهود الأخيرة من العهد البربري، حيث كانت اللغة البربرية هي السائدة بين سكان المغرب.

إن المؤرخين للشمال الإفريقي، يتفقون على أن سكان هذه المنطقة الأولين يشكلون بثقافتهم ما تشكله عصور ما قبل التاريخ بالنسبة للباحث، بمعنى أننا لا نستطيع البتة أن نحدد معالم الثقافة المغربية إبان العهود البربرية الأولى والسبب في ذلك أن البرابرة لم يعمدوا إلى التدوين والتسجيل لإغراقهم في الأمية والجهل. فكل الحفريات والرسوم التي وجدت في المغارات والكهوف لا تدل على تواجد ثقافة عقلانية أو كتابة منطقية ترتقي إلى مستوى الكتابة الهيروغليفية أو المسمارية. فكل ما استطاع البحاث أن يكشفوه من إبهامات الرسومات التي خلفها البربر في عهودهم الغابرة، أن تلك البقايا تعبر عن أشياء بسيطة جدا كانت تلازم حياة البربري، كالصيد والحرب والحرية... أما التعبير عن فن من الفنون الإنسانية كما عرف لدى اليونان والرومان، والفرس، والفراعنة، فذلك كان

أبعد من أن يمارسه البربر الأولون الذين عاشوا في عزلة وتقوقع.

غير أن هذه العزلة لم تدم طويلا، وصلابة ذلك التقوقع لم تستمر كثيرا، فسرعان ما داهم الاستعمار بلاد البربر على اختلاف أشكاله وأنماطه... من قرطاجنيين، وروما، وبزنطيين، وقوط.

غير أن تأثير الاستعمار لم يخلف أثرا عميقا في الوعي الثقافي البربري، والسبب في ذلك هو الرغبة في استغلال خيرات البرابرة، وميل هؤلاء إلى الحرية، ونبذ الاستغلال الاستعماري حيث لاذوا بالجبال فارين باستقلالهم وحياتهم البسيطة. لهذا لم يتواجد بشكل كبير طابع الأخذ والعطاء من جانب الغزاة بقدر ما تواجد جانب الأخذ والسلب والاستغلال. فلم يكن من الطبيعي أن يتوفر جو العشرة والملاءمة بين الأهالي والأجانب، الشيء الذي مكن من خلق فيصل بين هؤلاء وأولئك، إلا أن الاشتباك المسلح، والسبي والدفاع عن الكرامة والأرض، أرغم بعض البربر على الاحتكاك بثقافة المستعمر، وبذلك بدأت مرحلة الخروج من العزلة، وتحطيم القوقعة.

وفي هذا المجال يقول الدكتور عباس الجراري : (1) (من المؤكد أن المغاربة تأثروا بالقرطاجنيين ثم الرومان بعدهم، ومارسوا فن التمثيل القائم على الأناشيد والحركات الراقصة التي تؤدى بها الطقوس والشعائر الدينية والتي ترمز إلى التوسل بالآلهة).

وتاريخ شمال إفريقيا (2) لأندري جوليان يشهد بأن منتصف القرن الأول عرف اهتماما بالفنون والآداب بما في ذلك فن التمثيل الذي ازدهر في عهد (يوبا الثاني) زوج كيلوباترة الصغيرة بنت كيلوباترة ملكة مصر ولعل أشهر كاتب تخلد تتاجه هذه الحقبة الزاهرة في ذلك الزمان الغابر (3) هو الكاتب الدرامي البربري (أبوليوس) المولود حوالي سنة 125 وصاحب الأبولوجيا والأزاهير وقصة المسوخ.

غير أن هذا كله لا يعد قاعدة انطلاق للثقافة المغربية، وإن كان في حد ذاته انفراجا مهما مهد الطريق لبزوغ فجر جديد، كان وليد الفتح الإسلامي، ذلك الفتح الذي ناهضه البرابرة عن بكرة أبيهم في عهد الكاهنة وكسيلة... لأنهم كانوا يعتقدون أن العرب الفاتحين كغيرهم من الأمم التي عرفوها، ولم يتمكنوا من معرفة رسالة العرب إلا بعد مرور زمن طويل مر كله في الحرب والمطاردة الدامية.

إن العرب المسلمين دخلوا المغرب فاتحين ومبشرين... نقلوا معهم تعاليم الدين الإسلامي الحنيف متمثلة في القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة، نقلوا الرسالة بلسان عربي إلى قوم لا يدركون قطعا حرفا من الحروف العربية، فكانت البداية من الصفر، تتطلب اتقان العربية نطقا وكتابة، وساعد على توفر هذا الاتقان، ما وجده البربر في روح الإسلام السمحة من سمو ورفعة... وما وجدوه في تعاليمه من منطقية وموضوعية، حيث لا يطغى جانب على جانب آخر إلى بالحق.

تلك التعاليم الحكيمة، التي تقيم التوازن المادي الروحي بعدالة وانصاف في قوله تعالى : ﴿**وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا**﴾ وقول الرسول الكريم : «ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا ترك الآخرة للدنيا ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه».

غير أن ظروف البربر عقب الفتح الإسلامي، لم تكن في الغالب مشجعة على تبني الفكر العربي الإسلامي، رغم الإيمان الذي كانوا متشبعين به، ورغم تمكنهم من اللغة العربية والشعائر الدينية... لأنهم عرفوا أول ما عرفوا بتمسكهم الشديد بالأعراف والتقاليد... الشيء الذي جعلهم

1) مجلة المناهل عدد 13 صفحة 145 السنة 5.
2) (وجود المغرب الحضاري والثقافي في العصر الجاهلي) المناهل عدد 8 السنة 4.
3) (المسرح عند العرب والمغاربة) المرجع الأول.

يرزحون في إطار من المحافظة العريقة.

فلقد مرت فترة طويلة على الفتح الإسلامي للمغرب، ومع ذلك لم يخلف لنا الأسلاف أثرا مهما يسجل بحق مدى ما وصلت إليه الثقافة المغربية، وهذا عائد إلى التطور البطيء الذي كانت تسير عليه الثقافة من جهة، ومن جهة أخرى، عائد للثورات المستمرة التي تعاقبت على أرض المغرب فأتت على الأخضر واليابس.

إن كل ما هو في متناول الباحث الآن، لا ينم عن حركة ثقافية عقلية واعية. ولا يسجل انتعاشا فكريا ناضجا، خاصة في الحقبة التي تعاقب عليها : البرغواطيون، عقبة بن نافع، موسى بن نصير، إدريس الأول.

فكل ما وصلنا من نتاج هذه الحقبة، مشكوك في نسبته إلى البربر. خاصة القادة في خطبهم، فهل هذا يعني أن هذه الحقبة، امتازت بنشر الدعوة الإسلامية، والتفكير في استتباب الأمن والاطمئنان... بعد الضجة التي أثارتها الأفكار الإسلامية في الأوساط البربرية ؟ فضلا عن الصرعات القومية العنصرية بين العرب والبربر ؟؟

إنه السؤال الذي يبقى جوابه رهينا بالبحث المستمر والدؤوب بعد نتاج هذه الحقبة لكي يشهد لها أو عليها. والشهادة هنا إما لابعاد الشك وفسح الطريق للإيمان والاعتقاد الجازم بأن ما بين أيدينا نتاج بربري، أو العكس، تعميق الشك بالحجة والدليل والإثبات بأن نتاج أو بعض نتاج هذه الحقبة هو عربي إسلامي نسب للبرابرة.

غير أنه كيفما كانت ثقافة هذه الحقبة. فإن التاريخ أبى إلا أن يجعل من حقبة الشك الثقافي... حقبة الاشعاع الفكري الإسلامي في الأندلس.

ففي عهد موسى بن نصير، زحفت جيوش البربر مع بعض فيالق العرب الذين جاؤوا مع الفتح الإسلامي، زحفوا شمالا، ثم أبحروا بقيادة القائد البربري طارق بن زياد. الذي تمكن بحنكته وشجاعته أن يقهر الخوف في جنوده، ويبث الذعر في قلوب الإسبان. خاصة حين أحرق السفن التي أقلته وجنوده إلى الشاطىء الآخر. وخطب في جنده خطبته الشهيرة، التي لا تزال محل الشك، تلك الخطبة البليغة التي أثارت شجاعة الجند، فهبوا جميعا كرجل واحد مسجلين أول انتصار للبربر والعرب معا، في سبيل نشر الدعوة الإسلامية.

وكان فتح الأندلس مرحلة أخرى، وتجربة جديدة، للثقافة المغربية. إذ شهد أغلب المؤرخين، أن الفكر العربي الإسلامي. وجد أرضا خصبة، أحسن بكثير من أرضية المغرب. وهذا يعود لعدة أسباب وإشكاليات تخص الإسبان من جهة، والعرب والبربر من جهة أخرى. والأمر لا يحتاج إلى دليل، إذ سرعان ما ازدهرت العلوم والآداب والفنون في المغرب الإسلامي، وأشرق في دنيا الابداع : ابن زيدون، وابن الخطيب، وابن خفاجة...

فأمسى الاشعاع الثقافي ينعكس على المغرب عن طريق الرواة، والمخطوطات، والمبدعين أنفسهم من خلال تنقلهم بين العدوتين : المغرب والأندلس. وزاد في انتعاش الثقافة المغربية، ما آل إليه مآل الأندلس أيام غروب شمسها بعد الازدهار الحضاري الفذ... حيث كان المغرب هو أكبر وريث لتراثها القيم، وأعظم مأوى لعلمائها المبجلين.

فانتعش بذلك علم التاريخ، وفن كتابة الرحلة، والشعر، والزخرفة، والنشاط المعماري : مدارس العطارين، والصفارين، والبوعنانية، والزوايا، والقناطر، والمساجد، وسقايات الماء... ونستطيع أن نقول أن هذه الفترة من تاريخ المغرب، كانت الفترة التي تجمعت فيها عناصر الحضارة المغربية مكتملة. لقد امتازت الدولة المرينية بكونها قضت على الميز العنصري بين العرب والبربر، وأبطلت الازدواجية اللغوية : العربية والبربرية، التي كان قد أحدثها الموحدون من قبل. الشيء الذي ساعد على الميل إلى العربية وإتقانها : كتابة ونطقا. كما ساعد على ظهور أدباء وشعراء فطاحل من أمثال ابن المرحل، الشاعر الذي خلد في شعره مفاخر الدولة المرينية... شعره الذي - مع الأسف - ضاع جله.

وعلى ذكر ابن المرحل، فلقد كان من أفذاذ عصره، تشهد على ذلك سعة ثقافته، وقوة برهانه، ومشاداته اللغوية،

التي تنم عن مقدرة نقدية تتجلى في مساجلاته الأدبية، مع ابن رشيق التغلبي، ومع ابن الربيع...

غير أنه ما كانت الدولة المرينية لتقيم التوادد، والتلاؤم، بين العرب والبربر، لولا وجود عوامل كثيرة أخص منها المذهب المالكي الفقهي. فهذا المذهب - كما هو معروف عنه - يلزم النص ولا يخرج عنه، ويتحاشى استخدام الرأي... لهذا ساعد على الألفة وتوحيد الفكر، واستتباب الأمن.

وفي ذلك يقول ابن المرحل (4).

مـــذهبي تقبيـــل خـــد مـــذهبي
سيـــدي مـــاذا ترى في مـــذهبي
لا تخـــالف مـــالكـــا في رأيـــه
فبـــه يـــأخـــذ أهـــل المغرب

ولعل الجانب اللغوي خاصة ما يتعلق بالنحو العربي، لقي اهتماما بالغا عقب فتح الأندلس، فلقد استطاع النحويون المغاربة، مع زملائهم الأندلسيين أن ينشؤوا مدرسة نحوية، فأبدوا اجتهادا كبيرا في دراسة وحفظ كتاب سيبويه (5) مع نقده، ومواصلة الاجتهاد وإضافة ما رأوه ضروريا، ونخص منهم للمثال فقط : ابن خروف المتوفى سنة 909 هـ وابن عصفور (الأندلسي) وابن الصائغ المتوفى سنة 680 هـ وأبو حيان، وابن مالك، وابن مضاء، الذي كان من نقده الجيد تسهيل النحو وأبعاده عن الحشو (6).

ثم يمكننا أن نضيف أيضا الإمام النحوي (7) ابن أجروم محمد بن داود الصنهاجي. الذي يقول عنه المرحوم علال الفاسي ما يلي : (8) ابن أجروم... صاحب المقدمة المشهورة بالأجرومية إمام النحو وأستاذه في عصره، والذي وقع الإقبال على دراسة مقدمته الصغيرة هذه حتى كانت أول ما يدرس في المعاهد الدينية في المشرق والمغرب قبل النهضة الجديدة.

4) مجلة دعوة الحق عدد 8 صفحة 173 سنة 1974.
5) .... صفحة 139 .....
6) سلوة أنفاس / ج 3 صفحة 100.
7) ابن أجروم ولد عام 672 وتوفي عام 723 دفن داخل باب الجديد بمدينة فاس.
8) المرجع الرابع صفحة 133

وحتى أصبحت الأجرومية نفسها تطلق على النحو، ويظن أن منها اشتقت كلمة جرامير (grammaire) الأعجمية للدلالة على النحو، كما اشتق لفظ (اللجريتمو) من كلمة (الخوارزمي).

يمكن أن نقول بعد هذا أن الثقافة المغربية استمرت في تطور محافظة على وحدتها واتزانها سواء من حيث الشكل، أو من حيث الأصالة في المضمون أو اللغة. فلقد استطاعت العربية بليونتها وسلاستها أن تستحوذ على ألسنة البربر، بل هناك الكثير من المفردات العربية التي أدمجت في اللغة البربرية، وأصبحت تردد في الأهازيج والاشعار.

كما أن هناك أسماء معروفة عند البرابرة الأولين، جاء بها الإسلام والمسلمون، فاغتنت بها اللهجات البربرية، ويمكن أن نلاحظ ذلك في هذه الأمثلة من الشعر البربري (الأمازيغي) (9).

(............

بسمي لاه رزمغ سرس نكين أوال.
يا كاتاغ نيس وراغ لقفول أصالحين.
أيليس نبي موحمد أي ترخوم أياوال.
أخو نانغ إيز موزال نوسي غ أ وغلواس.
أدي أيخو ماميد أورنيوي تاساروت).

في هذا المقطع الصغير نجد ست كلمات عربية، مع بعض التحوير في النطق :

(بسمي، لاه، لقفول، أصالحين، نبي، موحمد) وهي كما يلي في النطق العربي :

(بسم، الله، الاقفال، الصالحين، نبي، محمد).

وحين نعرب المقطع السابق، يكون كالتالي :

اسم الله مفتاحي به أفتح الكلام.
أدخلوه أيها الأولياء في كل الاقفال.
بجاه بنت النبي محمد يأتي الشعر طوع اللسان.
وبجاهها لا نعاني العياء رغم المسافات الطوال.
وبجاهها سنفتح عويص الاقفال.

وبهذا نلاحظ أن اللغة العربية لم تفرض وجودها كلغة

9) مجلة التراث الشعبي - العراقية - عدد 12 سنة 1977.

فقط، بل صارت تطعم بمفرداتها الكثيرة لهجات البربر. الشيء الذي أكسب الثقافة المغربية طابعها العربي.

ذلك الطابع القومي الخالد الذي اعترته الازدواجية أوائل هذا القرن، على يد الاستعمار الفرنسي الذي بدأ بالضبط سنة 1912 م واستمر لمدة أربعين سنة.

في هذه الفترة نزعت الدوائر الاستعمارية إلى طمس المعالم الثقافية المغربية. فظهر ذلك جليا في انتشار بعثات التبشير، وانتشار المدارس الفرنسية وتشجيع المتفرنسين بالمال والوظائف واثارة الحزازات بين البربر والعرب وبث الشك في نفوس الأهالي خاصة فيما يتعلق بالمقدسات التراثية والدينية، الشيء الذي جعل الكثير من الأسر المغربية تنساق عن جهل، وراء لعبة الاستعمار، فتدفع أبناءها لاقتناء الفكر واللغة الفرنسية. حتى برز رجال في هذا البلد العربي يجيدون الافرنجية ويجهلون العربية، والأدهى من هذا أنهم أصبحوا عونا للاستعمار، ينادون بأفكاره، ويسبحون بحمده... اللهم الثلة التي ثابت إلى رشدها، فلم تنطل عليها الخدعة. حيث لجأت إلى الكتاب، لتدرس الكتاب المقدس، والعربية وقواعدها... فلولا هذه النخبة الطيبة التي زاوجت ثقافتها، لكان أمر الثقافة المغربية إلى الضياع والخراب...

إن أغلب من زاوجوا ثقافتهم كانوا من مناضلي الأحزاب الوطنية. الذين لم يجيدوا لغة المستعمر حبا فيه، بل اتخذوها سلاحا واعيا، لاظهار حق المغرب في الحرية والاستقلال، والعيش الكريم... وأخص منهم للتذكير لا للحصر : الأساتذة، أحمد بلا فريج، علي يعتة، إدريس الشرايبي، سليمان مصطفى ويبس، عبد العزيز بن عبد الله، عبد الكريم غلاب، عبد المجيد بن جلون، علال الفاسي، محمد بن أحمد اشماعو، محمد بن تاويت الطانجي، محمد داود، محمد الصباغ، محمد عباس القباج، محمد عبد السلام بن عبود، محمد عزيز لحبابي، محمد الفاسي، محمد العربي الخطابي، أحمد الشرايبي، عزيز بلال... وغيرهم كثير، من الذين وقفوا أقلامهم وفكرهم لنصرة القضية الوطنية، سواء بلغتهم أو لغة المستعمر.

هذا المستعمر البغيض الذي كتل جهده ليمحو أثر الثقافة المغربية. فيكفينا استشهادا على ذلك ظهور الموسوعة الأدبية المغربية (النبوغ المغربي) للعلامة الأديب عبد الله كَنون، لقد كان لظهور كتاب : النبوغ المغربي، دوي وصدى، إذ وجد مقاومة ومصادرة... وصدر في شأنه قرار عسكري يمنع رواجه، ويعاقب كل من تضبط عنده نسخة منه. وكتبت صحيفة (السعادة) لسان الحماية : (صدر أمر يقضي بمنع الكتاب المعنون ب : النبوغ المغربي في الأدب العربي. الصادر باللغة العربية في تطوان من الدخول إلى المنطقة الفرنسية في المغرب الأقصى، وبيعه وعرضه وتوزيعه) (10).

ولكن (النبوغ المغربي) تحدى الاستعمار وبيادقه، فترجم إلى الإسبانية، ونال صاحبه من طرف وزارة المعارف الإسبانية، دكتورة شرف للأداب.

وبذلك كانت فترة الحجر والحماية التي فرضت على المغرب، تجربة أخرى للثقافة المغربية، حيث تجلت الصبغة الوطنية، والقيم القومية في كل نتاج تلك الفترة خاصة إبان قيام الأحداث الكبرى، كمناداة الاستعمار بتطبيق سياسة الظهير البربري، أو مناداة المغاربة بالاستقلال والحرية رسميا يوم 11 يناير سنة 1944 إنهما الحدثان البارزان في عهد الحماية، اللذان تركا بصماتهما واضحة في الفن والأدب.

وكان لتواجد الفكر الاستعماري حتمية الازدواجية الثقافية (11) في المغرب ما دعا لتواجد طائفتين : إحداهما تناصر الازدواجية في الوقت الحاضر، فتؤثر لغة المستعمر فتعبر بها في نتاجها الفني والأدبي... وطائفة أخرى، تناهض الازدواجية وتدعو إلى الوحدة الثقافية، بما في ذلك وحدة اللغة التي هي العربية، اللغة القومية.

وفي هذا يكمن الصراع الثقافي حاليا، بين الأصالة والاغتراب، بين النزوع إلى الجذور، والفرار منها. وتأبى كل طائفة إلا أن تخلد بصماتها. وتأبى جدلية التاريخ الثقافي في المغرب إلا أن يسود المنطلق القومي، ذلك المنطلق الذي يعني عروبة هذا المغرب، ثقافيا وحضاريا...

وجدة مسلك ميمون

---

10) (الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا) صفحة 230.

11) تفصيل ذلك في مقالنا (ظاهرة الأدب المغربي المكتوب بالفرنسية).



إن المقتفي للآثار العربية باسبانيا غالبا ما يقصد الأماكن التي ما يزال الفن العربي الإسلامي باديا فيها للعيان مثل ما هو موجود بمدينة قرطبة كالمسجد، أو غرناطة كالحمراء وغيرهما، بينما توجد مآثر إسلامية خارجة عن هذا النطاق وربما لا تتسرب إلى ذهن الزائر إنما توجد أماكنة تضم آثارا قيمة ولا تعني الزائر المسلم في شيء وخاصة إذا كانت بأماكن دينية مسيحية، والحمد لله ان أماكن دينية وبنايات مقدسة مسيحية باسبانيا تزخرف بمآثر عربية وخاصة في فن البناء والمعمار، فقد عمل مهندسون وفنانون مسلمون في تشييد أماكن مسيحية للعبادة على النمط العربي فبرعوا في زخرفتها وتفننوا في

يسخرونهم للعمل في تشييد المعابد والقصور والحصون والأبراج، بل من الأماكن التي كانت عند المسلمين مساجد فحولت إلى كنائس فطمست معالمها الإسلامية ولكنها في مجملها بقيت محتفظة بهندستها العربية الإسلامية، وهذا كثير وخاصة في مقاطعة الأندلس وبالأخص في مدينة طليطلة ونواحيها، وكل منا الآن يخص الآثار العربية المتجلية في المعابد المسيحية أما غيرها من الأماكن كالمعالم التي خلفوها بأماكن أخرى كالحصون والأبراج والقصور فلندعها إلى فرصة أخرى بحول الله.

في الحقيقة كانت الهندسة المعمارية وفن البناء عندما استولى النصارى على الأراضي الإسلامية بالأندلس وتساكن الشعبان المسلم والنصراني متداخل بعضه في بعض فتجد مسجدا مع كنيسة في نفس البناية بل بناية واحدة تضم عدة أجنحة منها ما هو خاص بالمسلمين ومنها ما هو خاص بالمسيحيين، وكان يحدث هذا غالبا بين المدجنين والمولدين الذين يدعون بـ «موثاربيس» وكل واحد من الجانبين يضع تصميما حسب طريقته الهندسية.

كان المولدون يبنون على الطريقة القوطية، والمدجنون على الطريقة الإسلامية، وهكذا كما يقول : باسيليوبافون مالدونادو في كتابه : عن مدينة «تطيلة» بعنوان «الفن الإسلامي المدجن» عند الكلام على كنائس المولدين، يلاحظ من الطابع البنائي لهؤلاء بطليطلة في العصر العربي، المحافظة على العوائد القوطية التي تطورت ببطء، ففي ميدان الفن طرأ امتزاج بين التقاليد الرومانية والقوطية والإسلامية كما وقع في قرطبة، أما المسلمون الأولون بطليطلة فقد سمحوا للمولدين بمزاولة ديانتهم بكل حرية في كنائس العهد القديم المقامة داخل المدينة، ولكن يظهر من بعد أن هذه المعابد صارت مراقبة ولم يسمح بإقامة معابد مسيحية أخرى، لذا فإن المعبد الوحيد المولد في ناحية طليطلة الذي بقي بدون تعديل هو معبد سانتا مرايا، ثم يأتي بافون بهذا التمازج من تعاطي العبادات في أماكن واحدة من طرف الديانتين، وان هذا جعل بالتالي يؤثر على الهندسة المعمارية حتى الدينية

منها فيصبح للمعابد سواء منها المسيحية أو الإسلامية تشابه في التصميم والزخرفة.

وان هذا ليس وليد العصور الإسلامية الأخيرة بل بدأ من العصور الإسلامية الأولى، الشيء الذي جعله يستمر حتى أصبحت له هذه الظاهرة من الامتزاج والازدواجية، ثم يضيف : أن مسجد الحمة بقرطبة أسس على يد الأمير الأموي عبد الرحمن الأول وضع في نصفه الكنيسة القديمة حسب اتفاق مع المولدين الذين استمروا في نصفها الآخر يزاولون طقوسهم الدينية ثم من بعد ذلك عوض المسلمون المسيحيين عن القسم الباقي من الكنيسة، ان حالة المولدين الطليطليين في العصر الإسلامي لا تختلف عن حالة المدجنين، ولو أن هؤلاء في الأول كان يسمح لهم بحرية الصلاة في بعض المساجد القديمة ونادراً ما كان يسمح لهم بإقامة أخرى جديدة بل حتى في كبرها لم تكن في حجم كنائس النصارى لأن عدد المسلمين أصبح يتقلص، وعدد المسيحيين يتكاثر فأصبحت المساجد تقتنى من طرف النصارى. ويغلب على الفن المدجن بالكنائس كثرة الأقواس ذات الشكل المدعو «بنعل الفرس» والزخرفة بالجبس الشيء الذي يبدو جديدا وخاصة بطليطلة في العصر المدجن، كما يقول غومين مورينو في كتابه : «الفن المدجن الطليطلي» يوجد مسجد بطليطلة بناؤه مُدَجَّن يرجع عهده إلى السنوات الأخيرة من القرن الثاني عشر يحمل اسم مسجد كريستو ذي لا لوث، كما يتجلى أيضا الفن المعماري المزخرف ذو الطابع العربي بأسمى معانيه في البيعة اليهودية المدعوة ببيعة سانتا ماريا لابلانكا، وكنيسة سانتالوكاديا التي يشبه بابها باب مسجد قرطبة في أقواسه ونقشه، ويقول بافون في كتاب آخر «الفن الطليطلي الإسلامي المدجن» توجد وثائق من عهد المولدين الأواخر تثبت بأنه توجد بعض ابنية دينية أقيمت على يد النصارى وهي مزدوجة في بنائها، تضم بعض أعمدة على الشكل الروماني والقوطي، ولكنها لا تخلو من صبغة مدجنة في بعض نقوشها وهندستها ككنيسة سانتا أولاليا، الشيء الذي يدل على مدى تمكن الفن العربي المدجن في نفوس أهالي البلد ولو من النصارى، ثم كنيسة سان بارطولومي التي تشبه واجهتها صومعة حسان بالرباط يرجع عهدها إلى القرن الرابع عشر.

ومن أهم المعابد المتأثرة بالفن بالعربي والتي هي من عهد ما بعد خروج العرب يرجع تاريخ بنائها إلى القرن السادس عشر كنيسة سالورينثو التي يتجلى فيها الفن العربي بجانب الفن النصراني، وخاصة بعض الزخارف التي تستعمل عادة في المساجد. يقول باقون : «ان التأثير الغربي أصبح يفرض نفسه في هندسة البناء، ولكن الزخرفة بقيت إسلامية تتجلى في عدة بنايات كثيرة حتى أن المشاهد لواجهة بعض الكنائس تبدو له وكأنها مسجد إسلامي بأبوابه وأقواسه والزخرفة الموجودة فوق أبوابه ونوافذه إلى غير ذلك، كما يذكر بافون في كتابه أيضا : «الفن الطليطلي الإسلامي المدجن» ان كل صوامع معابد طليطلة مبنية باللبن على الطريقة العربية المأخوذة من العهد الموحدي وأن الصوامع الأندلسية وإفريقيا الشمالية تتشابهان في استقامتهما وشكلهما كالخرالدا بإشبيلية. وان أقدم صومعة على الشكل العربي بطليطلة توجد بكنيسة تدعى سان رومان، فأقواسها تشبه بأقواس مسجد القرويين بفاس، بل ان بعض النقوش الموجودة ببعض الكنائس التي كانت في بالمساجد الإفريقية يرجع عهدها إلى القرن الثاني عشر كمسجد الكتبية بمراكش، كما أن فن البناء المدجن لم يقتصر على معابد طليلطة ونواحيها بل انتشر في نواحي إسبانيا أخرى كما هو موجود في كنائس بعض قرى من ضواحي مدريد. والذي يميز فن بناء المدجنين عن غيره هو انه (أي البناء المدجن) مقام باللبن، والمدجنون هم الذين استعملوا اللبن في البناء لأول مرة باسبانيا وأسوا معملا له بطليطلة ومنه صاروا يصدرونه لبقية اسبانيا، يقول بافون أن جماعة من صناع اللبن سكنوا في القرن العاشر بمقاطعة ليون وأن فرناندو الأول بعد غزوة أراضي البرتغال بعث بأسرى مسلمين للعمل في بناء الكنائس ومن ثم أخذ المسيحيون استعمال اللبن عن المسلمين في البناء.

ان العرض طويل والموضوع واسع في هذا الباب، ولنا عودة إليه في مناسبة أخرى، بحول الله.

الرباط محمد قشتيليو

تأسيس جمعية الأعمال الاجتماعية
لموظفي وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

تأسست في يوم الجمعة 17 جمادى الأولى 1405 موافق 8 فبراير 1985 بمقر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، جمعية الأعمال الاجتماعية لموظفي الأوقاف والشؤون الاسلامية خلال اجتماع ترأسه السيد الوزير الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري. وقد ألقى سيادته في بداية الاجتماع كلمة توجيهية أشار فيها إلى أهمية الأعمال الاجتماعية ودورها في ربط أواصر الأخوة والتعاون بين الموظفين. وتم بعد ذلك انتخاب المكتب الاداري للجمعية الذي يتكون من السادة:

الرئيس: مصطفى المهماه
نائب الرئيس: محمد القادري
الكاتب العام: محمد الرغاي
نائب الكاتب: ميلود بلقادة
الأمين: حمزة بناني
نائب الأمين: عمر الروداني

المستشارون:

عبد الجليل العيسي	أحمد بنعبد السلام	جمال ولحكم
رشيد برقية	عبد الكبير الخطفاني	محمد بنزبير
محمد التاجي	محمد صواب	عادل بركاش

ديوان دعوة الحق

وسائل الحق

بقلم: الشاعر المدني الحمراوي

أي طب يعالج اليوم دائي ؟ ... غير غوث من جانب الزهراء
عجز الطب فانتحيت ذراها ... مستغيثا برنة وبكاء
بضعة النور والجلال أغيثي ... مستجيرا بالحرة الشماء
عيل صبرا، وضاق ذرعا، فأسرى ... نحو باب السيادة القعساء
أنت يا بضعة الحبيب أمان ... لمحبيك من صروف الشقاء
كيف يخزى من جاء بابك يسعى ... ولك الجاه في الثرى والسماء
قرة العين أسعدي وأمدي ... حائرا ملهب الحشا بالرضاء
كم رأى منك في الشدائد ماكا ... ن لها كاشفا بلا إبطاء
كم يد عنده لفضلك جلى ... هي بعد الرضى أجل العطاء
فأفيضي على نزيلك عطفا ... به يشفى من كل هم وداء




لك بالمصطفى الحبيب مقام ... هو عند الإله عالي البناء
أنت نور من نور أحمد سار ... سريان الأرواح في الأعضاء
يستمد الوجود منه سلاما ... وصلاحا لسائر الأحياء
نور خير الورى؛ فأعظم بنور ... هو للكون سر هذا البقاء
كل ما فيه من جماد وحي ... به يبقى من أول الإنشاء
حكمة الله أبدعت كيف شاءت ... حين خصت محمدا بالعلاء
رفع الله قدره فتسامى ... في سحيق يمتد فوق العماء
قبل فتق الوجود كان حبيبا ... ونبيا وعنصرا للضياء
أودع الله فيه كل كمال ... وجمال وهيبة ونقاء
فهو الطهر والمعين المصفى ... وهو السر في حجاب الخفاء
وهو الفاتح الذي فتح الله به من خزائن الأشياء :
كل ما كان أو يكون قديما ... وحديثا من هذه الأجزاء
وهو الخاتم الذي ختم الله به أنبياءه بانتهاء
نقطة البدء والنهاية فيه ... ظهرت فاستحق كل الثناء
فتأمل مقاله في حديث : ... كنت في الغيب أول الأنبياء
وتأمل حديثه : كان بعثي ... مع قرب القيامة الدهياء

☆ ☆ ☆

سيدي يا ملاذ كل ضعيف ... ضاق ذرعا بكل هذا الفضاء
لا تدع حائرا محبا وفيا ... يتلظى على جمار العناء
فتداركه بالعناية يا من ... جمعت فيه مكرمات الوفاء
أنت والله رحمة وأمان ... وشفاء من معضل الأدواء
جئت هذا الوجود والكون يسري ... في ظلام وشقوة وعداء
فمحت الحياة من كل سوء ... فإذا الناس في ظلال الإخاء
وإذا الحق والفضيلة فيها ... فوق جور الطغاة والأقوياء
وإذا دعوة الحقيقة والحق تنادي إلى السوي السواء
قمت لله داعيا وبشيرا ... ونذيرا لجاحد النعماء
عظم الله فيك خلقا عظيما ... يا سراجا مشعشع اللألاء
يا خليلا لله أي خليل ... وحبيبا حباه خير حباء

وصفيا من صفوة وشفيعا ... حين تعيى شفاعة الشفعاء

وإماما للمرسلين عظيما ... وغدا ينضوون تحت اللواء

حفك المجد كله والتهاني ... حين حلقت فوق أوج الجواء

إذ ركبت البراق كالبرق يخطو ... بك نحو المراتب العلياء

فتلقيت في المعارج أسمى ... نعمة من جلائل الآلاء

وتنعمت بالخطاب كفاحا ... وتجاوزت مرتقى السفراء

وتلقيت من عزيز كريم ... خير فرض مؤكد الإيحاء

صلوات خمس بخمسين أجرا ... يا لها من مزية غراء

ورأيت العجاب في ملكوت ... رائع السر واسع الأرجاء

فرأيت الجنان فيها نعيم ... ورأيت الجحيم ذات الصلاء

تلك آي لله ذات جلال ... مدهشات لأعقل العقلاء

لو رآها سواك ذاب فبأسى ... فوق تلك الطباق مثل الهباء

لم يزغ منك - إذ رأيت عجيبا - ... بصر ما طغى بذاك الهواء

وفؤاد مطهر لم يكابد ... في بحار الجلال أي امتراء

قد تلقى مشاهد الحق صدقا ... وتملى هناك كل بهاء

تلك والله آية ليس فيها ... مطعن للزعانف السفهاء

وكفاك الكتاب في كل دهر ... آية تجتلى بغير انقضاء

وكفاك الذي بنيت فأبقيت لنا من شريعة بيضاء

لك فضل على الحياة عظيم ... ليس يحصيه أبلغ البلغاء

عجز الشعر عن مديحك لكن ... انطق الحب ألسن الشعراء

يا أبا القاسم القسيم المحيا ... جد بنعماك يا أبا الزهراء

قد توسلت بالزكية لما ... دهمتني شدائد البرحاء

قد تعودت من نداها عطايا ... غمرتني بفرحة ورضاء

بك أرجو وبالبتول مرامي ... وبريحانتيك كل الشفاء

وبحبيبك والحُميراء سؤلي ... وعلي وسيد الشهداء

وبآل النبي أهل المعالي ... وبأصحاب سره النجباء

وصلاة عليك في كل آن ... وعلى أهل بيتك السعداء

وسلام كأنه نفحات ... من رياض ترف بالأنداء

رب فـاقبـل وسـائـل الحـق يـا من
يمحـو بـالعفـو شقـوة الأشقيـاء

قـد تـوسلت بـالأحبـة لمـا
أيقن القلب أنهم أوليـائي

وتهيبت أن أقـدم نفـي
دونهم في تضرعي ودعـائي

فعلى البـاب قـد وقفت كسيرا
أتـردى بـذلـة الفقـراء

فتفضـل على ضعيف عليـل
بـات يشكـو قـوارص الـلأواء

أنت ربي فـلا تكلني إلى من
هـو مثلي مشتت الآراء

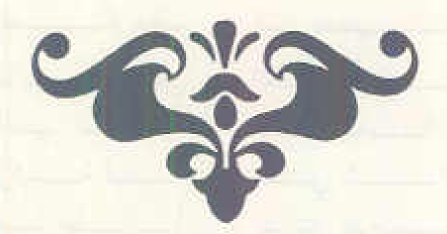
جـد بعفـو معجـل، وصـلاة
وسـلام على رفيـع السنـاء

أحمـد الحـامـدين في كـل دهر
وشفيـع العصـاة يـوم اللقـاء

وعلى بضعـة الحبيب المفـدى
وبنيهـا والعترة الكرمـاء

وعلى أمهـاتنـا والمـوالي
وعلى الصحب صفـوة الاتقيـاء

مراكش المدني الحمراوي



يا ليلُ أصبحْ!..

بقلم: الشاعر محمد الحلوي

يا ليل أصبح ! كي يرى ... قومي تباشير الضياء
تاهت مراكب أمتي ... في لجك الطامي الفناء
عصفت بهم ريح الهوى ... وأضلهم روح العداء
ووهت عراهم بعدما ... كانوا مثالا في الإخاء
وتقطعت أرحامهم ... واستعذبوا طعم الدماء
وتنكروا لمبادئ ... بلغت بهم أوج السماء
وتمزقوا وعدوهم ... في القدس يفعل ما يشاء !

☆ ☆ ☆

يا ليل أصبح وانكشف ... عن ثغر فجر باسم
فلطالما أغرقت نفـ ... ـسي في ظلام قاتم
وحرمت في دنياي حـ ... ـتى من أماني الحالم
ما أبصرت عيناي غيـ ... ـر هزائم ومآتم !
وبني العروبة في خلا ... ف متجدد دائم
عهدي بهم لا ينحنو ... ن لمستبد غاشم
شاد الجدود وهدموا ... شلت أيادي الهادم !

☆ ☆ ☆

يـــــاليـــــل أصبــــح ! أثقلت — قلبي وأضنتني همـــــومـــــك
جثمت على نبضـــــاتـــــه — بمسيرهـــا الـــواني نجـــومـــك
وتلبـــــدت في نـــــاظري — بظلهـــا الـــداجي غيـــومـــك
أسهرت أجفـــــاني ولي — قلب تمـــزقـــه كلـــومـــك
عصفت ريـــاحـــك بعـــدمـــا — غنى بـــواحـــاتي نسيمـــك
مـــــا سرني أني - وقـــد — أمعنت في جرحي - نـــديمـــك !
أسقى كـــؤوســـا مرة — ويـــذيب أنفـــاسي جحيمـــك !

☆ ☆ ☆

يـــــاليـــــل أصبــــح ! إن يكن — للعرب في ليـــــل صبـــــاح
نـــــام المجـــــاهـــد واسترا — ح على ســـواعـــده الـــسلاح !
وخشيت أن تلتـــــــــــــا — م في أعمـــاقنـــا تلـــك الجراح !
فـــإذا العيـــون البـــاكيـــا — ت على قضيتنـــا شحـــاح !
لم يبـــق في ســـاحـــاتنـــا — إلا المراثي والنـــــــــواح
ومـراكـب العـرب التي — ترسـو تعـاكسهـا الريـاح !
والقـــدس ليس بعـــائـــد — إن لم يكن فينـــا صـــلاح !

☆ ☆ ☆

يـــــاليـــــل أصبــــح وارتحـــل — عنـــا بـــلا قبـــل الـــوداع
مـــــا كنت الا زورقـــــا — أرسى وليس لـــــــه شراع
نسيت عيـــوني في ظـــلا — مـــك مـــا الضيـــاء ومـــا الشعـــاع !
وســـــــألت عن فجر العرو — بـــة أين راح وكيف ضـــاع
فرأيتـــه متـــواريـــا — خلـف التـمـزق والصـراع
مـا حـاول الإشراق إلا اغتالــه جيـل الضيـــــــــــــاع !

☆ ☆ ☆

يـــــاليـــــل أصبــــح ! عـــل يعـــ — ـرب أن تعلمهـــــا العبر
داست على هـــام الـــزمـــا — ن ومـــــا وعت ممن غبر
لا تـتـــوي أقـــدامهـــا — للسيـر إلا في الحفـر

وإذا وهت وتعثرت	لامت وعاتبت القدر
لا تستسيغ حياتها	إن لم يخالطها كدر
يا أمة يرثي لها	ولحالها كل البشر !

☆ ☆ ☆

يا ليل أصبح ! بح صو	تي من مناداة الرفاق
وجأرت بالشكوى وصفـ	ت قوافي الشعر الرقاق
وبكيت من سقطوا ضحا	يا في الشآم وفي العراق
ما كان أضيعها دما	ء بين أهليها تراق !
حتى متى طاقاتنا	تفنى ويعرب في السياق ؟
يا للدماء تراق والـ	قدس المضيع في وثاق !

☆ ☆ ☆

يا ليل أصبح ! ثم أصـ	بح عن ضياء واعد
وابعث صلاح الدين في	جند وحشد حاشد
ليفك بيت الله من	أيدي العدو الحاقد
مسرى النبي محمد	ومزار أفضل ساجد
يدعو بنيه وليتهم	سمعوا نداء الوالد
متطلعا لغد وجيـ	ل مستميت صاعد

☆ ☆ ☆

يا ليل أصبح ! خل فجـ	رك في القلوب ينور
ليطارد اليأس الذي	هو للشعوب مدمر
خل الورود تفوح في	درب الجهاد وتزهر
قرب ليعرب فجرها	فبغيره لا تثأر
طل ما تشاء فعزمها	كالصخر لا يتكسر
وانشر ظلامك ما تشا	فالله فوقك أكبر !

محمد الحلوي



بقلم: محمد بن محمد العلمي

إقبل ضراعة نفسي، … يا من به تم أُنسي

في باب فضلك إني … لقد توخيت عرسي

فلم تذرني شريدا، … إذ فيك بدري وشمسي !

وأنت ذكرت روحي، … إن كان جهلي ينسي

فما فقدت رجاء، … كلا ! ولا كان يأسي !

ولن يقاس هيامي، … بعشق (ليلى) و (قيس) :

إني هويت على أجـ … ـمع الجذوع بفأسي !

فما سواك هباء، … لا يستغاث لبأس !

وأنت وحدك تكفي … لصد هول وبؤس

تعطي بغير سؤال، … ما فوق ظن وحدس

غدي عليك، ويومي، … بك استقاما، وأمسي

فلا لساني يوفي … لك الثناء، وحسي

فالحمد والشكر فضل الـ … ـحميد ! أجمل درس !

إن اعترافي بذنبي، … ينهي ابتئاسي ورجسي

إذا انضبطت فإني … نجوت من كل حبس

يارب كن لي أنيسا، … نورا، بلحدي ورمسي !

جميل لطفك يبدو … في كل جهر وهمس

وآية الجود صحت … في كل جس ولمس

ونور وجهك منه … أنشودتي ذات جرس

أنت الجميل الجليل الـ … ـقرير في عمق نفسي !

فالعفو منك كريم، … يهزني بالتأسي

وأنت وتر خلقت الـ … أزواج من كل جنس

وفي رضائك أنأى، … عن كل مكر ودس

أنت الوضوح الذي قد … أنار قلبي ورأسي

ومن سناك ضميري … ينزاح عن كل لبس

وما سواك زهيد : … لكم يباع بفلس !

وأنت وحدك كنزي، … فلن أسام ببخس،

وأنت عزي وسعدي، … فلن أصاب بنحس !

فاجعل سفينة روحي … في شط أمنك ترسي !

بمحض فضلك إني … أغدو، وأضحي، وأمسي

فاجبر بعطفك كسري ! … هذب بلطفك حسي !

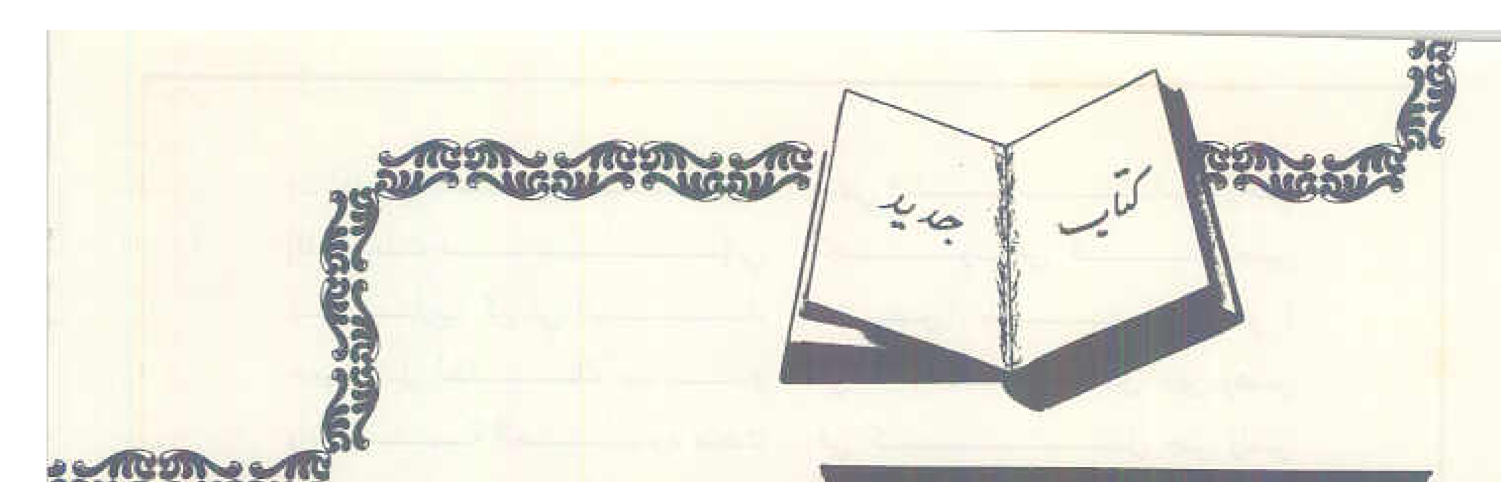
فإن ذكرك دوما، … بالشهد يترع كأسي

ومنه يشمخ صرحي … حقا بأوطد أس !

فأنت غوثي وغيثي، … وأنت تضمن غرسي !

فاحفظ من الزيغ روحي، … واقبل ضراعة نفسي !

الرباط محمد بن محمد العلمي



مُسند عبد الله بن عُمَر

تأليف: العلامة الطرسوسي

تحقيق: الأستاذ راقب عرموس

عرض وتقديم: الأستاذ زين العابدين الكتاني

أتناول في هذا العدد: «مسند عبد الله بن عمر» بعد أن تناولت من قبل «مسند أبي بكر الصديق رضي الله عنه» نظرا لأهمية الكتابين، واعتبارا لموضوعهما العلمي سواء بالنسبة لمتتبعي ما جد في عالم الكتب، أو بالنسبة للمهتمين بالثقافة الأصيلة وخصوصا علوم الحديث.

والكتاب المعني هو تخريج أبي أمية محمد بن إبراهيم الطرسوسي (1) في علوم الحديث، وهو أحد المسانيد التي لم تطبع من قبل في مادته.

وهو من الحجم ما دون المتوسط، صدرت طبعته الأولى عن إحدى الدور الجادة بالشرق العربي، (سنة 1393 هـ - 1973م)، يقع في حوالي مائة صفحة في إخراج علمي جيد يضم في مجموعه:

أولاً : المقدمة - وتتناول تعريفا بالمسانيد، وترجمة عبد الله بن عمر، وترجمة أبي أمية الطرسوسي، وصفة المخطوط، ومنهج المحقق في المخطوط.

ثانيا : نص المسند.

- السماعات في أول المسند.
- السماعات في آخر المسند.
- تصنيف المسند حسب المواضيع.

ويضم موضوع المسند وملحقاته :

الإيمان - الطهارة والوضوء - والآذان - والصلاة - والجنائز والحداد - وصوم يوم الجمعة - والحج - وعاشوراء - والزكاة - والبيوع - والحدود - والأسرية - والوصية - وخلع الطاعة - ما جاء في الكلام - أحاديث متفرقة.

ثالثا : فهرس بأوائل الأحاديث.

- أهم المراجع، والتوصيات، وفهرس بمحتويات الكتاب.

☆ ☆ ☆

وإذا كان المسند الذي نحن بصدد الحديث عنه طبع كما أسلفت أول (2) مرة وهو تخريج الحافظ البغدادي أبي أمية محمد بن إبراهيم الطرسوسي وهو إمام الحديث،

---

1) المتوفى سنة 273 هـ / 886م.

2) سنة 1393 هـ / 1973م.

المتوفى (سنة 273 هـ ـ 886م) وتحقيق الأستاذ راتب عمروس الذي أخذه عن مخطوط محفوظ في المكتبة الظاهرية بسوريا، حيث يوضح المحقق أن :

1) ـ الجزء فيه من مسند عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

— تخريج أبي أمية محمد بن إبراهيم الطرسوسي رحمه الله.

— رواية أبي علي الحسن بن حبيب بن عبد المالك الحضائري.

— رواية أبي محمد عبد الرحمن بن عثمان بن القاسم بن معروف بن أبي نصر عنه.

— رواية أبي الفضل أحمد بن علي بن الفضل بن الفرات عنه.

— رواية أبي محمد عبد الرحمان بن أبي الحسن الداراني عنه.

— رواية الشيخة الصالحة أم الفضل كريمة ابنة أبي محمد عبد الوهاب بن علي بن الحسن القريشية عنه.

وفي أعلى الورقة «سمعه وانتسخه محمد بن عبيد بن أحمد البالسي» وسماع عبد الله بن أحمد بن المحب المقدسي».

والخط واضح مقروء ـ كما يوضح ـ وهو على نسق واحد من أول المسند إلى آخره. والمسند كامل لم يتلف منه شيء وعليه سماعات كثيرة في أوله وآخره لعل أهمها سماع الشيخ أبي محمد بن عبد الرحمان ابن أبي الحسن الداراني سنة 558 هـ... والأحاديث فيه غير مبوبة أو مرتبة. ويبدأ المسند بحديث عن الصلاة، ويختم بحديث عن الحج (3).

2) ـ كما يوضح الأستاذ المحقق أن النص أخذ من نسخة واحدة هي الموصوفة خصوصا وأنه لم يستطع الحصول على نسخة أخرى، وربما تكون هذه النسخة وحيدة، لكن ذلك لا يعيبها، فهي نسخة كاملة مراجعة، وعليها سماعات كثيرة، وقد ساعده في تحقيق النص وضبطه وجود معظم الأحاديث الواردة في المسند في كتب الحديث المختلفة إن لم يكن بالنص فبالمعنى (4) وقد اتبع في التحقيق :

3) ـ نقل النص والعودة إلى كتب الحديث المختلفة وقابل الأحاديث، وقد استغرق ذلك وقتا وجهدا ولكنه كان ممتعا وأدى الغرض تماما.

4) ـ راجع أسماء الرواية على كتب التراجم وضبطها، حيث لاقي في ذلك بعض الصعوبة لأن معظمها مكتوب بالمخطوط دون نقاط على عادتهم بالكتابة في ذلك العصر.

5) ـ وتعتمد ذكر أسماء الرواة المشار إليهم بكناهم أو ألقابهم كاملة في الحواشي، وضبط النص بالشكل وشرح بعض الكلمات، وعلق على الأحاديث بما يوضح النص ولا يخرج بالتحقيق عن غايته.

6) ـ وحيث أن الأحاديث وردت غير مبوبة أو مرتبة فقد أوردها كما هي لتقديم الكتاب كما وضعه مؤلفه، وتسهيلا للمراجعة. والبحث وأعاد كتابة جميع الأحاديث مبوبة بعد حذف أسانيدها وأنشأ فهرسا خاصا بأوائل الأحاديث، ورقم الأحاديث برقم متسلسل من أول المسند إلى آخره.

وبذلك جاء المسند كما أراده صاحبه مع إمكانية الرجوع إلى أي حديث أو أخذ الأحاديث الخاصة بموضوع معين بسهولة ويسر مما يضفي على الكتاب منهجا علميا رائعا يدعو إلى الإعجاب والإكبار والتقدير، خصوصا وأن الموضوع ذا أهمية بالغة (5).

☆ ☆ ☆

ونظرا لأهمية المسند الذي نحن بصدد الحديث عنه في هذا الصدد من الناحية العلمية الصرفة، فإنني رأيت من المفيد أن أقدم تعريفا للمسانيد، تقريبا للذين لم تسمح لهم الفرصة بذلك، وحتى يحيطوا بالموضوع علما...

أما المسانيد من حيث هي فمفردها وطريقة ترتيب الأحاديث فيها طريقة خاصة تختلف عن كل ما سبق، وهي تقوم على أن يذكر صاحب المسند «أي مصنفه»

3) انظر ص : 15 من نفس المسند.

4) نفس المصدر ص : 16.

5) انظر نفس المصدر صفحة : 16.

الصحابي أو عدة صحابة، ويذكر في ترجمة الصحابي الأحاديث التي يرويها عن شيوخه من طريق ذلك الصحابي مثال ذلك : يأخذ المصنف عليا بن أبي طالب، ويذكر في ترجمته الأحاديث التي يرويها عن أشياخه منتهيا سندها إلى علي بن أبي طالب، وقد يقتصر المسند على صحابي واحد وقد يحوى عدة صحابة، فإذا انتهى المصنف من سرد الأحاديث التي يرويها عن الصحابي الأول انتقل إلى الصحابي الثاني وهكذا، وقد ترد أسماء الصحابة مرتبة على الحروف الهجائية، وقد تأتى دون أي ترتيب، ولا شك أن طريقة تصنيف المسانيد لا تخلو من الصعوبة في المراجعة لأن الصحابي قد يروى عددا كبيرا من الأحاديث، ومن يريد الرجوع إلى حديث معين عليه مراجعة جميع الأحاديث.

وقد بلغت المسانيد عددا كبيرا اشتهر منها أكثر ما اشتهر (مسند أحمد بن حنبل) وهو مطبوع ومتداول. كما طبع عدد لا بأس به من المسانيد وما زال عدد أكبر لم يطبع حتى الآن، ومنها أيضا (مسند أبي بكر الصديق رضي الله عنه)، و(مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب) هو تخريج أبي أمية محمد بن ابراهيم الطوسوسي رحمه الله وهو أحد المسانيد التي لم تطبع قبلا بإخراج سهل المتناول وتصنيف حديث (6).

☆☆☆

في حي أرى من الأكيد أن أقدم تعريفا لمصنف هذا المسند وهو عبد الله ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي قال عنه النبي عليه السلام : «إن عبد الله رجل صالح».

وعبد الله بن عمر أسلم وهو صغير وهاجر مع أبيه، ولم يحضر «موقعة أحد» لصغر سنه، وحضر «موقعة الخندق» والمشاهد بعدها، وفي رواية أنه أول مولود ولد في الإسلام، ولكنه لا يختلف في أن ولادته كانت في مكة ووفاته فيها كذلك.

كان عبد الله ورعا تقيا «من أملك شباب قريش لنفسه عن الدنيا» لم يمل بالدنيا ولم تمل به حتى أن ابن المسيب على ما هو عليه من رفعة ومنزلة يتمنى أن يلقى الله بمثل عمله «مات يوم مات وما في الأرض أحب إلي من أن ألقى الله بمثل عمله منه».

وكانوا لا يعدلون برأيه رأي أحد، فقد عاش بعد رسول الله ستين سنة، ولم يخف عليه شيء من أمره ولا من أمر أصحابه.

وكان تقاه يمنعه من كثرة الفتوى حتى أن سليمان بن يسار قال «كنت أقسم نفسي بين ابن عباس وابن عمر فكنت أكثر ما أسمع ابن عمر يقول : لا أدري، وابن عباس لا يرد أحدا، فسمعت ابن عباس يقول : عجبا لابن عمر ورده الناس، ألا ينظر فيما يشك، فإن كانت مضت به سنة قال بها، وإلا قال برأيه، قال : فسمعت ابن عباس وقد سئل عن مسألة فارتج فيها فقال : البلاء موكل بالقول».

أما الإمام مالك فيقول عن عمله : كان المشايخ يقولون : من أخذ بقول ابن عمر لم يدع من الاستقصاء شيئا، ولم يكن أحرص من ابن عمر إذا سمع شيئا من رسول الله على أن لا يزيد فيه أو ينقص منه شيئا.

ولصفاته هذه احتل المنزلة التي تليق بأمثاله في نفوس الصحابة، فقد اختاره عثمان بن عفان مندوبا عنه وأرسله إلى بلاد الشام لاستقصاء الرسائل التي كانت تأتي إلى المدينة تطعن في ولاة الأمصار.

ولما نشأ الخلاف بين المسلمين على إثر مقتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ بايع ابن عمر عليا لكنه تحرج من الخروج معه للقتال، ومنع أخته حفصة من الخروج مع عائشة، فأرسلت إلى عائشة، أن عبد الله حال بيني وبين الخروج، فقالت عائشة : يغفر الله لعبد الله.

أبى أن يبايعوه بالخلافة بعد مقتل عثمان، ولما حاول عمرو ابن العاص استدراجه يوم الحكمين قال : «لا والله لا أعطي عليها، ولا أقبل عليها، ولا أفعلها إلا عن رضى من المسلمين».

قال سلام بن مسكين : سمعت الحسن يقول : «أتوا ابن عمر فقالوا : أنت سيد الناس وابن سيدهم والناس بك راضون، أخرج نبايعك، قال : لا والله لا يراق في محجمه دم».

وتوفي في مكة بلدة مولده أول سنة 74 هـ بعد أن

6) انظر صفحة : 17.

افتى في الناس ستين سنة، وكانت وفاته بعد الحج مباشرة، وقد روى صاحب (الاستيعاب) قصة وفاته بتفصيل....

مات ابن عمر، وهو مثل عمر في الفضل، وكان عمر في زمان له فيه نظراء، وعاش ابن عمر في زمان ليس له فيه نظير، وهو آخر من توفي في مكة من الصحابة، وله في كتب الحديث 2630 حديثا، وقد روى عن النبي ﷺ وعن عدد من الصحابة، وروى عنه خلق كثير (7).

وبعد، (فمسند عبد الله بن عمر) مرجع مهم للغاية من حيث الاختصاص، وقد حاولت جاهدا أن أجعل هذه الصورة للمتتبعين ليعيشوا لحظات تجعلهم يأخذون صورة عن الكتاب وموضوعه ومؤلفه في هذا الجو العبق بالإيمان والاطمئنان.

ذ : الكتاني

صدر عن مكتبة المعارف كتاب جديد للدكتور يوسف الكتاني بعنوان «منهج الإمام البخاري في علم الحديث» وقد تناول الكتاب التعريف بالمناهج وأقسامها ومقارنتها بمنهج المحدثين وفي مقدمتهم البخاري وطريقة أخذه الحديث وكتابته، وجمعه، واختيار الشيوخ ورجال الإسناد ونقد الرواة، وتمحيص النقل، وشروطه في الحديث الصحيح وتراجمه فيه وأثر منهجه في المنهج العلمي الحديث والمقارنة بينهما والأفضلية التي امتاز بها المنهج الإسلامي إلى اليوم.

من القصص الواقعي الأغرب من الخيال



شبح في الظلام

للأستاذ أحمد عبد السلام البقالي

﴿إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾.
صدق الله العظيم

اشترى الغالي التمساني تذكرتَيْ سفر له ولزوجته الشابة إلى مدينة (أكادير) في الحافلة التي تغادر (الدار البيضاء) في الحادية عشرة ليلا.

ونظر إلى ساعته، فوجد أنه ما يزال نصف ساعة على خروج حافلته، فسأل زوجته هل تريد شرب شيء بمقصف المحطة قبل الركوب.

وجلسا إلى مائدة، وطلب الغالي لنفسه «اسبريسو» وطلبت هي كأس حليب ساخن بقطرة قهوة، قالت لزوجها إنها تريد أن تنام في الحافلة.

ورشف هو من فنجانه، ومسح بعينيه المقصف، وقاعة الانتظار المكتظة وقال :

ـ لا أعتقد أنه سيكون بإمكانك ذلك؛ يبدو أن حافلتنا كاملة العدد.

وتناولت هي من حقيبة يدها مجلة مصورة أخذت تتصفحها بينما هو يمسح المحطة بعينين صقريتين درّبهما العمل في جهاز الشرطة السرية على قوة الملاحظة، واستشفاف هويات الناس.

واسترعى انتباهه شيء على باب المحطة الداخلي، فأشار إلى صف من الواقفين جنب الحائط، وسأل زوجته :

ـ من تعتقدين أحق بالصدقة من بين الواقفين هناك؛ جنب باب المحطة ؟

فتأملت الواقفين لحظة ثم قالت :

ـ الرجل الأعمى وطفلته الصغيرة، طبعا !

فابتسم :

ـ ها أنت تقعين في الخطأ الكلاسيكي الذي يقع فيه جميع الناس، ذلك الأعمى متسوّل محترف.. وهو نموذج للمتسول منذ «العهد القديم».. وأعني العهد التوراتي..

وهيأته ومظهره الذي يَدِرّ عطف الناس هو عبارة عن مؤسسة تجارية رابحة جدا.. ولو فتّشناه الآن لوجدنا معه أجرة موظف سام !

فحركت رأسها الصغير غير مصدقة، وتحرّك معه شعرها الناعم الفاحم المقصوص تحت أذنيها، وحول رقبتها بشكل أنيق، وتدلت منه خصلة على جبينها الأملس لتغطّي نصف عينها اليمنى :

- ألست تبالغ قليلا ؟! أنتم رجال الأمن تشكّون في كل شيء !

- نحن لا نعمل إلا بما قاله الرسول العظيم ﷺ : «من الحزم سوء الظن !» وهو حديث ينبغي أن يكون شعار الشرطة في كل مكان.

فقالت مستسلمة :

- ومن أولئك أحق بالصدقة في نظرك ؟

- إذا لم يكذبني حدسي، فالشاب الواقف هناك أحق بها.

فقالت منكرة :

- ذلك الشاب الأنيق الهندام ؟!

- نعم ! سترين..

وقبل أن تتمكن من سؤاله عما يهمّ أن يفعل، قام وقصد الشاب.

ومر في طريقه بالسائل الأعمى المحترف، فرفع هذا عقيرته فجأة بالدعاء، وكأن صغيرته أعطته إشارة بمروره : «الصدقة تنجّي، والعبد ما يدري.. الله يعلّي درجتك.. الله يحفظك من عين أولاد الحرام.. الله يدّيك ويردك بالسلامة..»

وما إلى ذلك من دعوات تضرب على عواطف المسافرين ومخاوفهم، وآمالهم ومطامحهم.

ووقف عند الشاب :

- مساء الخير..

فنظر إليه الشاب في شبه ذهول وكرر التحية :

- مساء الخير.

قال الرجل معتذرا :

- معذرة.. تشابهت لي مع شاب أعرفه، لا أدري أين رأيته. هل تنتظر أحدا ؟

- نعم.. ليس بالضبط.. أعني ليس أحدا بعينه.. أنتظر لعلني أرى أحدا أعرفه.

- من أين أنت ؟

- من طنجة.

- لا.. جئت إلى هنا أبحث عن عمل.. ولكنني لم أجد.. وانقضى ما كان معي من نقود، وتقطعت بي الحبال.. وها أنا أنتظر أحدا أعرفه ليقرضني ثمن التذكرة.

أليس لك أقارب ولا أصدقاء هنا ؟

فحرك رأسه نافيا. فقال الغالي :

- اسمع، إذا اشتريت لك تذكرة سفر، هل تعد أن تعيد لي ثمنها ؟

فحملق فيه الشاب غير فاهم، فشرح الغالي :

- أنا أريد أن أقرضك المبلغ لتعود إلى بلدك.. ولكن بشرط أن تردّه إليّ، ماذا تقول ؟

فحرك رأسه رافضا مرتابا :

- اسمح لي ياسيدي، فأنا لا أستطيع أن أقبل مالك.

- لماذا ؟

- لأنني لا أعرفك، وأنت لا تعرفني.. وماذا لو وعدتك برد المبلغ ولم أفعل ؟

فحك الغالي ذقنه عاجزا عن إقناعه، وقال وكأنه عثر على طريقة مرضية :

- إسمع.. إنك بقبولك سلفتي ستقدم لي خدمة ؟

- كيف ؟

- إنها قصة طويلة.. ولكن، باختصار.. أريد أن أرد دينا في عنقي لرجل فاضل أنقذني من نفس التي أنت فيها الآن، وأنا غلام صغير.. وللهفتي ودهشتي نسيت أن آخذ عنوانه حتى أرد إليه سلفته، فإذا قبلت أن أقرضك ثمن التذكرة فستكون قد أرحت ضميري من هذا الدين.

ولأنّ الشاب عند سماع هذه القصة الإنسانية، وقال :

- ولكن بشرط.. وهو أن تترك لي عنوانك لأبعث لك بالمبلغ حال وصولي إلى طنجة.
- طبعا، طبعا..

وأخرج محفظته، وتناول بطاقته، وناولها إياه :
- هذه بطاقتي، وعليها اسمي وعنواني.. تعال معي..

وذهب الإثنان إلى الشباك، واشترى الغالي تذكرة دسّها في يده، ومعها عشرون درهما :

- هذه لتشتري بها شيئا تأكله في الطريق..
ومدّ له يده مصافحا فوجد الشاب ينظر إليه ذاهلا مستغربا وكأن عينيه لا يصدقان ما يرى..

وفجأة اغرورقت عيناه، وتقاطرت منهما دموع كبيرة، وارتعشت شفتاه، فرفع ذراعه ليمسح دموعه، ويغطي عينيه خجلا من انتحابه الذي يبدو أنه فوجئ به هو قبل غيره.

وأمسك الغالي بكتفه وشدّ عليها، وقد تأثر لانفجار دموع انفراج الغمّ، والاعتراف بالجميل لهذا المحسن الغريب..
وودعه الغالي، وعاد إلى حيث كانت زوجته تشاهد الموقف. وجلس في مقعده، وقال :
- ألم أقلها لك !؟ ذلك الشاب الحسن الصورة والهندام والذي يبدو من عائلة ميسورة الحال، يعاني من محنة في صمت.

- ماذا حدث له ؟
- جاء لطلب عمل بالبيضاء فلم يجد، وانقضت فلوسه، ولم يجد من يغيثه.. «لا وجه للتسول، ولا كتف للعمل الشاق !» كما يقول المثل الدارج، فهو حقا الملهوف الذي قال عنه رسول الله ﷺ : «إغاثة الملهوف صدقة».
- رأيتك تقطع له تذكرة، إلى أين هو ذاهب ؟
- إلى بلده طنجة.
وتأثرت فريدة بأصالة زوجها وكرمه، فمدت يدها له عبر المائدة، وأمسكت بيده وضغطت عليها في إعجاب وحب.

ونادى بوق المحطة على المسافرين إلى (أكادير)، فوقفت فريدة بقوامها الممشوق في جلبابها الأسود الأنيق، وتثنى قدها الباني الرشيق داخله في أنوثة عفوية محتشمة هادئة.

وعلى باب الحافلة كان يقف السائق في حلته الرسمية يرحب بالمسافرين، ويراقب مساعده وهو ينظم الأمتعة على سطح الحافلة، ويغطيها بقلع سميك.

وجلس الغالي التمساني وزوجته فريدة في الصف الأمامي على اليمين، حيث لا يحجب السائق عنهما الرؤيا، يراقبان الركاب والمودعين.

وحان وقت الإقلاع فصعد السائق، وألقى نظرة أخيرة على رعيته الجديدة، وجلس يستعد للتحرك.

كان رجلا يميل إلى الطول والامتلاء، قوي البدن، مستدير الوجه، بساما، يصعب تحديد سنه بالضبط بين الخامسة والأربعين والخامسة والخمسين.

وانتظر حتى نزل مدير المحطة بلائحة الركاب وأعطاه الإشارة، فأقفل الأبواب الآلية، وخرج بالحافلة الضخمة يدير عجلة قيادتها الكبيرة بسهولة ومهارة.

وانطلقت الحافلة تخترق شوارع المدينة العملاقة البيضاء المستلقية على شاطئ المحيط الأطلسي، وقد تلألأت أنوارها، ولمعت شوارعها، وهي، في منتصف الليل، أبعد ما تكون عن التثاؤب أو النعاس..

ولم تلبث الحافلة أن دخلت الطريق المزدوجة، واتجهت نحو الجنوب تنهب الأرض بعجلاتها السميكة الضخمة..

وأشعل السائق الراديو فانطلق صوت المطربة عزيزة جلال وهي تغني لليل وتمجد الحب. وأطبق الظلام على الحافلة حين خرجت من الطريق المزدوجة إلى (الجديدة) المحفوفة بأشجار الصفصاف العالية. وأشعل السائق النور العالي فبدت فيه أغصان الأشجار المتشابكة والمدلاة فوق الطريق وكأنها أيدي أشباح من عمالقة الجن تهم بالتقاط الحافلة بمن فيها.

وأسندت فريدة رأسها إلى كتف زوجها منشدة النوم.

وبعد حوالي ساعة ونصف من الضرب الرتيب في الطريق الخالية الموحشة، وقد خفتت أصوات الركاب إلا أصوات أربعة شبان كانوا يجلسون في الكراسي الوسطى يتحدثون ويضجون بالضحك من حين لآخر، بان لعين السائق شبح يتحرك عن بعد وسط الطريق، فرفع حذاءه الكبير عن مداس السرعة وقال :

وانتبه الغالي التمساني فنظر إلى الأمام فرأى شابا يلوح بذراعيه للحافلة بقوة لتقف.. ورغم اقتراب الحافلة منه لم يتزعزع عن وسط الطريق.. وانصب عليه نورها الساطع فكشف عن ملامح تخيل الغالي أنه ربما كان قد رآها من قبل دون أن يذكر أين.

وانحنى على السائق :

ـ ماذا ستفعل ؟ هل ستقف له ؟

فحرك الرجل رأسه :

ـ كلاّ.. لا إذن لي بالوقوف في غير المحطات الرسمية، إلا في حالات الاستعجال، وقد يكون هذا فردا من عصابة !

وكان الشباب الأربعة قد شعروا بشيء ما يحدث عندما أبطأت الحافلة سيرها فوقفوا يشرئبون بأعناقهم فوق الرؤوس، وصاح أحدهم :

ـ إنه رجل يستوقف الحافلة.

ووقف الغالي التمساني، فانحنى على السائق، وهمس له :

ـ أعتقد أنه يجب أن نقف.. فقد تكون هناك حالة استعجال.

ـ ولكن..

ـ لا تخف.. أنا مفتش شرطة، ومعي سلاح.

وفتح زر سترته، وكشف عن مسدس تحت إبطه الأيسر، فداس السائق على المكبح على مهل، وانحرف بالحافلة عن الطريق.

وكان الرجل قد اقترب وهو يلوح، ويصيح وكأنه يستغيث من خطر ماحق حتى غطاه ضوء السيارة الناصع.

وكان جميع الركاب قد استيقظوا وتنبهوا لما يحدث، فوقفوا ينظرون إلى الرجل المستغيث.

وتوقفت الحافلة تماما، وانفتحت أبوابها، فخرج الغالي والشباب الأربعة، وتبعهم جميع الرجال، وعدد من النساء، يدفعهم الفضول، وحب الاطلاع.

وفسخ الغالي التمساني زر مسدسه، ووضع يده على مقبضه، وتقدم الجماعة يبحث عن الرجل الذي انحرفت عنه الحافلة إلى جانب الطريق، وينادي :

ـ آهيا ذاك ! أين أنت ؟

ودار حول الحافلة باحثا عنه بحذر..

ـ أين أنت ؟ ومن أنت ؟ وماذا تريد ؟

وعاد من الجانب الآخر يسأل الآخرين :

ـ أين الرجل ؟ هل رأيتموه ؟ لا أحد رآه بالمرة..

وانتشروا جميعا فرادى وجماعات ينادون الرجل، ويبحثون عنه بفنارات يدوية قوية دون جدوى..

لم يكن حوالي الطريق شجر، ولم يكن هناك مكان قريب يمكن أن يختبئ فيه..

بحثوا عنه تحت الحافلة، وفوقها، وصعد مساعد السائق إلى السطح لعله يجده مندسا بين الأمتعة.. لا شيء !

وأسرعت النساء بالعودة إلى كراسيهن.. وبدأت جلود الرجال تتشوك من الخوف..

من يكون هذا الشبح الذي أوقفهم واختفى ؟

ماذا كان يريد بهذه اللعبة السخيفة في الهزيع الأخير من الليل ؟!

وعاد جميع الركاب، بعدما يئسوا من العثور عليه، إلى أماكنهم. وجلسوا ينتظرون أن تقلع الحافلة مرة أخرى، ولكنها ظلت واقفة حيث هي والسائق مستند بصدره إلى عجلة القيادة، وقد تدلى رأسه قليلا إلى الأمام.

وناداه المساعد ليتحرك فلم يجب، وقام الغالي التمساني فوضع يده على ظهره، وهمس :

ـ سبحان الله ! سبحان الله ! أفق يا أخي لنذهب.

ولم يستجب السائق..

وحين حاول تحريكه من كتفه ليستيقظ انزلق صدره من فوق العجلة، وهوى من كرسيه جثة هامدة..

وصرخت فريدة ذعرا.. وسمعت شهقات النساء، ولغط الرجال من الخلف، وهم يتسابقون ويتزاحمون داخل الممر الضيق ليصلوا إلى حيث كان السائق المسكين مكوّماً..

ونادى الغالي التمماني :

ـ هل في الحافلة طبيب ؟

وأجابه أحد الشبان لم يكن أدرك بعد ما حدث :

ـ هل تمزح ؟! الأطباء لا يركبون الحافلات مثلنا نحن بقية عباد الله ؟ إنهم يركبون «الميرـ...

وسكت قبل أن يتم كلامه.. ولكزه زميل له بغمرته في ضلوعه، وهمس له بالخبر..

وانحنى الغالي، فأمسك برسغ السائق، وجس نبضه، ثم وضع كفه أمام أنفه، ووقف وأعلن :

ـ إنه ميت !

وطلب من جميع الركاب العودة إلى أماكنهم، وقال لمساعد السائق :

ـ يجب أن نخبر الدرك. انزل أنت واستوقف أي سيارة تمر في أي اتجاه. واخبرها بما حدث.

فقال المساعد :

ـ ألا يحسن أن نسوق الحافلة إلى أقرب محطة.. أنا أستطيع أن اسوقها..

ـ لا.. يجب ألا نتحرك قبل أن يعاين الدرك الحادث، ويكتبوا محضرهم.. فقد تحدث تعقيدات..

وحاول بعض الركاب التدخل لصالح التحرك نحو أقرب مدينة، فتصدى لهم الغالي بحزم قائلا :

ـ مخاطبكم مفتش شرطة.. أرجوكم البقاء في مقاعدكم حتى يأتي رجال الدرك، ويقوموا بواجبهم.

وتوقف اللغط والحركة..

وتوقفت شاحنة، فنزل الغالي وكلم سائقها، وأركب معه مساعد سائق الحافلة، وعاد يقعد إلى جانب زوجته.

وجاء رجل من الركاب إلى الغالي فانحنى عليه، وهمس :

ـ لا يصح أن تقعد السيدة في هذا المقعد، والميت أمامها.. إذا لم يكن لديكم مانع فبإمكانها أن تجلس في مكاني إلى جانب زوجتي بالمؤخرة..

ووافق الغالي شاكرا. ونهضت فريدة، وجلس الرجل المسن في مكانها إلى جانب الغالي، وأخذ يحمد الله بصوت مسموع، ثم التفت إلى الغالي وقال :

ـ ألم تفكر فيما كان سيحدث لنا لولا لطف الله ؟ لو كان السائق استمر في طريقه بسرعة الطريق العالية التي كان يسير بها، وتوقف قلبه فجأة ؟ ما كان لينجو منا أحد ! فالحمد لله على ألطافه الخفية..

فالتفت إليه الغالي مدركا حقيقة الموقف وقال :

ـ أنا أقول ألطافه الظاهرة ! فما معنى أن يظهر لنا رجل في جوف الليل، وفي هذا الطريق الخالي الموحش، ويوقف الحافلة بحركاته اليائسة، ثم يختفي وكأن الأرض ابتلعته !

ومسح الرجل المسن لحيته البيضاء، وقال موافقا ومعلقا :

ـ صدقت ! أنا أقول إنها كرامة من الله.. أو صدقة تصدق بها أحد الركاب على ملهوف فتقبلها الله تبارك وتعالى، وأدرك بلطفه جميع من في الحافلة..

وراح يردد :

ـ سبحانك ما أعظم شأنك !

وفي هذه اللحظة برقت في ذاكرة الغالي التمماني صورة المتسول الأعمى بالمحطة وهو يقول : «الصدقة تنجّي والعبد ما يدري !».

ولاح له وجه الشاب الملهوف الذي اشترى له تذكرة السفر في المحطة، وسقط فكه حين تبين الشبه الكبير بين وجهه، ووجه الرجل الشبح الذي كان يستوقف الحافلة في الظلام...

أحمد عبد السلام البقالي



معاناة قلم..

لست أدري لماذا يتهيب القلم ويحتار كلما حاول نقل بعض مشاعري ؟ أيخشى أن يكون أمينا صادقا في تجسيمها ؟ أم يعتريه خجل الطفولة، وتستبد به حالة ضعف كلما استوقفته لحظة انفعالها وفورانها ؟ فيهيم ويتيه في دنياها غير قادر على مجاراتها، فتخور وتنهار قواه ويقف كالطائر الذي عجز عن مسابقة وملاحقة فريسته !؟.. إن عالم المشاعر والأحاسيس عالم غامض، وكون فسيح !... وإن أي قلم مهما توخى الدقة في التعبير، واتسم بالحكمة، والتزم جانب الصدق لعاجز عن سبر أغوارها، والتماس أسرارها... ولطالما وقف لاهثا متعبا مكدودا تتقطع أنفاسه، وتتلاحق أناته دون أن ينال منها، أو تبدو وقد لانت قناتها، واستأنست بمداعباته لها...

تلك هي لحظة مخاض يعيشها القلم كلما كان هدفه استكشاف عوالم النفس بأبعادها وذلك هو بداية الإبداع، وعلامة الخلق لكل علاقة يقيمها اليراع مع منابع النفس المتدفقة، المختزنة للعواطف، المائجة بشتى المشاعر... وكأني به - وهو يحاورها لحظات صخبها وهدوئها. كقائد السفينة الذي يرحل في بحر تتلاطم أمواجه تارة، وتهدأ طورا آخر، فينهي رحلته بذكريات وانطباعات تتفاوت شدة وعنفا...

وهكذا القلم دائم المعاناة، يركب الصعب علّه يفوز أو يحظى بكنوز النفس ولكن ما أبعد منالها !... بيد أنه لا يكل أو ييأس طالما أنه يتقمص روح المغامرة، ويستعذب لحظات العراك العنيفة غير آبه أو مكترث بما قد يلحقه أو يصيبه من تعب ومشقة كلما كانت نهاية ذلك العراك تقوده إلى هدف من أهدافه المبتغاة، أو تجنح به إلى آفاق وعوالم سحرية ينبهر بها، فينطلق كآلة تصوير تسجل ما يراه تسجيلا دقيقا، وتنقل أسرار تلكم العوالم نقلا أمينا يتلقاها القارئ وكأنه بعض منها، أو مشهد من مشاهدها !...

تلك هي إذن رحلة القلم في أغوار الفكر والنفس كلما هام بالحقيقة، أو أراد إبداعا وذلك هو سر إعجابنا وافتتاننا به، هذا القلم الذي يأبى إلا أن يكون دليلنا في رياض الفكر، وهادينا في متاهات النفس، مقدما لنا أطباقا شهية من المعرفة تكون خلاصة ما استنتجه أو استنبطه، وموجز ما استقرأه طوال رحلته ومعاناته.

الرباط

أحمد حسن العمارتي

نداء إلى أساتذتنا وعلمائنا

مجلة دعوة الحق مقبلة على تطوير موضوعاتها وتجديد شكلها استجابة للدور المسؤول والهام الذي تضطلع به بلادنا نصرة لقضايا الامة الاسلامية ودفاعا عن توجهاتها المصيرية.

واذا كان الفكر الاسلامي الذي انشأ حضارة انسانية اعطت للعالم ينابيع متدفقة لا ينضب معينها ارشدته الى الطريق الضامن لتقدمه وتطوره في اجواء يهيمن عليها الهدوء النفسي، وتطبعها الفضيلة والاخلاق المثلى، فان من آكاد الواجبات على مثقفينا ومفكرينا ان يوالوا الاسهام الجاد والمبدع في المسيرة التي تنهض بها امتنا الاسلامية في مختلف اصقاع العالم لكي يبقى عالمنا الاسلامي عالما تظلله الحكمة والفضيلة والتعاون والوئام.

ودعوة الحق وهي توجه هذا النداء الفكري الى اساتذتنا وعلمائنا لتنتظر منهم المشاركة المتواصلة على صفحاتها في مجال الفكر والثقافة الاسلاميتين.

مطبعة فضالة . المحمدية . المغرب
رقم الايداع القانوني 1981/3

الاشتراك السنوي في مجلة «دعوة الحق»

تنهي وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية إلى علم العموم أن الاشتراك السنوي في مجلة دعوة الحق أصبح إبتداء من فاتح يناير 1985 على الشكل الآتي :

في المملكة المغربية	70,00 درهما
في بقية دول العالم	80,00 درهما

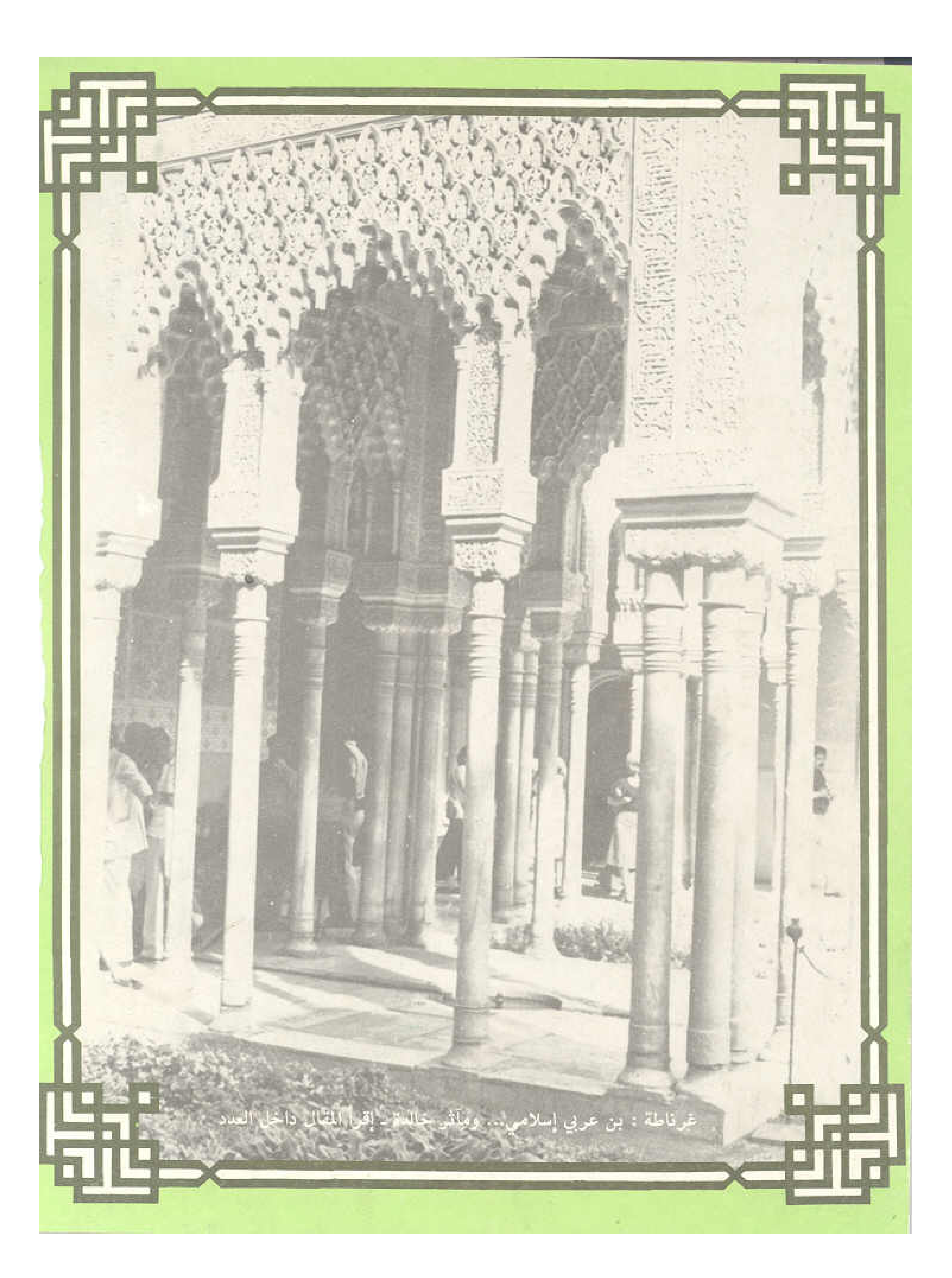
تودع قيمة الاشتراك السنوي في حساب المجلة البريدي رقم : 55 - 485 - الرباط.

الاشتراك السنوي في مجلة «الإرشاد»

تنهي وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية إلى علم العموم أن الاشتراك السنوي في مجلة الإرشاد أصبح إبتداء من فاتح يناير 1985 على الشكل الآتي :

في المملكة المغربية	20,00 درهما
في بقية دول العالم	25,00 درهما

تودع قيمة الاشتراك السنوي في حساب المجلة البريدي رقم : 50 - 73 - الرباط.



غرناطة : بن عربي إسلامي... ومآثر خالدة - إقرأ المقال داخل العدد